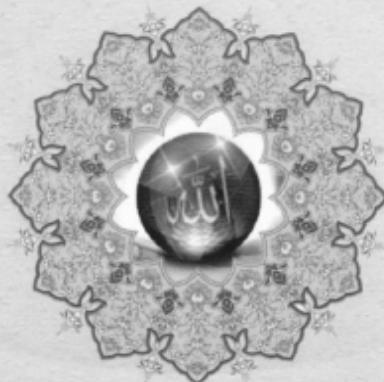


مُطْرَح

في الفكر المادي والفكر الديني

تأليف

يُحَمِّلُ اللَّهُ لِهِ الْيَسْرَ شِيخُ مُحَمَّدِ بْنِ سَلَمَةِ



تحقيق
محمد صادق الغريبي
باشراف
الأستاذ سامي الغريبي

تأشير

دار الكتاب الإسلامي

مطارات في الفكر المادى والفكر الدينى

تأليف
العلامة محمد مهدى شمس الدين

تحقيق
محمد صادق الغريبي

باشراف
الاستاذ سامي الغريبي

مؤسسة
دار الكتاب الاسلامي

جميع حقوق الطبع محفوظة ومسجلة للناشر

الكتاب مطاراتات في الفكر المادي والفكر الديني

المؤلف العلامه محمدمهدي شمس الدين رحمه الله

الناشر دارالكتاب الاسلامي

الطبعة الاولى ١٤٢٧ھ / ٢٠٠٦م

المطبعة مطبعة ستار

عدد النسخ (٢٠٠٠) نسخه

الترقيم الدولي: ٩٦٤ - ٤٦٥ - ١٦٦ - ٩

ISBN: 964 - 465 - 166 - 9

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



فَهْرَسُ الْمُوْضُوعَات

١١ تَقْدِيم

الْقِسْمُ الْأَوَّل

١٧	المَادِيَةُ فِي الرَّأْسِمَالِيَّةِ وَالْمَازِكَسِيَّةِ
١٧	وَمَأْسَاةُ إِنْسَانِ عَصْرِنَا
٤١	الْمَازِكَسِيَّةُ وَالْعِلْمُ وَالسِّيَاسَةُ
٤٣	الْمَذْلُولُ السِّيَاسِيُّ لِقَانُونِ حَرْكَةِ التَّطْوُرِ
٤٥	الْمَذْلُولُ السِّيَاسِيُّ لِقَانُونِ تَنَاقُضَاتِ التَّطْوُرِ
٤٩	الْمَذْلُولُ السِّيَاسِيُّ لِقَانُونِ قَفْزَاتِ التَّطْوُرِ
٥٣	الْمَذْلُولُ السِّيَاسِيُّ لِقَانُونِ اِرْتِبَاطِ الْعَامِ
٥٥	الخُلاَصَةُ

مُطَارَحَاتٌ فِي الْفِكْرِ الْمَادِيِّ وَالْفِكْرِ الدِّينِيِّ

٦١	تَصْفِيَةُ حِسَابِ صَغِيرٍ
٦٣	مَذَلَّلٌ

٦٥	آ - أهليّة المؤلّف
٦٦	ب - وظيفة الدين، ما هي؟
٧٠	ج - منهج البحث

الله أم المادة

٧٥	تمهيد
٧٩	مسألة العلة الأولى
٨٥	الله أم المادة
٨٧	النتيجة
٩٥	الإسلام والعلم
١٠٧	خلق الإنسان

الجن والملائكة وأبحاث أخرى

١٢٣	الجن والملائكة
١٢٥	النظرة الغائية
١٢٧	تدخل القدرة الإلهية في عمل الطبيعة
١٢٨	ترزوير وتناقض
١٣٠	التوسيق التبريري
١٣٠	التوسيق التعسفي
١٣١	التوسيق على الطريقة اللبنانية

١٣٢	تناقض:
١٣٧	قصة إبليس
١٣٨	مَصَادِرُ الْمُؤَلَّفِ
١٤١	الحرية الداخليَّة
١٤٧	الأَرَادَةُ التَّكْوينِيَّةُ = الأَمْرُ التَّكْوينِيُّ
١٤٨	الأَرَادَةُ التَّشْرِيعِيَّةُ = الأَمْرُ التَّشْرِيعِيُّ
١٥١	قصة إبليس القرآنية
١٥٢	مَوْقَفَانِ:
١٥٥	الحرية وشبَهَةُ الْإِغْوَاءِ
١٥٩	الأَوَّلُ - لِمَنِ السُّجُودُ؟
١٦١	الثاني - مَعْنَى السُّجُودِ
١٦٢	الثالث - مَغْزِي السُّجُودِ
١٦٧	تناقض:
١٧٣	كُبْرِيَاءُ إبليس
١٧٧	بَيْنَ قِصَةِ إِبْرَاهِيمَ وَقِصَةِ إِبْلِيسِ

المَكْرُ الْإِلَهِي

١٨٣	المَكْرُ الْإِلَهِي
-----	---------------------

نظرة نقدية إلى ركيز الماركسية

٢١١	الركيز الأساسية للفلسفة الماركسية
٢١٣	تحديد المفاهيم
٢١٥	المفهوم المثالي
٢١٥	المفهوم الواقعي المادي
٢١٥	المفهوم الواقعي الإلهي
٢١٩	حركة التطور
٢٢٠	طبيعة الحركة
٢٢٠	التناقض
٢٢١	الحركة في الماركسية
٢٢٢	الحركة في الواقعية الإلهية
٢٢٥	مجال الحركة
٢٢٦	المحاولة الأولى
٢٢٨	المحاولة الثانية
٢٣٠	المحاولة الثالثة
٢٣٣	تناقضات التطور
٢٣٥	قفزات التطور
٢٣٥	في طريقة البرهان
٢٣٦	في مباديء القانون
٢٣٦	تحول التغيير الكمي إلى تغيير كيفي

٢٢٧	الإِنْتَقَالُ بِالْقَفْزَةِ وَالدُّفْعَةِ
٢٢٨	إِنَّ التَّطَوُّرَ لَيْسَ دَائِرِيًّا، وَإِنَّمَا هُوَ تَقدَّمٌ صَاعِدًا
٢٤١	الإِرْتِبَاطُ الْعَامُ
٢٤٧	فَهْرِسُ الْأَيَّاتِ
٢٥٧	فَهْرِسُ الْأَحَادِيثِ
٢٥٩	فَهْرِسُ الْمَصَادِرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَقْدِيم

هَذِهِ مُطَارَحَاتٍ فِي الْفِكْرِ الدِّينِيِّ وَالْفِكْرِ الْمَادِيِّ كَتَبَتْ الْقِسْمُ الثَّانِيُّ مِنْهَا وَنَشَرَتْ مُعْظَمَهُ مُنْذُ سِنِينٍ فِي مُلْحِقِ جَرِيدَةِ النَّهَارِ الْبَيْرُوتيَّةِ فِي حَلَقَاتِ أَسْبُوعِيهِ فِيمَا بَيْنَ (٢٢ شُبَّابَطَ سَنَةِ ١٩٧٠ وَ ١٧ أَيَّارَ سَنَةِ ١٩٧٠ م.).

وَكُنْتُ أَقْدَرُ أَنَّ الْحَاجَةَ إِلَى هَذِهِ الْمُطَارَحَاتِ قَدْ أَنْتَهَتْ بَنْشُرِهَا وَإِذَا عَتَهَا فِي النَّاسِ عَنْ طَرِيقِ الصَّحَافَةِ الْأَسْبُوعِيَّةِ، وَلِذَا فَلَّا دَاعِيٌّ لِإِعَادَةِ نَشْرِهَا فِي كِتَابٍ. وَلَكِنَّ نَفْرَأً كَبِيرًا كَرِيمًا مِنْ عُلَمَاءِ الدِّينِ وَالْمَعْنَى بِقَضَايَا الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ أوَ الْفِكْرِ الدِّينِيِّ بِوَجْهِ عَامٍ، وَمِنْ الطُّلَابِ الْجَامِعِيِّينَ يَرَوْنَ أَنَّ الْحَاجَةَ إِلَى هَذِهِ الْمُطَارَحَاتِ لَمْ تَتَّهَ بَنْشُرِهَا فِي الصَّحَافَةِ، بَلِ الْحَاجَةُ إِلَيْهَا مُتَجَدِّدةٌ لِأَنَّهَا مَلَأَتْ فُرَاغًا كَبِيرًا فِي الْحَقْلِ مِنْ حُقُولِ الْمَوَاجِهَةِ الْفِكْرِيَّةِ بَيْنَ الدِّينِ وَالْمَادِيَّةِ، وَلَا تَهَا أَضَاءَتْ مَسَاحَاتٍ كَبِيرَةً وَهَامَّةً، رُبَّمَا كَانَ غَمُوضُهَا بَاعثًا عَلَى الْحَيْرَةِ وَالشُّكْرِ عِنْدَ الْمُؤْمِنِ، وَحَافِزًا عَلَى التَّجْنِيِّ وَإِطْلَاقِ الْأَخْكَامِ الْخَاطِئَةِ عَلَى الدِّينِ عِنْدَ مَنْ فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ.

وَهُم يَرَوْن أَنَّ هَذِهِ الْحَاجَةِ الْمُتَجَدِّدَةِ تَقْتَضِي بِنَسْرِ هَذِهِ الْمُطَارَحَاتِ فِي كِتَابٍ يُسْهِلُ تَدَاوِلَهُ وَالرُّجُوعَ إِلَيْهِ.

وَقَدْ رَغَبَ إِلَيَّ بَعْضُ مَنْ ذَكَرْتُ أَنَّ أَوْضَحَ - فِي هَذِهِ الْمُطَارَحَاتِ - أَثْرَ الْمَادِيَّةِ فِي مَأْسَاةِ الْعَالَمِ الْثَالِثِ مِنْ خِلَالِ مُعَايَاتِهِ الْأَلْيَمَةِ مِنِ الرَّأْسِمَالِيَّةِ، وَالْمَازِكِسِيَّةِ. وَقَدْ أَسْتَجَبْتُ لِهَذِهِ الرَّغْبَةِ الْكَرِيمَةِ النَّبِيلَةِ فَكَتَبْتُ الْقِسْمَ الْأَوَّلَ مِنْ هَذِهِ الْمُطَارَحَاتِ عِنْدَمَا قَرَرْتُ نَسْرَهَا فِي كِتَابٍ.

إِنَّ الْقِسْمَ الْأَوَّلَ يُكَمِّلُ الْقِسْمَ الثَّانِي. فَحِينَ يُعَرَّضُ الْقِسْمُ الثَّانِي لِلْمَادِيَّةِ عَلَى مُسْتَوْىِ الْفِكْرِ وَالْفَلْسَفَةِ يُعَرَّضُ الْقِسْمُ الْأَوَّلَ عَلَى مُسْتَوْىِ السِّيَاسَةِ وَالْعِلَاقَاتِ الدُّولِيَّةِ، وَبِذَلِكَ يُقْدِمُ الْوَجْهُ التَّجَرِبِيُّ لِلْمَادِيَّةِ فِي السِّيَاسَةِ.

وَإِذْ كُنْتُ أَعْدَّ هَذَا الْكِتَابَ لِلنَّشْرِ كَانَتْ تُدْويُ فِي أَذْنِي أَنْبَاءُ الْعُدُوانِ الْإِسْرَائِيليِّ عَلَى وَطَنِي لُبْنَانَ فِي أَقْدَسِ بُقَاعِهِ، وَهِيَ جُنُوبُهُ - جَبَلُ عَامِلُ - أَرْضُ الْعِلْمِ وَالْتَّقْوَى، وَالْإِنْسَانِيَّةِ الْعَالِيَّةِ وَنُبُلِ الْأَخْلَاقِ. وَأَرَى بِعِينِي أَثْارَ الْعُدُوانِ الْوَحْشِيِّ فِي عَشْرَاتِ الْأَلْفِ مِنِ النَّازِحِينَ مِنِ الْقَرُونِيَّنِ الْمَدِنِيَّيْنِ الْعَزِلِ يَتَدَفَّقُونَ عَلَى بَيْرُوتِ وَغَيْرِهَا فَأَعِيشُ مَأْسَاةَ الْعَالَمِ الْثَالِثِ كُلَّهُ فِي لَوْحةِ حَيَّةٍ تَرْسِمُهَا الصَّهِيُونِيَّةُ بِالْحَدِيدِ وَالنَّارِ عَلَى لَحْمِيْ وَدَمِيْ، أَعِيشُ الْمَأْسَاةَ، لَا كَشَاهِدُ عَلَيْهَا، وَإِنَّمَا كَضَحَيَّةٌ وَوَقُودٌ لَهَا، وَأَرَى كَيْفَ أَنَّ مَادِيَّةَ عَصْرِنَا تُتَفَذَّ فَصَلَّاً مِنْ جَرِيمَتَهَا ضِدَّ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى يَدِ آلَّهِ شَيْطَانِيَّةِ مِنْ آلَّاتِهَا الْإِجْرَامِيَّةِ الْمُجْرَمَةِ هِيَ الْقُوَّةُ الصَّهِيُونِيَّةُ الَّتِي تُمَثِّلُ ذَرَاعًا مِنْ أَذْرُعِ الْمَادِيَّةِ الَّتِي تَسْوُطُ بِهَا الْعَالَمَ الْثَالِثَ..... آهٌ مَا أَشَدَّ مَرَأَةَ الْحَيَاةِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ بَعْدَ سَنَوَاتِ ثَلَاثٍ مِنِ الْمُعَايَةِ الْيَوْمِيَّةِ لِلْآلامِ النَّاسِ فِي الْفِتْنَةِ الْلُّبْنَانِيَّةِ الْبَشْعَةِ الَّتِي هِيَ مَشْهَدٌ آخِرٌ مِنْ مَشَاهِدٍ تُلَأْعِبُ الْمَادِيَّةَ بِمَصَائِرِ

العالم الثالث.

وعلى أي حال فلئن أمامنا الآن سوى أن نتظر ما يقوم بها المجتمع الدولي من خلال مجلس الأمن ومنظمة الأمم المتحدة أتجاه العدوان الإسرائيلي علينا، وبإنتظار ذلكأشعر أن علينا العمل لإعادة النازحين إلى قراهم لئلا تجد الصهيونية أمامها أرضاً خالية من السكان تبعث فيها مطالع جديدة.

ومهما حاولت القوى التي تقف وراء الصهيونية أن تُسقي غرسها الشيطاني هذا بدماء العرب وتُغذيه بأرضهم فلن تستطيع أبداً أن تجعل الصهيونية أصلة في فلسطين سبقت غريبة ملعونة ترفضها الأرض، وترفضها الأمة، وترفضها حركة التاريخ، وتقتلها إرادة الله بأيدي عباده الأبرار وإرادتهم وعزهم. إن الصهاينة يجتمعون في فلسطين لشر يوم لهم في التاريخ، متى يشرق هذا اليوم....؟ إننا لا نعلم، ولكنه آتٍ لا ريب فيه ذلك وعد الله، والله لا يخلف الميعاد:

- ١ - «وَلَا يَحْسِنُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَسْبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ»^(١).
- ٢ - «لَا تَخْسِنُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَمْعَجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَنُهُمُ النَّارُ وَلِنُشَّ أَمْصِيرُ»^(٢).

إن علينا أن نعد أمتنا لهذا اليوم الموعود، ونصونها من التلوث والفساد والإنحلال بما تفرزه المادية في الثقافة وأساليب الحياة من سموم تفسد شخصية الإنسان وتذهب بأسالته وتجعله بذلك إحدى نفایات أمته التي تضعف

(١) الأنفال: ٥٩.

(٢)آلثور: ٥٧.

تَمَاسِكَهَا، وَتُوْهَنْ قُوَّتَهَا.

* * *

آمِلُ أَنْ تُسَاهِمَ هَذِهِ الْمُطَارَحَاتِ فِي تَعْزِيزِ الْمَنَاعَةِ الْفِكْرِيَّةِ أَمَامَ غَزوَ الْمَادِيَّةِ
مِنْ خِلَالِ الْمَازِكَسِيَّةِ أَوْ مِنْ خِلَالِ الرَّأْسِمَالِيَّةِ، وَفِي مَعْوِنَةِ الْبَاحِثِينَ عَنْ ضِيَاءِ يُنِيرُ
ظَلَامَ دُرُوبِهِمْ، وَعَنْ هُدَى يُخْرِجُهُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ أَوْ حَيْرَةِ الشُّكِّ إِلَى نُورِ
الْإِيمَانِ بِاللهِ، وَالْحَمْدُ لِللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

مُحَمَّدُ مَهْدَى شَمْسُ الدِّينِ
رَبِيعُ الثَّانِي ١٣٩٨ هـ
آذار (مارس) ١٩٧٨ م

القِسْمُ الْأَوَّلُ

١ - المَادِيَّةُ فِي الرَّأْسِمَالِيَّةِ، وَالْمَارْكِسِيَّةِ،
وَمَأسَاهُ إِنْسَانٌ عَصْرَنَا

٢ - المَارْكِسِيَّةُ وَالْعِلْمُ وَالسُّيَاسَةُ

المادِيَّة فِي الرَّأْسِمَالِيَّةِ وَالْمَازِكَسِيَّةِ وَمَأسَاهُ إِنْسَانٌ عَصْرُنَا

هَذَا كِتَابٌ يَتَضَمَّنُ مُطَارَحَاتٍ بَيْنَ الْفِكْرِ الْمَادِيِّ - كَمَا تَعْرُضُهُ النَّظَرَيَّةِ
الْمَازِكَسِيَّةِ - وَالْفِكْرِ الدِّينِيِّ مُتَمَثِّلًا بِالْإِسْلَامِ.

وَهَذِهِ النَّظَرَةُ الْمَادِيَّةُ الْخَالِصَةُ إِلَى أَصْلِ الْكَوْنِ، وَالْحَيَاةِ وَالْإِنْسَانِ هِيَ النُّقْطَةُ
الْأَزْخَمِيدِيَّةُ، نُقْطَةُ الْخِلَافِ الرَّئِيْسِيَّةِ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَبَيْنَ الْمَازِكَسِيَّةِ، وَعَنْهَا تَتَفَرَّعُ
الْخِلَافَاتُ الْأُخْرَى.

وَتُرِيدُ أَنْ تُشِيرَ هُنَّا سُؤَالًا هَامًا:

إِذَا كَانَتِ الْمَازِكَسِيَّةُ مَادِيَّةٌ فَهَلِ الرَّأْسِمَالِيَّةُ - ضِدُّهَا الْأَيْدِيُولُوْجِيِّيَّ وَخَصْمُهَا
السِّيَاسِيُّ - رَوْحَانِيَّةٌ تُؤْمِنُ بِقُوَّةِ وَرَاءِ الطَّبِيعَةِ يَرْجِعُ إِلَيْهَا الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ؟

إِذَا كَانَتِ الْمَازِكَسِيَّةُ، إِنْطَلَاقًاً مِنْ مَادِيَّتِهَا، تَرْفَضُ الْإِيمَانَ بِاللهِ، وَمَنْ ثُمَّ فَهِيَ
تَرْفَضُ الْإِعْتَرَافَ بِالنُّبُوَّةِ وَالْوَحْيِ، وَمَنْ ثُمَّ فَهِيَ تَرْفَضُ الْإِعْتَرَافَ بِالدِّينِ، بَلْ
وَتُحَارِبُهُ وَتَعْتَبِرُهُ خَصْمًا عَلَيْهَا أَنْ تَقْضِي عَلَيْهِ فِي ظَاهِرِ التَّرْكِيبِ الْمُؤْسَسِيِّ
الْإِجْتِمَاعِيِّ وَفِي بِاطِنِ الضَّمِيرِ الْإِنْسَانِيِّ لِتُخْلِصَ الْإِنْسَانَ مِنْ آثَارِهِ الضَّارَّةِ فِي
تَحْذِيرِ الشُّعُوبِ، وَلَتُمْكِنَ لَنَفْسِهَا فِي الْوَعِيِّ الْإِنْسَانِيِّ فَتَدْفَعُ بِالْإِنْسَانِ إِلَى إِسْعَادِ

نَفْسِهِ وَعَالْمِهِ ... إِذَا كَانَتِ الْمَازِكِسِيَّةُ هَكَذَا هَلِ الرَّأْسِمَالِيَّةُ مُضَادَّةً لَهَا فِي هَذِهِ النَّظَرَاتِ، وَالْمَوَاقِفِ؟ هَلْ تَعْتَرِفُ الرَّأْسِمَالِيَّةُ بِاللَّهِ؟ وَمَنْ ثُمَّ فَهَلْ تَعْتَرِفُ بِالنُّبُوَّةِ وَالْوَحْيِ؟ وَمَنْ ثُمَّ فَهَلْ تَعْتَرِفُ بِالدِّينِ، وَكَيْفَ تَعْتَرِفُ بِالدِّينِ؟.

الْحَقُّ أَنَّ الرَّأْسِمَالِيَّةَ ذَاتَ مَظَاهِرٍ خَادِعَ رَوَاعَ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ تُغَرِّ النَّاظِرُ السَّطْحِيُّ إِلَيْهَا فَيَحْسِبُ أَنَّهَا مَذْهَبٌ فِي الْحَيَاةِ لِلَّدِينِ فِيهِ مَكَانٌ مَكِينٌ. وَلَكِنَّ الْبَاحِثُ الَّذِي تَسْجَاؤُزُ مُلَاحَظَتِهِ السَّطْحِيِّ الْخَادِعِ سُرْعَانٌ مَا يَكُتُشِفُ أَنَّ الرَّأْسِمَالِيَّةَ كَالْمَارْكِسِيَّةِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ وَالْخِلَازِفُ سُرْعَانٌ مَا يَكُتُشِفُ أَنَّ الرَّأْسِمَالِيَّةَ كَالْمَارْكِسِيَّةِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ وَالْخِلَافُ بَيْنَهُمَا فِي الْأُسْلُوبِ لَا فِي جَوْهَرِ الْمَوْقِفِ. وَسَيِّرُ الْبَاحِثُ الْمُتَعَمِّقُ أَنَّ الرَّأْسِمَالِيَّةَ كَالْمَارْكِسِيَّةِ مَادِيَّةً.

فَالرَّأْسِمَالِيَّةُ تَتَعَامِلُ مَعَ الْكَوْنِ، وَالْحَيَاةِ، وَالإِنْسَانِ مِنْ مُنْطَلِقَ مَادِيَّ لَا يَتَرَكُ مَجَالًا لِمَسَأَلَةِ وجُودِ اللَّهِ وَمَا يَتَفَرَّعُ عَنْهَا مِنْ وَحْيٍ، وَنُبُوَّةٍ، وَآدِيَانٍ، وَشَرَائِعٍ دِينِيَّةٍ. وَغَایَةُ الْفَرَقِ بَيْنَهُمَا هِيَ :

أَنَّ الْمَازِكِسِيَّةَ نَظَامٌ فَلْسَفِيٌّ يَدْعُونَ لِنَفْسِهِ الشَّمُولِ. وَهَذَا يَقْضِي مَنْطَقِيًّا بِأَنَّ يَنْفِي لِكُلِّ نَظَامٍ فِكْرِيٍّ آخِرٍ مُغَایِرٍ لَهُ وَيَدْعُونَ مُجَافَاتِهِ لِلْحَقِيقَيَّةِ وَبُطْلَانِهِ. وَلَمَّا كَانَتْ عَقِيَّدَةُ وجُودِ خَالقِ لِلْكَوْنِ خَارِجَ عَنْهُ، عَلَى النَّحوِ الَّذِي تُبَشِّرُ بِهِ الْأَدِيَانُ السَّمَاوِيَّةِ - مُضَادَّةً لِعَقِيَّدَةِ هَذَا النَّظَامِ الْفَلْسَفِيِّ الْمَادِيِّ النَّافِيَّةِ بِحُكْمِ تَفْسِيرِهَا الْمَادِيِّ لِلْكَوْنِ، وَالْحَيَاةِ، وَالإِنْسَانِ - لَوْجُودُ خَالقِ لِلْكَوْنِ وَمَا فِيهِ، وَمَنْ فِيهِ خَارِجٌ عَنْهُ، فَلَا بُدَّ لَهُ أَنْ يَنْفِي الْعَقِيَّدَةَ الْدِينِيَّةَ وَأَنْ يَنْفِي كُلَّ مَا يَتَفَرَّعُ عَنْهَا مِنْ عَقِيَّدَةِ الْوَحْيِ، وَالنُّبُوَّةِ، وَالشَّرَائِعِ، وَالقِيمِ الْمُسْتَمَدَةِ مِنْ الْوَحْيِ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَنْ يَنْبَحِثَ لِكُلِّ هَذِهِ التَّوَابِتِ فِي ثَقَافَةِ الإِنْسَانِ وَحَضَارَتِهِ عَلَى مَدِيَّ التَّارِيخِ عَنْ

تَفْسِيرٌ مَادِيٌّ يَتَقَوَّلُ مَعَ أُصُولِهِ وَقَوَاعِدِهِ الْفَلْسُفِيَّةِ المَادِيَّةِ . أَمَّا الرَّأْسِمَالِيَّةُ فَلَيَسْتَ نَظَامًا فَلْسُفِيًّا، إِنَّهَا طَرِيقَةُ حَيَاةٍ، وَلَكِنَّهَا لَيَسْتَ طَرِيقَةً سَاذِجَةً، بَلْ هِيَ قَائِمةٌ عَلَى مُعْطَياتٍ فِكْرِيَّةٍ لِخَلْيِطٍ مِنَ الْفَلْسَفَاتِ أَدَتْ جَمِيعَهَا إِلَى تَكُونِ نَظَرَةً مَادِيَّةً إِلَى الْكَوْنِ، وَالْحَيَاةِ وَالْإِنْسَانِ . فَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الرَّأْسِمَالِيَّةَ لَمْ تَعْدُ نَظَامًا وَمَنْهَجًا إِلَّا عَلَى اِنْقَاضِ الْفِكْرِ الدِّينِيِّ الْمَسِيحِيِّ الَّذِي قَضَى عَلَيْهِ الْفَلْسَفَاتُ الَّتِي رَفَضَتْ مُعْتَقَدَاتِ الْكَنِيَّسَةِ وَنَظَامَهَا وَأَخْلَاقَهَا، وَأَحْلَتْ مَحْلَهَا نَظَرَةً مَادِيَّةً إِلَى الْكَوْنِ، وَالْحَيَاةِ، وَالْإِنْسَانِ، وَأَنْظَمَهَا وَأَخْلَاقَهَا، وَأَحْلَتْ مَحْلَهَا النَّظَرَةَ الْمَادِيَّةَ .

وَلَكِنَّ الرَّأْسِمَالِيَّةَ مَعَ كُونِهَا طَرِيقَةَ حَيَاةٍ مَادِيَّةً، تَقْوِيمٌ عَلَى أَفْكَارٍ مَادِيَّةٍ، أَبْقَتَ عَلَى الْكَنِيَّسَةِ بَعْدَ أَنْ جَرَّدَهَا مِنْ سُلْطَانِهَا الزَّمْنِيِّ تَجْرِيدًا كَامِلًا أوْ شُبُهَ كَامِلًا . إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تُبْقِ عَلَيْهَا بِإِعْتِبَارِهَا مُؤْسَسَةً فَاعِلَّةً فِي الْحَيَاةِ مُوجَّهَةً لَهَا، مُنَظَّمةً لِنَشَاطَاهَا، بَلْ بِإِعْتِبَارِهَا مُؤْسَسَةً تَسْتَهُوِي عَقَائِدَهَا وَطَقُوسَهَا فِتَّةً مِنَ النَّاسِ لَا تَزَالُ مُؤْمِنَةً بِهَا . وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَظِيرُ الرَّأْسِمَالِيَّةَ فِي شَيْءٍ مَادَّا مِنَ الْكَنِيَّسَةِ لَا تُقْمِدُ نَفْسَهَا فِي الشُّؤُونِ الَّتِي تَقْوِيمُ عَلَيْهَا طَرِيقَةَ الْحَيَاةِ الرَّأْسِمَالِيَّةِ وَلَا تُعْطِلُ أَيَّ نَشَاطٍ مِنْ أَنْشِطَتُهَا . بَلْ إِنَّ مُفَكَّرِي الرَّأْسِمَالِيَّةِ فِي الْإِقْتَصَادِ، وَالسُّيَاسَةِ، وَالْإِجْتِمَاعِ، رَأُوا أَنَّ الْمُؤْسَسَةَ الدِّينِيَّةَ لَيَسْتَ عَدِيمَةَ الْفَائِدَةِ فِي شَأنِ تَفْعِيلِ الْخُطُوطِ الَّتِي وَضَعَتْهَا الدَّوَائِرُ الرَّأْسِمَالِيَّةُ لِإِحْتِلَالِ الْعَالَمِ الْقَدِيمِ وَالْجَدِيدِ فِي آسِيَا وَأَفْرِيَقِيَا، وَأَمْرِيَكا الْلَّاتِينِيَّةِ . وَلَيَسْتَ عَدِيمَةَ النَّفْعِ فِي الْصَّرَاعِ الَّذِي تَخُوضُهُ الْقَوْى الرَّأْسِمَالِيَّةُ مَعَ الطَّبَقَةِ الْعَامِلَةِ . كَمَا أَنَّهَا - كَمَا تَبَيَّنَ أَخِيرًا - لَيَسْتَ عَدِيمَةَ النَّفْعِ فِي الْصَّرَاعِ الْأَيْدِيُولُوْجِيِّ ذِي الْأَهْدَافِ السُّيَاسِيَّةِ وَالْإِقْتَصَادِيَّةِ بَيْنَ الرَّأْسِمَالِيَّةِ وَالشُّيُوعِيَّةِ

التي لم تقل يوماً ما طموحاً عن غيريتها الرأسمالية إلى احتلال العالم القديم والجديد في آسيا، وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية.

وإذن فقد أبقيت الرأسمالية على المؤسسة الدينية لأنَّ الرأسمالية تؤمن بالله واليوم الآخر، وتؤمن بالوحى والنبوة، وتؤمن بالأديان، والشائع، والقيم الدينية، فهي - باعتبارها طرقة حياة مبنية على نظرية مادية - لا تعنى بهذه الأمور على الإطلاق^(١). قد يكون في المجتمعات الرأسمالية مؤمنون، وقد يكون فيها ملحدون، فهي تتسع لهؤلاء وهؤلاء ولكن هذا لا يعني أنها مبنية على الإيمان

(١) قال أعرابي لبنيه: أجمعوا الدرَّاهم فإنَّها تُلِّيسَ الْيَلْمَقَ - أي القباء المحسو - وتطعم الجرزدق - أي الرَّغِيف -.

وقال أعرابي وقد نظر إلى دينار: قاتَلَكَ الله! ما أصْفَرَ قمَّتكَ، وأكْبَرَ هِمَّتكَ! .
وَسَلَّلَ أَفْلَاطُونَ عَنِ الْمَالِ، فَقَالَ: مَا أَقُولُ فِي شَيْءٍ يُعْطِيهِ الْحَظَّ، وَيَحْفَظُهُ اللُّؤْمُ، وَيُلْعِنُهُ الْكَرَمُ! .
وَكَانَ يَقَالُ: ثَلَاثَةٌ يُؤْثِرُونَ الْعَالَمَ عَلَى أَنفُسِهِمْ: تَاجُرُ الْبَحْرِ، وَالْمُقَاتِلُ بِالْأُجْرَةِ، وَالْمُرْتَشِيُّ فِي الْحُكْمِ وَهُوَ شَرَّهُمْ، لِأَنَّ الْأَوَّلِينَ رُبُّمَا سَلِّمُوا، وَلَا سَلَامَةَ لِلثَّالِثِ مِنَ الْإِثْمِ .
وَقَدْ سَمِّيَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْمَالُ خَيْرًا كَمَا فِي قَوْلِهِ: «إِنْ تَرَكْ خَيْرًا» الْبَقْرَةُ: ١٨٠، وَقَالَ تَعَالَى: «وَإِنَّهُ وَلِحَبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ» الْعَادِيَاتُ: ٨ .

وقالوا في ذم المال: المال مثل الماء غادٍ وزائف، طبعه كطبع الصبي لا يُوقف على سبب رضاه، ولا سخطه، المال لا ينفعك ما لم تفارقه.

وقد أخذ الشاعر هذا المعنى وقال فيه:
ولا وده حتى تفارقه عمنا
وصاحب صدق ليس ينفع قربه
وقال آخر:

إذا جم آتيء وسد طريقه
وسد طريق الماء فهو غير يقظة
ألم تر أن المال يهلك زبه
وممن جاوز البحر الغزير يقتحمه

أنظر، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحميد: ١٩٥/١٨.

الدّينيّ بوجّهِهِ مِن الوجوهِ. وإنّما أبقيت عَلَى المؤسّسات الدّينيّة لأنّها: أولاً: لَيْسَت مَوْقِفًا فلسفياً يُنفي مَا يُخالِفُهُ وَيُضادُهُ مِن أفكار وَمُؤسّسات مِن النّاحيَة الفِكرِيَّة النّظرِيَّة.

ولأنّها ثانية: - قدرت وهي المسوقة بفكرة الرابع - أنَّ المؤسّسات الدّينيّة يمكن أن تَكُون ذاتَ فائدةً كُبرى، في عملياتِ إحتلالِ العالمِ، وفي الصراعِ الطّبقيِّ، وفي الصراعِ الأيديولوجيِّ مع الماركسيّة في السّباق بينَهُما لِاحتلالِ العالمِ. وإذن فالتفاوت في الموقفِ مِن الدينِ بينَ الماركسيّة والرأسماليّة ليسَ ناشئاً مِن خلافِ نظريِّ مبدئيِّ حولِ الدينِ، فكلاهُما مِن النّاحيَة النّظرِيَّة المبدئيَّة في مَوْقِع واحد بالنسبة إلى الدينِ، فهمَا لا يعترفان بهِ، ولا يأخذان بِتَوْجِيهِهِ في سياساتِهِما الدّاخليَّة، والخارجية، وَمناهجُهُما الإجتماعية، والتّعليميَّة، والثقافية، والإconomicsِيَّة. التفاوتُ بينَ الماركسيّة والرأسماليّة بالنسبة إلى الدين هو في الموقفِ منهُ مِن النّاحيَة العلميَّة: الماركسيّة تُنفيهُ وَتُحاربهُ لأنّها نظام فلسفياً يفترضُ فيهِ - كأي نظام فلسفياً غيره - أنَّ يُنفي ويُبطل كُلَّ ما عَدَاهُ مِن أنظمة، ونظريات تفسير الكونِ، والحياة، والإنسان بطريقة أخرى. ولكنَّ هذا الموقف المبدئيِّ من الدين لا يمنع الماركسيّة من مُهادنة الدينِ ومؤسساته ورجاله وسلقيهم حين تكتشف حاجاتَهُم في توجهاتِها السياسيَّة وصراعاتها، وحين ترى أنَّ الدين يحقق لها فائدةً عمليةً كما حدث مِن قيادات الإتحاد السوفيتي أثناء الحرب العالمية الثانية وما بعدها في مُناسبات كثيرة جدّاً. والرأسماليّة تُنفي الدين وَتُحارب تدخله في شؤون الحياة والسياسيَّة لأنّها طريقة حياة قائمة على نظرية ماديَّة إلى الكونِ، والحياة، والإنسان. وهذا لا

يمنعها من أن تهادنه بالإبقاء على مؤسساته، وبعض إمتيازاتها لأنّه ليس لها موقف فلسفـي مبدئـي منهـ من جهةـ ولأنـها قد تحققـ عن طـريقـ بعض المـنافـعـ التي تـعزـزـ قـدرـتهاـ عـلـى الرـبـحـ وعلـى الكـسبـ السـيـاسـيـ من جـهةـ أـخـرىـ . ولـكـنـهاـ تـحـارـبـ في رـجـالـهـ وفيـ مـؤـسـسـاتـهـ حـينـ يـقـفـ مـنـ خـلالـهـ بـعـضـ هـذـهـ المـؤـسـسـاتـ ، وـبـعـضـ هـؤـلـاءـ الرـجـالـ أـمـامـ عـدـواـنـهـ ، وـنـهـبـهـ لـلـشـعـوبـ الـمـسـتـضـعـفـةـ وـتـسـلـطـهـاـ السـيـاسـيـ كـمـاـ حـدـثـ فـيـ حـالـاتـ كـثـيرـةـ فـيـ العـصـرـ الـحـدـيـثـ فـيـ أـرـوـبـاـ ، وـأـفـرـيـقيـاـ ، وـأـمـريـكاـ الـلـاتـيـنـيـةـ . وـقـدـ تـحـالـفـهـ حـينـ تـسـتـطـعـ تـرـوـيـضـ رـجـالـهـ ، وـمـؤـسـسـاتـهـ لـتـغـطـيـةـ مـخـطـطـاتـهـ فـيـ أـسـتـعـمـارـ الشـعـوبـ وـنـهـبـ خـيرـاتـهـ ، وـرـبـطـهـ بـالـفـلـكـ السـيـاسـيـ للـرـأـسـمـالـيـةـ الـذـيـ يـجـعـلـهـ أـسـيـرـةـ مـوـاـقـفـ الرـأـسـمـالـيـةـ فـيـ السـيـاسـةـ الـعـالـمـيـةـ وـمـؤـسـسـاتـهـ الـإـحـتـكـارـيـةـ الـكـبـرـيـ .

* * *

هـذـاـ هـوـ وـاقـعـ الـأـمـرـ فـيـ مـوـقـفـ الرـأـسـمـالـيـةـ ، وـالـمـازـكـسـيـةـ مـنـ الدـيـنـ عـلـىـ رـغـمـ الـمـظـاهـرـ الـخـادـعـةـ الـتـيـ قـدـ تـنـطـلـيـ عـلـىـ النـظـرـةـ السـاذـجـةـ .

وـإـذـنـ فـهـذـاـ الـكـتـابـ الـذـيـ يـدـحـضـ الـمـادـيـةـ الـمـازـكـسـيـةـ لـأـيـعـنـيـ أـعـترـافـاـ لـلـرـأـسـمـالـيـةـ بـالـإـيمـانـ . وـالـدـعـوـةـ الـتـيـ يـتـضـمـنـهـاـ هـذـاـ الـكـتـابـ إـلـىـ الـإـيمـانـ بـوـجـودـ اللهـ سـبـحـانـهـ وـتـعـالـىـ مـوـجـهـهـ إـلـىـ الـمـادـيـنـ كـيـفـمـاـ كـانـوـاـ وـكـانـتـ مـادـيـتـهـمـ الـذـيـ يـدـعـونـهـ مـارـكـسـيـنـ كـانـوـاـ أوـ رـأـسـمـالـيـنـ ، كـمـاـ أـنـهـ دـعـوـةـ مـوـجـهـهـ إـلـىـ كـهـنـةـ الـفـكـرـ الـمـارـكـسـيـ وـالـفـكـرـ الـمـادـيـ الـذـيـ أـفـرـزـ الرـأـسـمـالـيـةـ نـظـامـاـ سـيـاسـيـاـ إـقـتصـادـيـاـ ، وـطـرـيـقـةـ حـيـاةـ .

وـالـدـعـوـةـ الـتـيـ يـتـضـمـنـهـاـ هـذـاـ الـكـتـابـ إـلـىـ الـإـيمـانـ بـوـجـودـ اللهـ تـعـالـىـ لـأـتـقـفـ عـنـدـ حـدـ هـذـاـ الـإـيمـانـ بـمـاـ هـوـ قـنـاعـةـ عـقـلـيـةـ وـوـجـدـانـيـةـ فـقـطـ ، فـقـضـيـةـ وـجـودـ اللهـ تـعـالـىـ

حالًا للكون ومُدبر الله لا تَقْفِعْ عند الإيمان النّظري بوجوده لأنَّ هذِه القَضِيَّة مِن القَضَايَا الّتِي تَشْبِقُ عَنْهَا وَتُلَازِمُهَا بِالضَّرْرَوَةِ قَضَايَا أُخْرَى لَا بُدَّ مِنَ الإِيمَانِ بِهَا، وَالإِذْعَانُ لَهَا، وَمَنْ ثُمَّ بَنَاءُ الْحَيَاةِ عَلَى هُدَاهَا.

فَالإِيمَانُ بِوْجُودِ اللهِ تَعَالَى يَعْنِي - فِي حَدُودِ إِدْرَاكِ عَقْلَنَا البَشَرِيِّ - الإِيمَانُ بِوْجُودِ عِلَاقَاتٍ شَامِلَةٍ بَيْنَ اللهِ، وَبَيْنَ جَمِيعِ الكَوْنِ، وَمَا فِيهِ، وَمَنْ فِيهِ، عِلاقَةٌ رُّبُوبِيَّةٌ تَغْمُرُ الكَوْنَ كُلَّهُ، وَتَسْغُلُ فِي أَعْمَاقِهِ، وَفِي جَمِيعِ ثَنَائِيَّةِ مَظَاهِرِ وَجُودِهِ. وَمِنْ بَيْنِ هَذِهِ الْعِلَاقَاتِ عِلاقَةٌ بِالإِنْسَانِ ذَاتِ طَابِعِ إِنْسانيَّةِ بَشَرِيِّهِ، وَهِيَ عِلاقَةُ اللهِ بِالإِنْسَانِ عَنْ طَرِيقِ النُّبُوَّةِ.

فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يُرْسِلُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِّرِينَ أَدُلَّاءَ عَلَى اللهِ بِالدِّينِ الْمُوحَنِ إِلَيْهِم مِنْ عِنْدِ اللهِ وَالَّذِي يُنَظِّمُ حَيَاةَهُمْ، وَيَقُودُهُمْ إِلَى أَفْضَلِ السُّبُلِ. هَذَا الدِّينُ - مُنْذُ فَجَرِ النُّبُوَّاتِ - هُوَ الْإِسْلَامُ جَعَلَ اللهُ فِيهِ وَبِهِ الْهُدَى وَالنُّورَ لِبَنِيِّ الْإِنْسَانِ عَلَى مَدِئِ التَّارِيخِ. كُلُّ حُقْبَةٍ تَأْرِيخِيَّةٌ تَسْلُقُ الْإِنْسَانِيَّةَ مِنْهُ فِيهَا الْمُسْتَوَى الَّذِي يُلَائِمُ نُمُوهَا الْحَضَارِيَّ وَتَطْوِيرَهَا الْعَقْلِيَّ. فَيَنْقُلُهَا فِي طَرِيقِ التَّكَامُلِ إِلَى مَسْتَوَى أَعْلَى مِمَّا كَانَتْ فِيهِ، حَتَّى خَتَمَ اللهُ تَعَالَى أَنْبِيَاءَهُ الْأَكْرَمِينَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَخَتَمَ رسَالَاتَهُ الْهَادِيَّةَ بِرسَالَةِ الْإِسْلَامِ الْكَامِلِ الْمُسْتَوَعِبِ الشَّامِلِ لِكُلِّ حَاجَاتِ الْإِنْسَانِ النَّشْرِيَّيَّةِ، وَلِكُلِّ الْقِيمِ الْأَخْلَاقِيَّةِ الَّتِي تَجْعَلُ الْإِنْسَانَ قَادِرًا عَلَى بَنَاءِ حَيَاةٍ طَاهِرَةً، كَرِيمَةً، سَعِيدَةً مُتَكَامِلَةً، قَوِيَّةً فَعَالَةً ذَاتِ تَأْثِيرٍ حَاسِمٍ فِي حَرَكَةِ التَّارِيخِ الْإِنْسَانِيِّ. وَقَدْ جَعَلَ اللهُ تَعَالَى حَقِيقَةَ الْإِسْلَامِ وجَوَهِرَةَ وَمَبَادِئَ الْكُبُرَى فِي كِتَابِ الْكَرِيمِ (الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ) الَّذِي يَبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى أَثْرَهُ فِي إِصْلَاحِ حَالِ الْإِنْسَانِ وَهَدَايَةَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْحَيَاةِ السَّعِيدَةِ بِقَوْلِهِ مُخَاطِبًا أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، كَمَا

أَنَّهُ حِطَابٌ لِكُلِّ مِنْ أَنْحَرَفَتْ بِهِ الْأَهْوَاءُ وَالْفَلَسْفَاتُ عَنْ هُدَى اللَّهِ: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَغْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ وَسُبْلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلْمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^(١).

إِنَّ نِدَاءَ الْإِيمَانَ هَذَا، بِوْجُودِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَا يَقْضِي بِهِ هَذَا الْإِيمَانُ مِنْ إِيمَانٍ بِالْوَحْيِ، وَالنُّبُوَّةِ، وَالدِّينِ، وَالشَّرِيعَةِ - إِنَّ هَذَا النِّدَاءُ مُوجَّهٌ بِإِخْلَاصٍ وَصِدْقٍ وَحَبَّ إِلَى جَمِيعِ الَّذِينَ تَلْفُهُمُ الْحَيْرَةُ، وَيُطْوِحُ بِهِمُ الضَّيْاعَ فِي حَيَاةٍ فَقَدَتْ جَوَهَرَ مَعْنَاهَا الْإِنْسانيِّ، وَفَقَدَ الْإِنْسَانُ فِيهَا بَعْدَهُ الدَّاخِليَّ فَشَعَرَ بِالْفَرَاغِ وَالْخَوَاءِ الَّذِي جَعَلَهُ يَفْرَغُ مِنَ الْخَلْوَةِ إِلَى نَفْسِهِ، لَأَنَّهُ يَشْعُرُ بِالْوَحْدَةِ وَالْوَحْشَةِ وَاللَّامِعِيِّ، فَيَحْمِلُهُ ذَلِكَ عَلَى الْفِرَارِ مِنْ مُوَاجِهَةِ ذَاتِهِ بِإِغْرَاقِ حَوَاسِهِ وَمَشَاعِرِهِ فِي صَخْبِ الْعَالَمِ الْخَارِجيِّ. وَهَكَذَا يُرْجِي هَذَا الْإِنْسَانُ الْحَدِيثَ حَيَاةً بِائِسَةً: مِنْ الْإِسْتَغْرَاقِ فِي الْعَمَلِ، إِلَى الْإِسْتَغْرَاقِ فِي اللَّهِ، إِلَى الْإِسْتَغْرَاقِ فِي كُلِّ مَا يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ يَعِيشُ خَارِجَ ذَاتِهِ طِيلَةً يَوْمَهُ إِلَى أَنْ يَسْتَغْرِقَهُ النَّوْمُ لِيَسْتَيقِظَ عَلَى يَوْمٍ جَدِيدٍ يَشْهَدُ فَرَارًا جَدِيدًا مِنَ الذَّاتِ.

إِنَّ الْإِيمَانَ الصَّحِيحَ، وَبِنَاءَ الْحَيَاةِ عَلَى هُدَى اللَّهِ يَمْنَحُ الْإِنْسَانَ سَلَامَ النَّفْسِ وَسَلَامَ الْحَيَاةِ وَسَعَادَتِهَا، وَالنَّجَاةِ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ.

١- «يَقُولُ مَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُحْرِزُكُمْ مِنْ

عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَنْ لَا يُحِبُّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُفْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ
أُولَيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ^(١).

٢ - «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُخْبِيَنَّهُ، حَيَاةً طَيِّبَةً
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِاَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»^(٢).

٣ - «وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَرُ خَلْدِينَ
فِيهَا وَمَسَكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَنٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ»^(٣).

* * *

بقيت كلمة ينبغي أن تُقال عن دور الرأسمالية في عذاب إنسانها، والإنسان
في العالم.

لقد بدأت الرأسمالية طريقة حياة ولدت من جهود فكريّة متنوعة قام بها
علماء اقتصاد، وسياسيون وفلاسفة، وأدباء وفنانون، ومصلحون إجتماعيون
تضافرت جهودهم طيلة عقود كثيرة من السنين لإخراج مجتمعاتهم من نظام
الإقطاع ومن سلطة المؤسسات الدينية ورجالها.

ومن المعروف أن الإرادات وحدتها لا تغيير التاريخ. الإرادات حين تترافق مع
تغيرات مُناسبة في البيئة الاجتماعية، ويعبر عنها أصحابها بالعمل المنهجي فإنها
حينئذ تغيير التاريخ. وهكذا كان الأمر في أوروبا في نهاية القرون الوسطى.

(١) الأحقاف: ٢١-٢٢.

(٢) النَّخْل: ٩٧.

(٣) التوبية: ٧٢.

كانت الحروب الصليبية قد حملت إلى أوروبا مع الجنود العائدين بذور التغيير من العالم الإسلامي - العربي، ومن بيتهنطة.

ثم سقطت القدسية، وأكتشفت أمريكا، وأكتشفت طرق جديدة برية وبحرية أثرت على التجارة العالمية، وأخترعت الآلة البخارية والنول الميكانيكي، وحققت صناعة السلاح تقدماً في التقنية، وتحسن وسائل المواصلات... وتفاعل ذلك كله مع أفكار الفلسفه، ونظريات الاقتصاديين، وصيحات المصلحين الاجتماعيين، وطموحات ملوك الحكم المطلق وساستهم الأقوياء الدهاء، وأحلام الشعراء، والقصاص، والفنانين... تفاعل ذلك كله، فولدت الرأسمالية على مراحل كطريقة حياة وأسلوب إنتاج للسلع.

وبعدت بولادة طريقة الحياة هذه مأساة جديدة في تاريخ الإنسان الأوروبي، ومن ثم في تاريخ إنسان العالم.

استهلت الرأسمالية عهدها، مدفوعة بشهوة الكسب التي لا يقيدها شيء، هجومها في كل وطن على إنسان وطنه هي، مسلحة بكل قوى الإغراء والقمع: بالمال، والسلاح، والقانون.

فحولت الفلاحين إلى عمال، وأفرغت، بذلك الريف وضخمت المدن بإحياء الصحيح لفلاحي الأمس في ظل أسوء ظروف العيش لهؤلاء العمال الذين وقعوا في المصيدة حين فقدوا من جهة أرضهم التي حولها الأقطاعيون الكبار إلى مراء للماشية لخدمة صناعات النسيج المربحة، وواجهوا من جهة أخرى الآلة الرأسمالية الوحشية الهائلة دون أن يقدروا على مقاومتها.

وفرض عليهم أن يقبلوا، لقاء عملهم، بأجور لا تكاد تكفي للقوت

الضروري، وتُعرّضُوا الشّيء الخُدُع في إنفاقهم لهذا الأجر الزهيد... وهكذا مضت الآلة الرأسماليّة تمتّصهُم حتّى الموت.

وَحَطَّمت بِإندفاعها في التّوسيع والإنتشار بُنيّة الأسرة، وَفَكّكت عُراها حيت فرقت بين أفرادها الذّين انطلقوها هنّا وهنّاك بحثاً عن العمل والقوّة. وَاضطّررت المرأة - أمّا وزوجة وفتاة - إلى أن تزّاول العمل، وأن تهجر أسرتها إذا أقتضى الحال ذلك بحثاً عن العمل. وقد تفّاعل وضع المرأة هذا مع تنامي رغبة الرجال في إطالة العُزوّبة فراراً من الزّواج وما يُوجّبه من مسؤوليات، فأدى ذلك إلى بدايات الفوضى الجنسيّة التي تَعاَظَمت بِاستمرار ولم تَقف عند حدّ حتّى الآن، حيث غدت واقعاً مُعتبراً به، بل يجد في المفكّرين والفلسفه من يُفلسفه ويبحث له عن المبررات الأخلاقيّة.

وأعيد تعمير أوربا بقُوّة الإنتاج الكبیر الذي وفرته الرأسماليّة بعرق ودماء الملائين من العمال الذّين كان فيهم عدّد كبيـر من العمال الأطفال.

وتفتحت، رويداً رويداً، أعيين العمال على بشاعة مأساتهم، ووعوا قساوة الظلّم والإستغلال اللذين تمارسهما القوى الرأسماليّة عليهم؛ فتحرّكوا بهدف تغيير واقعهم المريـر بالإضرابات والتظاهرات التي كانت تُقمع بقُوّة السلاح من قبل قوى السلطة الشرعيّة - لأنّها محـرمة بحـكم القانون - ويـسقط القتلـى بالعشرات والـمئـات، ويـعود العـمال صـاغـرـين إـلى مـصـانـعـهـم لأنـ الإـضـراب يـعـنـي الجـوعـ.

ولكن جهاد العمال في سبيل تحسين أوضاعهم لم يتوقف، ولم تُفلح أساليب القمع في أن تضع له حدّاً، لقد تكثّل العمال في جماعات، ثم في نقابات طالبت الحكومات بـسن تشريعات مناسبة للعمال تخفـف شيئاً من قسوة واقعهم وتحدـ

من سلطة رأس المال عليهم. فاستيقظت ضمائر نخبة من المفكرين والمصلحين الإجتماعيين على بشاعة ما يحدث وفداحة الظلم الذي يتعرض له هؤلاء العمال. فعملوا على تهيئة الضمائر في المجتمع للتغيير في أسلوب استغلال العمال. وساهمت في ذلك الصحافة اليومية، والشعر والقصة، وتكون بذلك رأي عام في المجتمعات لمصلحة العمال... وبدأت تُلiven قناة الرأسمالية تدريجياً أمام الضغط الهائل الذي مارسته الشعوب على تحالف الرأسماليين، وهكذا وجدت طريقها إلى النور التشريعات التي تضمن حقوق العمال وتنصفهم وتحسن ظروف العمل. وأخيراً أدرك علماء الاقتصاد (الحر) الرأسمالي أنَّ الإسلام الاجتماعي لا ينفي العمال وحدهم، وإنما يعود على العمل بفوائد كبيرة أيضاً، ومن ثم فإنَّه يزيد الأرباح - هاجس الرأسمالية ومحركها الأعظم - لأنَّه يقلل من تعطيل المصانع، ويحفظ سلامة الآلات التي كان العمال في بعض الأحيان ينتقمون بتحطيمها، ويجود كفاءة العامل... وإنَّ فتحسين ظروف العمل ورفع مستوى حياة العامل ليس صدقة ولا إحساناً وإنما هو استثمار للمال يعود بمزيد من الربح... وهكذا زادت الفرص أمام العمال في أوطن الرأسمالية لتحسين أوضاعهم، ونعم العمال في مراكز الرأسمالية الكبرى في أوروبا وأمريكا بسموبيات من العيش جيدة، وبظروف عمل مريحة، وبطلبات أطول ومدفوعة الأجر، وبمعاشات تقاعدية، وغير ذلك من الامتيازات.

ولكن حين أذنت مأساة عمال الرأسمالية في أوطنها بالإنتحاء، تعاظمت مأساة شعوب العالم الثالث التي توجه الوحش الرأسمالي بانيا به إليها.

فهي سبيل التوسيع الصناعي والمواد الخام، وزيادة الربح وتصريف الإنفاق

الذى فاض عن حاجة الأسواء، الداخليّة في أوربا، تنافست دول أوربا الرأسمالية على آسيا، وأفريقيا لأجل فرض السيطرة السياسيّة والعسكريّة التي تضمن حيازة جميع المَنَافع، فهجمت على هاتين القارتين فاتحة مستعمرَة، فارضة سيادة الرجل الأبيض على مئات الملايين من الناس بكل ما تغْنيه هذه السيادة من سلطة سياسي، وأسيطان، ونهب للثروات، وتجارة بالرّقيق، ولحِيلولة دون شُعوب القارتين، ودون أهتمال أي فرصة للنهوض والتحرر، وتحويل المستعمرات إلى أسواق لاستهلاك ما تنتجه مصانع أوربا من سلع، ونجد دائمًا عند جميع القوى الأوروبيّة المستعمرة همًّا كبيراً وهاجساً دائمًا هو الإسلام الذي كان ولا يزال يمثل القوّة المعنويّة والروحية للمقاومة، والصيغة الحضاريّة البديلة، فكان يخيفها منه أن تباح له فرصة الإنبعاث في قلوب وعقول أبناء المستعمرات فيهدم وجودها، ويُدفع بأبناء المستعمرات إلى أن يستعيدوا وجودهم المسلوب وحربيتهم المصادر، فيحرر روابطهم من مستعمراتهم، ومن هنا فقد تعرض الإسلام في عقول وقلوب أبناء المستعمرات لأكبر عملية تشويه مررت بها عقيدة من العقائد وشريعة من الشرائع على أيدي أعدائهم، وذلك لكي يسلوا فاعليته وتآثيره، ووجهوا همهم إلى السيطرة على التعليم ليحوّلوا بين ناشئة أبناء المستعمرات المسلمين وبين أن يكون الإسلام: عقيدته، وشريعته، وقيمه ومفاهيمه جزء من شخصيتهم المعنويّة، وعاملاً في صيانة هذه الشخصية فلا تهُن ولا تستسلم، وقد أفلحوا في ذلك إلى حد بعيد.

لقد كانت الرأسمالية - بما هي استعمار وأسفل آل اقتصادي - لشعوب آسيا وأفريقيا كالحِداء الحديدي الذي يُحكى أنَّ الصينيين القدماء كانوا يضعون أقدام

فَتِيَّاتِهِمْ فِيهِ لِغَایَاتِ جَمَالِیَّةٍ فَكَانَ يُشَوَّهُ أَقْدَامَهُنَّ وَيَجْعَلُهُنَّ عَاجِزَاتِ حِينَ يَحُولُ
بَيْتَهُنَّ وَبَيْنَ النَّمَوِ الْطَّبِيعِيِّ الْحُرُّ، وَهَكَذَا كَانَتِ الرَّأْسَمَالِيَّةُ : مَنْعَتْ شَعُوبَ آسِيَا
وَأَفْرِيقيَا مِنِ النَّمَوِ وَشَوَّهَتْ صُورَتَهَا أَمَامَ نَفْسَهَا حِينَ غَرَسَتْ فِيهَا رُوحَ الشَّكِّ
وَالشُّعُورِ بِالدُّونِيَّةِ وَأَمَامَ الْعَالَمِ؛ وَلِكِي تَمَّ الْمُقَارَنَةُ مَعَ الْحَذَاءِ الْصِّينِيِّ نَذْكُرُ أَنَّ
الرَّأْسَمَالِيَّةَ كَانَتْ تُمَارِسُ عَمَلِيَّتَهَا تَحْتَ شَعَارِ (رِسَالَةِ الرَّجُلِ الْأَبْيَضِ) وَلَكِنْ مِنْ
الْمُؤْكَدِ أَنَّ كَهْنَةَ الرَّأْسَمَالِيَّةَ لَمْ يَكُنْ لَدَهُمْ ذَرَّةٌ مِنْ حَسَنَةِ النِّيَّةِ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَ الْآتَاءِ
الْصِّينِيَّينَ أَتَّجَاهَ بَنَاتِهِمْ .

* * *

وَحِينَ تَعَاظَمَتْ مَوْجَةُ النُّقْمَةِ لَدِيِّ شَعُوبِ آسِيَا وَأَفْرِيقيَا تَفَجَّرَتْ ثَوَرَاتُ هَذِهِ
الشُّعُوبِ ضِدَّ تَسْلِطَتِ الْقِوَىِ الْإِسْتَعْمَارِيَّةِ الرَّأْسَمَالِيَّةِ، وَتَكُونُ، عَلَىِ مَهْلٍ، رَأْيِ
عَالَمِيِّ أَدَانَ الْإِسْتَعْمَارَ عَلَىِ أُسْسِ أَخْلَاقِيَّةٍ. وَلَكِنَّ الْقِوَىِ الرَّأْسَمَالِيَّةِ الَّتِي
كَانَتْ بَعِيدَةً عَنْ أَنْ تَسْتَجِيبَ لِدَاعِيِّ الْأَخْلَاقِ أَضْطَرَتْ أَنْ تَسْتَجِيبَ لِحَقَائِقِ
السِّيَاسَةِ الدُّولِيَّةِ حِينَ وَجَدَتْ أَمَامَهَا قُوَّةً عَالَمِيَّةً أُخْرَىٰ هِيَ الْمَجْمُوعَةُ
الْإِشتَراكيَّةُ الَّتِي وَلَدَتْ بِثُورَةِ رُوسِيَا سَنَةَ (١٩١٧ م) بَيْنَ أَطْلَالِ عَالَمِ الْحَرَبِ
الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى. لَقَدْ شَبَّتْ هَذِهِ الْقُوَّةُ الْجَدِيدَةُ عَنِ الطَّوْقِ، وَغَدَتْ تُنَافِسُ
الرَّأْسَمَالِيَّةَ فِي السَّبَاقِ إِلَىِ أَسْتِشْمَارِ الرَّأْسَمَالِيَّةِ أَسَالِيَّبَهَا فِي التَّعَامِلِ مَعَ الشُّعُوبِ
الْمُسْتَعْمِرَةِ وَشُبُهِ الْمُسْتَعْمِرَةِ، فَقُلِّصَتْ عَلَىِ مَهْلٍ تَسْلِطَتِهَا الْعَسْكَرِيُّ، وَالسُّيَاسيُّ
الْمُبَاشِرُ الَّذِي يَفْرُضُ عَلَيْهَا الْتَزَامَاتِ مَالِيَّةٍ تَنْقُصُ مِنْ أَرْبَاحِهَا. وَيَضُعُهَا - أَمَامَ
الرَّأْيِ الْعَالَمِيِّ الرَّافِضِ لِلْإِسْتَعْمَارِ - فِي مَوَاقِفِ مُحرَجَةٍ، وَيُتَيحُ لِلإِتَّحادِ
السُّوفِيَّاتِيِّ أَنْ يَسْلُلَ إِلَىِ مَوَاقِعِهَا مِنْ خِلَالِ الْأَمَالِ بِالتَّحْرِيرِ، وَأَسْتُبْدَلَتْ

بالاستعمار المباشر صيغًا آخرًا للسلطة السياسي، والاقتصادي، والعسكري تؤمن لها جميع الإمتيازات القديمة دون أي مضائقات - هذه الصيغة يجمعها ما يُسمى بـ(الاستعمار الجديد).

لقد أبرمت المعاهدات بين الدول الاستعمارية ومستعمراتها السابقة. وتتضمن هذه المعاهدات إمتيازات اقتصادية، وسياسية، وعسكرية للدولة المستعمرة سابقًا، كما أعادت القوى الرأسمالية المالية والصناعية تنظيم نفسها في تكتلات (تروست) ذات قوّة مالية، وسياسية، وأقتصادية هائلة احتكرت تجارة المواد الخام، والمنتجات الصناعية في العالم. مما جعل الدول المستحرة (المستعمرة سابقًا) تقف عاجزة في غالب الأحيان تقف عاجزة أمام سياسة الأسعار التي تفرضها احتكارات الرأسمالية الكبرى، فتجد نفسها مضطربة إلى أن تتبع سلطتها (فسفات، نفط، حديد، كبريت، أورانيوم، بن، شاي، كاكاو... إلخ) لتمول مشروعات التنمية ولتنفق على جهازها الإداري وعلى (جيشه).

وحين تطمح بعض الدول إلى أملاك ناصية الأمور، وتقرر الاستيلاء على ثروتها الوطنية، والاستقلال في التصرف فيها بما يضمن مصالح شعبها أو تقترح أسعارًا عادلة لسلطتها لا تعدم الدولة الاستعمارية والاحتكارات العالمية وسائل متعددة تشن فيها قدرة الدولة الضئيفة على تسويق سلطتها، وتخلق لها المتابع الداخلية التي قد تؤدي إلى قلب نظام حكمها وأستبداله بنظام آخر مطوابع (واقعي وأكثر تعقلاً) ومن ثم أكثر أضطراراً للبيع بالسعر الذي تراه احتكارات مناسبًا. كما عملت القوى الاستعمارية السابقة على إشارة النزاعات الإقليمية والعنصرية، والدينية، والقبلية بين الدول المختلفة في العالم الثالث، مستغلة

للتوصل إلى ذلك ما غَرَّتْعَ أَثْنَاءِ الإِسْتُعْمَارِ مِنْ مَفَاهِيمِ ثقَافَيَّةِ لَهَا طَابِعَ التَّفَرِيقِ وَالتَّقْسِيمِ فِي شَعُوبِ هَذِهِ الدُّولَ، دَافِعَةً بِهَا مِنْ خِلَالِ هَذِهِ النَّزَاعَاتِ إِلَى الْحُرُوبِ الْأَهْلِيَّةِ وَالْإِقْلِيمِيَّةِ، وَإِلَى تَوْرِيْطِهَا فِي مُنَازِعَاتِ وَأَزْمَاتِ سِيَاسَيَّةٍ كُبِرَى بَيْنَ بَعْضِهَا وَفِي دَاخِلِ كُلَّ دُولَةٍ مِنْهَا، مُلْجَئَةً لَأَنْظَمَتْهَا الْمُخْتَلَفَةُ ضَعِيفَةً إِلَى الْبَحْثِ لِدَائِي الدُّولِ الْمُسْتَعْمِرَةِ السَّابِقَةِ عَنْ مُحَالَفَاتِ سِيَاسَيَّةٍ تُقْوِيُّ مَرْكُزَهَا فِي الدَّاخِلِ أَمَامَ شَعْبَهَا أَوْ فَرِيقِهَا أَمَامَ خَصْوَمَهَا فِي الْخَارِجِ، وَدَافِعَةً لَهَا إِلَى الْبَحْثِ، بِأَيِّ ثَمَنِ، عَنِ السَّلَاحِ الَّذِي تَحْتَكِرُ صَنْعَهُ الدُّولَ الْإِسْتُعْمَارِيَّةِ؛ بِاَذَالَةِ فِي سَبِيلِ الْحُصُولِ عَلَيْهِ ثَمَنَ مَوَادِهَا الْخَامِ، مُعَطِّلَةً مَشَارِيعَ التَّنْمِيَّةِ لِشُعُوبِهَا وَأَوْطَانِهَا، مُزْدَادَةً فَقَرَأً وَتَخْلُفَأً وَمَنْ ثُمَّ عَجَزَأً عَنِ الْمُقاوَمَةِ، وَمَنْ ثُمَّ خَضُوعًا لِمَا تُمْلِيهُ إِرَادَاتِ الْقِوَى الرَّأْسَمَالِيَّةِ وَأَحْتَكَارَاتِهَا الْكُبِرَى... مُسْتَمْتَعَةٌ بِحُرْيَّةِ وَسِيَادَةِ وَهَمِيَّسَينَ !!؟؟؟

وَقَدْ كَانَتْ حَصِيلَةُ الْمُسْلِمِينَ عَامَّةً وَالْعَرَبِ مِنْهُمْ بِوَجْهِ خَاصٍ مِنْ بَلَاءِ هَذَا الْإِسْتُعْمَارِ الرَّأْسَمَالِيِّ كَبِيرَةً جَدًّا، لَقَدْ تَسْلَطَتِ الْقِوَى الرَّأْسَمَالِيَّةُ عَلَى جَمِيعِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ تَقْرِيبًا، بَلْ عَلَى جَمِيعِهِ إِذَا أَعْتَبْرَنَا السَّيِطَرَةَ غَيْرَ الْمُبَاشِرَةِ، وَقَدْ خَرَبَ الْإِسْتُعْمَارُ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ كُلَّمَا أَسْتَطَاعَ أَنْ يُخْرِبَهُ، وَكَانَ أَعْظَمُ تَخْرِيبِهِ فِي شَخْصِيَّةِ الْأَنْسَانِ الْمُسْلِمِ. وَأَعْظَمُ مِحَنِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ مِنْ الْإِسْتُعْمَارِ مِحْنَةُ فَلَسْطِينِ الَّتِي تُعْتَبَرُ أَعْظَمَ مِحَنِ الْمُسْلِمِينَ فِي التَّارِيخِ - حَتَّى بِالْقِيَاسِ إِلَى ضَيَاعِ الْأَنْدُلُسِ - فَقَدْ طَرَدَ الْإِسْتُعْمَارَ الْقَدِيمَ بِالتَّعاونِ مَعَ الصَّهِيُونِيَّةِ شَعْبَهَا الْمُسْلِمِ، وَأَسْكَنَ فِيهَا الْيَهُودَ الَّذِينَ نَفَرُوا إِلَيْهَا مِنْ جَمِيعِ بَقَاعِ الدُّنْيَا لِيُنْشَئُوا مَا أَسْمَوهُ بِ(دَوَلَةِ إِسْرَائِيلِ) مَدْفُوعِينَ بِأَحْلَامِ خُرَافَيَّةٍ أَسْتَمدُوهَا مِنْ ثَوَرَاتِهِمْ، وَقَدْ ثَبَتَ

الإِسْتِعْمَارُ الْجَدِيدُ هَذِهِ الدَّوْلَةُ، وَوَفَّرَ لَهَا أَشْبَابَ الْقُوَّةِ وَالْتَّسْلِطَ، فَشَتَّتَ بِهَا الْعَرَبُ، وَأَسْتَنْدَ ثَرَوَاتِهِمْ - وَعَلَى رَأْسِهَا ثَرَوَةُ النَّفْطِ - بِالسُّلْاحِ الَّذِي يُبَيِّعُهُمْ لِيَحْمُوا أَنفُسِهِمْ مِنْ طَلْبِيَّتِهِ وَرَبِّيَّتِهِ الَّتِي غَرَسَهَا فِي قَلْبِ وَطَنِهِمْ. وَحَرَمُهُمُ الْإِسْتِقْرَارُ السِّيَاسِيُّ، وَجَعَلُهُمْ طِيلَةً ثُلُثَ قَرْنٍ يَعِيشُونَ فِي ظِلِّ الْخَوْفِ مِنْ عَدُوَانِ إِسْرَائِيلِ الَّتِي شَجَعَهَا إِسْتِعْمَارُ الْجَدِيدِ عَلَى أَنْ تَحْتَلَ فِي النَّهَايَةِ جَمِيعَ أَرْضِ فَلَسْطِينِ وَجُزْءَ مِنْ سُورِيَا، وَمَصْرُ، وَالْأُرْدُنِ^(١).

هَذِهِ هِيَ الرَّأْسَمَالِيَّةُ الَّتِي تَقْوُدُ خُطَاها فِي أَسْتِغْلَالِ الْعَالَمِ قِيمَ الْجَاهِلِيَّةِ: المَادِيَّةُ، وَالْحَيَوَانِيَّةُ، وَاللَّأَخْلَاقِيَّةُ، وَرُوحُ الْعُدُوَانِ^(٢).

* * *

لَقَدْ كَانَتِ الْمَازِكِيَّةُ أَحَدُ التَّعَابِيرِ السِّيَاسِيَّةِ - الْفِكْرِيَّةِ عَنْ صَرَخَاتِ الْعَذَابِ الَّتِي أَطْلَقْتُهَا الطَّبِيقَةُ الْعَامِلَةُ فِي أُورَبَا ضِدَّ رَأْسَمَالِيَّةِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ الطَّاغِيَّةِ الْبَاغِيَّةِ عَلَى شُعُوبِهَا وَعَلَى الْعَالَمِ. وَلَكِنَّ النُّظَامَ الَّذِي بَنَى عَلَى قَوَاعِدِهَا وَمَبَادِئِهَا سُرَعَانَ مَا مَارَسَ فِي الدَّاخِلِ وَالْخَارِجِ سِيَاسَاتٍ إِنْ كَانَتْ قَدْ تَجَنَّبَتِ الْوَقُوعِ فِي بَعْضِ الْمَاخِذِ عَلَى الرَّأْسَمَالِيَّةِ فِي صِيغَتِهَا الْقَدِيمَةِ أَوْ صِيغَتِهَا الْجَدِيدَةِ، فَإِنَّهَا لَمْ تَعْدَمْ أَخْطَاءً كُبِّرَى فِي سِيَاسَاتِهَا أَتَجَاهَ شُعُوبِهَا وَأَتَجَاهَ شُعُوبَ الْعَالَمِ الثَّالِثِ،

(١) وَهَا هِيَ دُولَةُ الصَّهَایِّنَةِ تَحْتَلُ أَخِيرًا جَبَلَ عَامِلِ (الْبَنَانِ الْجُنُوبِيِّ) فَتَسْرُدُ عَشَرَزَاتِ الْأَلْفِ مِنْ قُرَافَهُ وَتَقْتُلُ الْمِنَاتِ، وَتَهْدِمُ مِنَاتِ الْمَنَازِلِ وَتَضَعُ بِإِحْتِلَالِهَا الْجُنُوبُ فِي عَمَّرَةِ أَخْطَارِ سِيَاسَةِ طَالِمَا حَدَّرَنَا مِنْهَا، نَسَأَلُ اللَّهَ أَنْ يَرِزِّقَنَا الْبَصِيرَةَ لِنَوَاجِهَ مَسْؤُلِيَّاتِنَا بِشَجَاعَةٍ، وَتَسْهِلَ وَاجِبَاتِنَا بِإِلْحَاصِ (مِنْهُ).

(٢) عَنْ طَبِيعَةِ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَرَكِيبِهَا لَأَحْظَى كِتَابَنا (بَيْنَ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ) تَشْرِيفَ دَارِ الْكِتَابِ الْلُّبْنَانِيِّ - دَارِ الْكِتَابِ الْمَضْرِيِّ (١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م). فَضْلُ الْجَاهِلِيَّةِ الْجَدِيدَةِ (مِنْهُ).

وَكَشَفَتْ عَنْ طَمُوحَاتِ السُّيُطَرَةِ وَبَسْطَ النَّفُوذِ جَعَلَتْهَا فِي نَظَرِ شُعُوبِ الْعَالَمِ التَّالِثِ قَوَّةً يَنْبَغِي الْحَذَرُ مِنْهَا، لِأَنَّ طَمُوحَاتِهَا فِي السُّيُطَرَةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْإِقْتَصَادِيَّةِ تُمَاثِلُ تِلْكَ الطَّمُوحَاتِ الَّتِي تُحرِكُ الْقِوَى الرَّأْسَمَالِيَّةِ نَحْوَ الْعَالَمِ التَّالِثِ، وَتَرْسِمُ خُطُطَهَا فِي التَّعَامِلِ مَعَهُ.

وَكَانَتْ ثَوَرَاتُ شُعُوبِ الْعَالَمِ التَّالِثِ صَرَخَاتُ العَذَابِ الْأَلِيمِ الَّتِي تُطْلِقُهَا هَذِهِ الشُّعُوبِ ضِدَّ الرَّأْسَمَالِيَّةِ الْأُورْبِيَّةِ مُمَثَّلَةً بِالْإِسْتِعْمَارِ.

وَكَانَتْ أُورْبَا الرَّأْسَمَالِيَّةِ - الْإِسْتِعْمَارِيَّةِ - إِلَى حِينَ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الثَّانِيَةِ - تَحْكُمُ الْعَالَمِ التَّالِثِ وِفقًاً لِمُعَادَلَةِ مُتَضَادَّةِ الْطَّرَفَيْنِ، غَدَّاً مِنَ الْمُسْتَحِيلِ بَعْدِ الْحَرْبِ الْإِسْتِمَارِ فِيهَا. كَانَتْ تَحْكُمُ الْعَالَمَ بِرُوحِيَّةِ وَأَسْلُوبِ الْعِلْمِ الْحَدِيثِ فِي التَّنْظِيمِ الْمُجْتَمِعِيِّ وَأَسْتِشْمَارِ الطَّبِيعَةِ وَالْطَّاقَةِ، هَذَا الْعِلْمُ الَّذِي وَضَعَ الْإِنْسَانِيَّةَ فِي الْعَصْرِ الدُّرْرِيِّ - مِنْ جِهَةِ - وَبِرُوحِ وَأَسْلُوبِ عَصْرِ الْإِنْطِلَاقِ الْإِسْتِعْمَارِيِّ الْأَعْظَمِ فِي الْقَرْنَيْنِ الثَّامِنِ وَالْتَّاسِعِ عَشَرَ لِلْمِيلَادِ فِي مَجَالِ الْعِلَاقَاتِ الدُّولِيَّةِ، وَمِنْ جِهَةِ أُخْرَى، وَقَدْ وَلَدَتْ هَذِهِ الْمُعَادَلَةِ تَاقُضَاً فِي الْوَاقِعِ بَيْنَ الْقِوَى الَّتِي تَسْسِجُ الْوَاقِعَ وَتُوَلِّدُ الْأَفْكَارِ - وَهِيَ قِوَى الْعِلْمِ الْمُنْفَتَحِ - وَبَيْنَ الْأَفْكَارِ الَّتِي يُرَادُ صِيَاغَةُ الْوَاقِعِ وَفِقَاءُهَا. لَقَدْ غَدَّا الْإِسْتِمَارُ فِي هَذِهِ الْمُعَادَلَةِ مُسْتَحِيلًا بَعْدِ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الثَّانِيَةِ، إِنَّ اَفْكَارَ الْوَاقِعِ كَانَتْ تَضْغَطُ بِاتِّجَاهِ أَسْلُوبِ أَكْثَرِ أَخْلَاقِيَّةِ فِي الْعِلَاقَاتِ الدُّولِيَّةِ عَلَى خِلَافِ رَغْبَاتِ الْقِوَى الرَّأْسَمَالِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَضْغَطُ بِالْقُوَّةِ الْمُسْلِحَةِ لِرَسْمِ وَاقِعِ الْعِلَاقَاتِ الدُّولِيَّةِ عَلَى ضَوْءِ اَفْكَارِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرِ.

وَقَدْ تَمَثَّلَتِ الْمَعَالِمُ الْعَامَّةُ لِهَذَا الْأَسْلُوبِ الْأَخْلَاقِيِّ فِي الْعِلَاقَاتِ الدُّولِيَّةِ فِي الْآمَالِ الَّتِي أَخْتَلَجَتْ بِهَا قُلُوبُ مِئَاتِ الْمَلَائِكَةِ مِنْ شُعُوبِ الْعَالَمِ التَّالِثِ نَتِيجةً لِمَا

ولدّته الحرب العالميّة الثّانية بما رافقها من عنف ووحشّيّة في الصراع المجنون بين النازية والديمُقراطيّات الغربيّة والإتحاد السوفياتي - في هذه الشعوب من وعي لواقعها الأليم، كما وأنّها رفعت درجة إحساسها بقهرها وذلّها وأنحطاط حياتها، وكانت لديها أمالاً جديدة في الحرّيّة، والعدالّة، والرّحاء عزّتها وعود المنتصرين، وقد دفعت هذه الأمال الجديدة الزاهيّة، والتعلّقات إلى نظام عالمي جديد بالشعوب المقهورة إلى أن تبحث لنفسها عن صيغ في التّعاون الدولي تحقق آمالها وتعلّقاتها.

ولكن العالم الغربي حاول أن يحتال على هذه الحقيقة، وأن يقف في وجه حركة التاريخ، وأن يجهض القوى الروحيّة العظيمى التي اخْتَلَجَ بها العالم الثالث مندفعاً نحو الانعتاق بإستعمال أساليب القمع المباشرة وأساليب الإستعمار الجديد تارة أخرى، وساعدته على ذلك أنّ القوّة العالميّة الأخرى (العالم الإشتراكي) سقط - كما ذكرنا - في إغراء التّسلط العسكري والسياسي وبسط النفوذ مما أعطى كليتاً القوتين العظيمتين قدرة على المساومة مع غير مرتها لتحقيق أهدافها. وهكذا أكْشفَ العالم الثالث أنه وقع بين فكي كِماشة فتكّلت شعوبه المستقلة وتلك التي كانت لا تزال مقهورة ومستعمرة تخوض ثورات دامية في سبيل التحرر الوطني. تكّلت في تجمع عالمي يمثل أخلاقيّة جديدة في السياسة الدوليّة، تجعل العلاقات الدوليّة قائمة على العدل والأخلاق وحكم القانون؛ فكان مؤتمر (باندونج) الذي وضعت فيه مباديء الحياد الإيجابي وعدم الإنحياز بين القوتين العظيمتين في العالم.

وهكذا ولد في (باندونج) مفهوم جديد للسياسة الدوليّة والعلاقات بين الدول

يقوم على رؤية روحية - أخلاقية ، في مقابل المفهوم السائد الذي يقوم على منطق القوة .

لقد كان مؤتمر (باندونج) صرخة عذاب أيضاً أطلقها العالم الثالث الذي أكدَّ أنَّه وقع بينَ فكي كمَاشة النظائرتين الأعظمين - الرأسمالي والإشتراكي - بحثاً عن وضعية جديدة في السياسة الدوليَّة تضمن لوحداته السياسيَّة معاملة أكثر عدلاً، ووضعاً أكثر أمناً، وحركة أكثر حرية في رسم سياساتها الوطنية والخارجية .

ولكن روح (باندونج)، والنزعَة التي حركَت ضمائر مئات الملايين من البشر في العالم الثالث نحو بناء قوَّة عالميَّة ثالثة لا تُقْوِي على مباديء القوَّة والسيطرة، وإنما تُقْوِي على مباديء الأخلاق، والقانون، والتَّعاون - هذه الرُّوح وهذا الطُّمُوح لا يُناسب مصالح مراكز التَّقلُّل في النظام الرأسمالي العالمي والنظام الإشتراكي العالمي، فعملت مراكز التَّقلُّل في النظائرتين على إجهاض محاولات بناء هذه القوَّة العالميَّة الثالثة مُستغلة تخلُّف هذه الشعوب، ضعف أنظمة الحكم فيها، وفقرها، وعجزها العلمي والتَّقني الذي قصر بها عن استغلال ثرواتها بنفسها، وأججها إلى عرض هذه الثروات في السوق العالمي الذي تحكم اقتصادياته احتكارات الرأسمالية الكبُرَى، ومُؤسَّسات الاقتصاد في النظام الإشتراكي، فعادت، نتيجةً لذلك، القوتان العظيمتان إلى العالم الثالث .

ولئلاً تعود فكرة القوَّة الجديدة في المجتمع الدولي إلى الظهور بصورة فاعلة أُستخدمت القوى العالميَّة القادرَة كلَّ الوسائل لِإيجاد حالات العداء المسلح بين مجموعات أنظمة العالم الثالث، فنشبت الحروب الإقليميَّة التي زادت هذه

الشعوب ضعفاً واتكاءً على القوى الرأسمالية أو على القوى الإشتراكية العالمية، وأشنئت قدرتها الاقتصادية، وخلقت حواجز من الشك والعداء والمحاباة الوطنية الإقليمية تحول دون أي تحرّك جاد، وفعال ومستمر في اتجاه تكوين قوّة عالمية ضاعطة تتحقق التوازن في السياسة الدوليّة لمصلحة العالم الثالث. وبدلًا من ذلك أتفقَت الدولتان العظيمان على سياسة الوفاق التي تعني - بشكل أو باخر - وصايتها على العالم الثالث.

وقد وضعت المباديء الأولى لسياسة الوفاق منذ عبرت إرادة العالم الثالث عن نفسها في مؤتمر (بالندونج سنة ١٩٥٥م)، وذلك في مؤتمر جنيف الذي عقد بين الولايات المتحدة، والإتحاد السوفيتي، وإنكلترا، وفرنسا وأنهى الحرب الباردة بين الشرق والغرب مفتوحاً عهداً جديداً من الإنفراج الدولي تحت شعار (التعايش المشترك).

وقد كشفت التعليقات الغربية بمناسبة صفقة الأسلحة التشيكية مع مصر عن حقيقة ما كان يسمى آنذاك (روح جنيف) وأنه كان في الحقيقة بداية الطريق التي سلكتها القوتان العظيمان لفرض وصايتها أو نفوذها - بشكل أو باخر - على العالم.

فقد صرّح (سيرأنتوني ايدن) رئيس الوزراء البريطاني في خطبة القاحا في (بورتموث في ١٠/٨/١٩٥٥م) معلقاً على صفقة الأسلحة التشيكية - قال: «هذه بالضبط فرصة أمام الدول الكبرى لكي تتفق على أن تحاول التحكم في نفسها وتتحد لكي تتحكم في الآخرين، وفي هذا يمكن في رأيي التفسير الحق لفكرة جنيف ...».

وكتب صحيفه (المناشر جارديان) في عددها الصادر في ١٩٥٥/١٠/١٩ م معلقة على الصحفة بقولها:

«ربما كان من الخير أن يتافق الغرب مع روسيا في الشرق الأوسط على أساس سياسة جديدة لا تسمح لدول صغيرة في هذه المنطقة من العالم بأن تقوم بمحاولات خطيرة، وهي للأسف غير جديرة بتحمل المسؤولية».

وكتب صحيفه (لوموند الفرنسي) في عددها الصادر في ١٩٥٥/١٠/٢٢ م معلقة على الصحفة بقولها:

«أن نشاط إنجلترا الدبلوماسي فيما يخص العالم العربي يجب أن يتوجه إلى إقناع الاتحاد السوفيتي بالإعتراف بالوضع الراهن في الشرق الأوسط، في نطاق مناقشات بين الأربعة الكبار».

* * *

إن العالم الثالث الآن محكوم بقانون سياسة الوفاق بين القوتين العظميين، وهي سياسة لحظت فيها مصالح القوتين العظميين بالدرجة الأولى. وهي سياسة مبنية على منطق القوة. ومن الطبيعي أن البديل الصالح لسياسة الوفاق ليس اللاؤفاق الذي قد يؤدي بالعالم كله إلى كارثة نووية تقضي على الجنس البشري، وإنما البديل لسياسة الوفاق هو التوصل إلى قاعدة في السياسة الدولية والعلاقات بين الدول والكتل الدولية تقوم على مباديء الأخلاق والقانون ويكون لها مضمون روحي. إن البديل لسياسة الوفاق هو الطموح النبيل لشعوب العالم الثالث نحو عالم لا تقوم العلاقات فيه على منطق القوة والسيطرة. وإذا كانت الأديان قادرة على أن تقدم لهذه القاعدة مضموناً أخلاقياً وروحياً فإن

الإِسْلَامُ أَقْدَرَ هَذِهِ الْأَدِيَانَ عَلَى ذَلِكَ لِأَنَّهُ بِحُكْمِ تَكْوِينِهِ الْعَقِيدِيِّ وَالتَّشْرِيعِيِّ، وَبِحُكْمِ تَجْربَتِهِ التَّارِيخِيَّةِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُقَدِّمَ الْمَضْمُونَ الْأَخْلَاقِيِّ - الرُّوحِيِّ فِي صِيَغَةِ عِمْلِيَّةٍ تَتَّصَلُ بِالْوَاقِعِ الْمَادِيِّ وَالنَّفْسِيِّ لِلْإِنْسَانِ. وَيَبْقَى لِكُلِّ دِينٍ دُورَهُ فِي إِغْنَاءِ التَّجْرِيَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي مُحِيطِهِ التَّقَافِيِّ وَفِي الْعَالَمِ.

إِنَّ الْعَالَمَ الْثَالِثَ الْمَسْحُوقَ تَحْتَ وَطَأَةِ تَخْلُفِهِ الْمَادِيِّ وَالشَّنْظِيمِيِّ دَاخِلٌ وَحِدَّاتِهِ السِّيَاسِيَّةِ، هَذَا التَّخْلُفُ النَّاשِيءُ عَنْ عَجْزِهِ وَعَنْ تَدْخُلِ الْقِوَى الْعَظِيمِيِّ فِي شُؤُونِهِ، هَذَا الْعَالَمُ الْثَالِثُ سَيَبْقَى نُقطَةَ الْخَطَرِ وَمَبْعَثَ الْأَمْلِ.

هُوَ نُقطَةُ الْخَطَرِ لِأَنَّهُ سَاحَةُ تَصْفِيَّةِ أَوْ تَسْوِيَةِ الْمُرَاجِعَاتِ بَيْنَ الْقِوَى الْعَالَمِيَّةِ الْكُبُرَى الَّتِي تَتَعَامِلُ مَعَ بَعْضِهَا وَمَعَ الْعَالَمَ الْثَالِثَ بِمَنْطِقَةِ الْقُوَّةِ، وَأَقْلَى خَلَلٍ فِي حِسَابَاتِ التَّصْفِيَّةِ وَالْتَّسْوِيَّةِ قَدْ يَقُودُ الْعَالَمَ كُلَّهُ إِلَى كَارَثَةِ نَوْوِيَّةٍ. وَقَدْ وَصلَ الْعَالَمُ إِلَى حَافَّةِ الْكَارَثَةِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ فِي رُبْعِ الْقَرْنِ الْآخِيرِ بِسَبَبِ الْمُواجِهَاتِ بَيْنَ الْقِوَى الْكُبُرَى عَلَى أَرْضِ الْعَالَمِ الْثَالِثِ.

وَهُوَ مَبْعَثُ الْأَمْلِ لِأَنَّ وَضْعَهُ الْحَاضِرُ، وَتَطَلُّعَاتُ شَعُوبِهِ يُقْدِمُانَ الْفُرْصَةَ لِلْقِوَى الْعَظِيمِيِّ فِي الْعَالَمِ لِتَعَادِلَ مَنْطِقَةِ الْقُوَّةِ فِي السِّيَاسَةِ بِمَنْطِقَةِ الْأَخْلَاقِ وَالْقَانُونِ فِي الْعِلَاقَاتِ بَيْنَ الدُّولَ، وَبِذَلِكَ (تُؤَنسَنَ السِّيَاسَة) لَا حَسْبَ مَفْهُومِ الْحِضَارَةِ الْحَدِيثَةِ حَيْثُ تَكُونُ السِّيَاسَةُ إِنْسَانِيَّةً دَاخِلَ كُلِّ وَطَنٍ لِشَعْبِ ذَلِكَ الْوَطَنِ وَتَفَقَّدَ إِنْسَانِيَّتَهَا خَارِجَ حَدُودِ وَطْنِهَا لِتَغْدُو سِيَاسَةَ قُوَّةٍ، وَإِنَّمَا حَسْبَ مَفْهُومِ الْأَخْلَاقِ وَالْقَانُونِ الَّذِينَ يُعْطِيَانَ لِلْسِّيَاسَةِ بُعْدًا إِنْسَانِيًّا عَلَى صَعِيدِ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ كُلَّهُ. وَتَبَعًا لِذَلِكَ يَجْعَلُ الْعِلَاقَاتِ الْبَشَرِيَّةِ عَلَى مُسْتَوْىِ الدُّولَ وَالْجَمَاعَاتِ أَكْثَرَ دِفْنًا وَمَوْدَةً بِمَا لَهُمَا مِنْ مَضْمُونَ رُوحِيِّ أَفْتَقَدَهُ عَالَمُ الْقُوَّةِ، عَالَمُ الْحِضَارَةِ الْحَدِيثَةِ مُنْذُ

زَمْنَ بَعِيدٍ، وَلَا يَزَالُ الذَّخِيرَةُ الَّتِي مَثَّلَتْ إِنْسَانِيَّةُ الْعَالَمِ الثَّالِثِ فِي وَجْهِ جَمِيعِ مُحَاوِلَاتِ التَّشْوِيهِ وَالْمَسْخِ الَّتِي تَعَرَّضُ لَهَا إِنْسَانُهُ، كَمَا لَا يَزَالُ هَذَا الْمَضْمُونُ الرُّوْحِي لصِيغَةً فِي الْعِلَاقَاتِ الدُّولِيَّةِ قَائِمَةً عَلَى الْأَخْلَاقِ وَالْقَانُونِ هُوَ الشَّرْطُ الْأَسَاسِيُّ لخَلَاصَ الْحُضَارَةِ الْحَدِيثَةِ وَإِنْسَانُهَا مِنْ أَزْمَةِ الْإِنْسَانِ الْحَدِيثِ الَّتِي قَادَتْهُ إِلَيْهَا النَّظَرَةُ الْمَادِيَّةُ إِلَى الْكَوْنِ وَالْحَيَاةِ وَالْإِنْسَانِ، وَمَا تَرَبَّ عَلَى ذَلِكَ مِنْ اِتَّبَاعِ مَنْطَقِ الْقُوَّةِ فِي الْعِلَاقَاتِ الْبَشَرِيَّةِ.

إِنَّ صَرَخَاتِ الْعَذَابِ الَّتِي تُطْلُقُهَا شُعُوبُ الْعَالَمِ الثَّالِثِ سَتَظْلُمُ تُدُوي فِي آذَانِ عَالَمٍ (مَنْطَقِ الْقُوَّةِ) مَهْمَا حَاوَلَ قَادَةُ عَالَمٍ مَنْطَقِ الْقُوَّةِ أَنْ يَحْتَلُوا عَلَى الْعَالَمِ الثَّالِثِ لِإِسْكَاتِ صَرَخَاتِ عَذَابِهِ الَّتِي يَوَاجِهُ بِهَا عَالَمُ الْأَقْوَيَاءِ الْقُسَّاَةِ الْمَادِيِّينِ الْأَنَانِيِّينِ، أَنَّ الْعَالَمَ الثَّالِثَ يَتَحَدَّى، وَخَلَاصَ الإِنْسَانِيَّةِ يَتَوَقَّفُ عَلَى نَوْعِ الْإِسْتِجَابَةِ.

المَارْكِسِيَّةُ وَالْعِلْمُ وَالسِّيَاسَةُ

المَوْقُفُ الْمَنْطَقِيُّ الْأَمِينُ وَالْأَخْلَاقِيُّ فِي قَضَايَا السِّيَاسَةِ الدَّاخِلِيَّةِ وَالْخَارِجِيَّةِ هُوَ أَنْ تَنْتَلِقُ النَّظَرِيَّةُ السِّيَاسِيَّةُ مِنَ الْمَوْقُفِ الْفَلَسَفِيِّ، وَأَنْ تُبْنِيَ الْمُمارِسَةُ السِّيَاسِيَّةُ الدَّاخِلِيَّةُ وَعَلَى الْمُسْتَوْى الْدُّولِيِّ عَلَى نَظَرِيَّةٍ سِيَاسِيَّةٍ نَابِعَةٍ مِنْ نَظَرِيَّةٍ فَلَسَفِيَّةٍ شَامِلَةٍ إِلَى الْكَوْنِ، وَالْحَيَاةِ، وَالْإِنْسَانِ.

وَالْمَارْكِسِيَّةُ تَدَعُونَ لِنَفْسِهَا هَذَا الشَّرْفَ.

تَدَعُونَ أَوْلَأَ: أَنَّهَا فَلْسَفَةٌ كَوْنِيَّةٌ شَامِلَةٌ تُقْدِمُ التَّفْسِيرَ الصَّحِيحَ لِجَمِيعِ الظُّواهِرِ فِي الطَّبِيعَةِ وَالْمُجَتمِعِ.

وَتَدَعُونَ ثَانِيًّا: نَضَالَهَا السِّيَاسِيُّ لَيْسَ نَاشِئًا مِنْ طَمُوحَاتٍ فَرَديَّةٍ أَوْ جَمَاعِيَّةٍ أَوْ فِئَويَّةٍ لَا صِلَةَ لَهَا بِالْوَاقِعِ الْمَوْضُوعِيِّ لِلْمُجَتمِعِ، كَمَا تُتَهِّمُ بِذَلِكَ الْجَمَاعَاتُ السِّيَاسِيَّةُ الْمُنَافِسَةُ لَهَا - وَإِنَّمَا هُوَ حَرَكَةٌ مَبْنِيَّةٌ عَلَى فَلْسَفَةٍ فِي الْمُجَتمِعِ هِيَ الْمَادِيَّةُ التَّارِيخِيَّةُ، نَابِعَةٌ عَنْ فَلْسَفَةٍ عَامَّةٍ وَشَامِلَةٌ لِلْكَوْنِ بِمَا فِيهِ مِنْ طَبِيعَةِ وَإِنْسَانِ، هِيَ الْمَادِيَّةُ الْدِيَالِكتِيَّكِيَّةُ. وَلِذَلِكَ فَإِنَّ الْقَوَانِينَ الْأَسَاسِيَّةَ فِي الْمَادِيَّةِ الْدِيَالِكتِيَّكِيَّةِ (قَانُونُ حَرَكَةِ التَّطْوُرِ، وَقَانُونُ تَنَاقُصَاتِ التَّطْوُرِ، وَقَانُونُ قَفَزَاتِ التَّطْوُرِ، وَقَانُونُ الْإِرْتِبَاطِ الْعَامِ) هَذِهِ الْقَوَانِينَ أَمْلَى إِيمَانَ بِهَا الْفِكْرُ الْفَلَسَفِيُّ الْعِلْمِيِّ السَّلِيمِ، وَمَنْ ثُمَّ أَتَخْذَنَا هَا سَلَاحًا نَظَرِيًّا فِي تَعَامِلِنَا مَعَ الطَّبِيعَةِ وَالْمُجَتمِعِ،

في عملنا العلمي في الطبيعة وفي عملنا السياسي في المجتمع . المازكسيّة إذن تدعى لنفسها هذا الشرف ، ولكنها داعوى يقُوم واقع الممارسة السياسيّة على خلافها ، فإننا بمراجعة بسيطة نكتشف أنَّ المازكسيّة لا تبني مواقفها السياسيّة على أساس من تفكيرها الفلسفـي وإنما تُحاول أنْ تجعل من التفكير الفلسفـي مبرراً لعملها السياسي ، مما يحملها في كثير من الحالات على الإعتـساف والتزوير لصياغة أفكار تدعى لها صفة الحقيقة لتكون سندًا لـمواقفها السياسيّة . وهذا ما يظهر بجلاءً كبيراً عند مراجعة الخلفـية السياسيـة للمواقف الفلسفـية التي أعلنتها المازكسيـة في كثير من الحالـات ، ومن هـذا الباب اعتبارـها القوانـين الأربعـة السـالفة الذـكر أـساساً مـطلقة الإـعتـبار وثـابتة للمـادـية الـديـاليـكـيـة ، فـإنـ الباحـث يلـمس ورـاء هـذا المـوقـف أو ذـاك الرـغـبة في تـبرـير العـمل السـيـاسـي ، فـيمـا هـم يـوـهـمـون النـاسـ بـأنـ العـمل السـيـاسـي عـلـى هـذا النـحو المـمـيـز جـاء نـتيـجة حـتمـيـة للـضـرـورة الـعـلـمـيـة الـتـي لا تـدـخـضـ .

وسـيـأتي الـبـحـث الـنـقـدي الـفـلـسـفـي لـقوـانـين الـدـيـالـيـكـيـكـ ، أـمـا هـنـا فـغاـيـتنا الكـشـف عنـ الـحـافـز السـيـاسـي إـلـى وـضـع هـذـهـ القـوـانـين وـإـعـطـائـها صـفـةـ الـحـقـيقـةـ الـعـلـمـيـةـ ، وـمـا هـيـ فيـ الـحـقـيقـةـ سـوـىـ أدـوـاتـ سـيـاسـيـةـ . وـالـآنـ إـلـىـ شـيـءـ مـنـ التـفـصـيلـ .

المَدْلُولُ السِّيَاسِيُّ لِقَانُونِ حَرْكَةِ التَّطْوِيرِ

لِمَاذَا تَذَهَّبُ المَارِكِسِيَّةُ خِلَافًا لِلْحَقِيقَةِ الْمَوْضُوعِيَّةِ - إِلَى أَنَّ قَانُونَ الْحَرْكَةِ يَتَجَاوزُ الْوَاقِعَ الْمَوْضُوعِيَّ الْمَادِيَّ إِلَى عَالَمِ الْفِكْرِ فَتَرَى أَنَّ الْفِكْرَ يَنْمُو وَيَتَغَيَّرُ بِالْحَرْكَةِ كَمَا يَنْمُو الْمَادَّةُ وَيَتَغَيَّرُ بِالْحَرْكَةِ؟ .

وَيُكْشَفُ لَنَا التَّحْلِيلُ عَنْ جَوَابِ هَذَا التَّسْأُولِ فِي مَجَالَيْنِ :

الْأُولَى : أَنَّ الْمَارِكِسِيَّةَ عِنْدَمَا وَضَعَتْ قَانُونَهَا هَذَا كَانَتْ تَعْلَمُ أَنَّهَا سَتَخُوضُ صَرَاعًا مَعَ الْفَلَسَفَةِ الْمِيَاتَافِيزِيَّةِ ، وَمَعَ الْمُؤْسَسَاتِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْإِجْتِمَاعِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ الَّتِي تَشَتَّسِبُ - حَقًّا أَوْ بَاطِلًا - إِلَى هَذِهِ الْفَلَسَفَةِ .

وَالْفَلَسَفَةُ الْمِيَاتَافِيزِيَّةُ تَسْتَندُ إِلَى جُملَةٍ مِنَ الْحَقَائِقِ الْمُطْلَقَةِ وَالنَّهَائِيَّةِ غَيْرِ الْقَابِلَةِ لِلْجَدَلِ . وَالْإِعْتِرَافُ بِأَنَّ قَانُونَ الْحَرْكَةِ لَا يَتَعَدَّ عَالَمَ الْمَادَّةَ إِلَى عَالَمِ الْفِكْرِ يَعْنِي أَنَّ ثَمَّةَ حَقَائِقٍ فِكْرِيَّةٍ مُطْلَقَةٍ وَحِينَئِذٍ لَا يُمْكِنُ لِلْمَارِكِسِيَّةِ تَجَاهِلُهَا ، بَلْ لَأَبُدُّ لَهَا مِنَ الْإِيمَانِ بِهَا وَهَذَا يَعْنِي قَوَّةً فِي مَوْقِفِ الْمِيَاتَافِيزِيَّةِ وَمِنْ ثَمَّ قَوَّةً فِي مَوْقِفِ مُؤْسَسَاتِهَا فِي الْمُجَتمِعِ .

أَمَّا إِعْلَانُ أَنَّ قَانُونَ الْحَرْكَةِ شَامِلٌ يَسْتَوْعِبُ عَالَمَ الْمَادَّةَ وَعَالَمَ الْفِكْرِ مَعًا فَيَقْضِي بِأَنَّهُ لَا تُوجَدُ حَقَائِقٌ مُطْلَقَةٌ فِي عَالَمِ الْمَادَّةِ وَكَذَلِكَ فِي عَالَمِ الْفِكْرِ ، وَهَذَا يَجْعَلُ الْمَارِكِسِيَّةَ فِي وَضْعٍ أَفْضَلَ فِي الْمُعَتَرِّكِ السِّيَاسِيِّ ، وَيُجَرِّدُ الْمِيَاتَافِيزِيَّةَ مِنْ

ركائزها الأساسية، ويجعلها تمثل مرحلة - مرحلة فقط - في سير الطبيعة والإنسان نحو التكامل والتطور الصاعد أبداً ودائماً.

وهكذا يكون الطموح السياسي هو الذي أملى على آباء المادية الديالكتيكية موقفهم الفلسفـي، وليس العكس. لم يكن الموقف السياسي في حقيقة الأمر نتيجة للموقف الفلسفـي.

الثاني : نفي وقوع خطأ في المواقف السياسية خلال النضال من أجل فرض السيطرة. فكل موقف سياسي صواب، وإذا انكشف خطأه كان صواباً نسبياً. وهكذا تجد المعاهدة مع هتلر ومهاونته النازية مكاناً لها في خانة الحقيقة، كما تجد السياسة الاقتصادية الجديدة مكاناً لها في خانة الحقيقة، وبذلك يمكن أن تكون المواقف السياسية المنساقضة صحيحة كلها، كما أننا نسبغ صفة الحقيقة على نظرية نيوتن وعلى نسبية آينشتاين معاً.

الحقيقة هي أن اعتبار المازكسيّة قانون الحركة شاملًا لعمليات الفكر ناشيء من الرغبة في إيجاد التبرير السياسي وأن أدى ذلك إلى تجاوز الحقيقة الفلسفية.

المَدْلُولُ السِّيَاسِيُّ لِقَانُونِ تَنَاقُضَاتِ التَّطْوُرِ

لَقَدْ أَعْتَمَدَتِ المَازِكِسِيَّةُ فِي الْعَمَلِ السِّيَاسِيِّ مَبْدِأً صِرَاعَ الطَّبَقَاتِ فِي الْمُجَتمِعِ، وَجَعَلَتْ هَمَّهَا الأَعْظَمَ رَفْعَ دَرَجَةِ الصراعِ فِي الْمُجَتمِعَاتِ الْمُضْطَرَبةِ، وَتَحْرِيكَ الصراعِ فِي الْمُجَتمِعَاتِ الَّتِي تَسْمَعُ بِالْإِسْتِقْرَارِ، وَالْمُضِيِّ فِي تَأْجِيجِ الْأَحْقَادِ الْطَّبَقِيَّةِ وَالْفِئَوِيَّةِ إِلَى أَنْ تَصُلَّ بِالْمُجَتمِعِ إِلَى حَالَاتِ الْإِنْقِسَامِ وَالْعَدَاءِ وَمِنْ ثُمَّ تَفْجِيرِ الصراعِ بِالثُّورَاتِ وَالْحُرُوبِ الْأَهْلِيَّةِ، وَإِنْ تَوَقَّفَ ذَلِكَ عَلَى تَأْيِيدِ أَنْظَمَةِ الْحُكْمِ الرَّجُعِيَّةِ، وَتَأْيِيدِ الْحُكَّامِ الْطُّغَاءِ، وَمُحَارَبَةِ الْأَنْظَمَةِ التَّقْدِيمِيَّةِ عَلَى غَيْرِ الْأَسْلُوبِ الْمَارْكِسِيِّ وَإِسْقَاطِ الْحُكَّامِ ذَوِي النَّزَعَاتِ الإِصْلَاحِيَّةِ، وَذَلِكَ لِأَجْلِ أَنْ تُسَاهِمَ أَنْظَمَةُ الْحُكْمِ الرَّجُعِيَّةِ، وَالْحُكَّامُ الْطُّغَاءِ فِي إِنْزَالِ أَفْدَحِ الظُّلْمِ بِالْفِئَاتِ الإِجْتِمَاعِيَّةِ الْأَقْلَى حَظَّاً مِنْ خَيْرَاتِ الْإِنْتَاجِ الْعَامِ لِلثُّورَةِ، فَتَزَدَّادُ بِقَمَةِ هَذِهِ الْفِئَاتِ، وَيُؤَدِّيُ ذَلِكَ إِلَى إِرْتِفَاعِ حَدَّ الصراعِ الْطَّبَقيِّ، وَهَذَا يُعَجِّلُ بِالثُّورَةِ الَّتِي تُؤْدِيُ إِلَى سِيَطَرَةِ المَازِكِسِيَّةِ عَلَى السُّلْطَةِ. بَيْنَمَا تَعْمَلُ أَنْظَمَةُ الْحُكْمِ التَّقْدِيمِيَّةِ - غَيْرِ المَازِكِسِيَّةِ - وَالْحُكَّامُ ذَوُوا النَّزَعَاتِ الإِصْلَاحِيَّةِ عَلَى إِنْصَافِ الْفِئَاتِ الْمَحْرُومَةِ، وَيُؤَدِّيُ ذَلِكَ إِلَى شُعُورِهَا بِالْإِنْصَافِ وَالْعَدَالَةِ، فَيَنْزَعُ مِنْ صُدُورِهَا الغِلُّ وَالْحِقدُ، وَيَدْفَعُ بِهَا نَحْوَ التَّعَاوُنِ مَعَ غَيْرِهَا مِنِ الْفِئَاتِ بَدَلَ الصراعِ، وَهَذَا مَا يُبَعِّدُ فُرْصَةَ إِسْتِيلَاءِ الْمَارْكِسِيِّينَ عَلَى السُّلْطَةِ.

لقد أعتمدت المازكسيّة هذَا المبدأ فِي عَمَلِهَا السُّيَاسيِّ . ولَكِنَّهُ - كَمَا يَرَى الجَمِيع - مَبْدًا غَيْرَ أَخْلَاقِيٍّ وَغَيْرِ إِنسانِيٍّ ، وَهُوَ مُعَرَّضٌ لِلإِدانَةِ مِنْ أَيِّ إِنسانٍ مُسْتَقِيمٍ الْفِكْرُ وَالْضَّمِيرِ إِنْطَلَاقًا مِنْ لَا أَخْلَاقِيَّةِ الْمَبْدَا المَذْكُورُ وَلَا إِنْسَانِيَّتِهِ . وَلِذَا فَشَّمَّةَ عَامِلَانِ يَحْمِلُانِ الْمَازكسيّةَ عَلَى أَنْ تَجِدَ سَنَدًا فَلْسَفيًّا - عِلْمِيًّا لِهذَا المَبْدَا :

الْأَوَّلُ : هُوَ دَفْعُ الْإِعْتَرَاضِ الْأَخْلَاقِيِّ عَلَيْهِ فَإِنَّ الْقَوَافِينِ الْعِلْمِيَّةِ لَا تَخْضُعُ لِلْإِعْتَبَارِاتِ الْأَخْلَاقِيَّةِ ، إِنَّهَا حَتَّمِيَّةٌ وَلَا شَأْنٌ فِيهَا لِلْإِخْتِيَارِ الْبَشَرِيِّ وَالْضَّمِيرِ ، وَلِذَا فَلَا مَجَالٌ لِلْإِعْتَرَاضِ عَلَى هذَا المَبْدَا مِنَ النَّاحِيَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ .

الثَّانِي : هُوَ إِعْطَاءُ المَبْدَا صِفَةَ الْعِلْمِيَّةِ وَالْحَقِيقَةِ الْفَلْسَفيَّةِ لَثُلَّا يَخْطُرُ فِي بَالِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ أَنَّهُ مُجَرَّدٌ تَغْطِيَةٌ أَدْبَيَّةٌ إِنْشائِيَّةٌ لِأُسْلُوبِ سِيَاسِيٍّ ، وَبِذَلِكَ يَكْتَسِبُ الْمَبْدَا قُوَّةَ التَّأْثِيرِ بِإِعْتَبَارِهِ حَقِيقَةٌ عِلْمِيَّةٌ فَلْسَفيَّةٌ وَيَدْفَعُ عَنْهُ صِفَةَ اللَا أَخْلَاقِيَّةِ وَاللَا إِنسانِيَّةِ .

* * *

إِنَّ الْصِرَاعَ وَالتَّنَافِيِّ مَوْجُودٌ فِي الْمُجَمَّعِ السِّيَاسِيِّ بِلَا شَكَّ ، وَلَكِنَّ التَّعَاوُنَ مَوْجُودٌ فِي الْمُجَمَّعِ السِّيَاسِيِّ أَيْضًا ، فَالصِرَاعُ وَالتَّنَافِيِّ لَيْسَ قَائِمًا عَامَّاً وَشَامِلًا وَثَابِتًا فِي حَرَكَةِ التَّارِيخِ وَإِنَّمَا هُوَ أَحَدُ مَظَاهِرِهَا ، وَالتَّارِيخُ يَتَحَركُ وَيَنْمُو مِنْ خِلَالِ تَفَاعُلِ جُملَةِ مِنِ الْعَوَامِلِ .

أَمَّا فِي الطَّبِيعَةِ فَالْقَانُونُ الظَّاهِرُ هُوَ قَانُونُ التَّكَاملِ ، وَلَيْسَ مَبْدَا التَّنَاقُضِ ، وَتَطَوُّرُ الطَّبِيعَةِ وَنَمُوهَا يَتَمُّ مِنْ خِلَالِ تَكَاملِ قِوَاهَا وَعَنَاصِرِهَا وَتَعَاوُنِهَا ، وَلَيْسَ مِنْ خِلَالِ تَنَاقُضِهَا ، وَمَا يَبْدُو تَنَاقُضًا فِي الطَّبِيعَةِ فَيُكَشَّفُ - حِينَ درَاسَتِهِ عَلَى ضَوءِ شُرُوطِ التَّنَاقُضِ - أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ التَّنَاقُضِ فِي شَيْءٍ ، وَإِنَّمَا أُعْتَبَرَهُ

الماركسيون تناقضًا بسبب جهلهم بقانون الشناص أو بسبب حرصهم على إيجاد المبرر الفلسفى لعملهم السياسي كما ذكرنا.

ويبدو أن واضعى أسس المازكسيه غفلوا عن أن هذا القانون يقضي عليهم بأحد أمرين كلاهما نفى للماركسيه:

أحد هما: أن نفترض أن قانون تناقضات التطور يستمر حتى بعد تكون المجتمع الشيعي الكامل، وهذا يقتضى بأن يعمل هذا، القانون عمله في نفي الماركسيه نحو مرحلة تتجاوزها في نمو التاريخ، وهذا يعني أن المازكسيه مرحلة وليس نهاية حركة التاريخ، وهكذا تأتي مرحلة تاريخية تلغى الشيعيه وتكون أكثر تطوراً، وتقديماً منها على اعتبار إن حركة التاريخ تسير في خط صاعد دائم؟؟.

وثانيهما: أن نفترض أن قانون تناقضات التطور يتوقف عن العمل ويُبطل أثره. وحينئذ فهل يكف المجتمع عن الحركة؟ وهل تتوقف حركة التاريخ عند حد لا تتعده؟ أي الإفتراضين يختار الماركسيون يكُون إبطالاً لدعواهم وفلسفتهم من أصلها.

المَذْلُولُ السِّيَاسِيُّ لِقَانُونِ قَفْزَاتِ التَّطْوُرِ

أَعْتَمَدَتِ المَازِكِسِيَّةُ فِي عَمَلِهَا السِّيَاسِيِّ لِتَسْلِمِ السُّلْطَةَ مَبْدَأً الْإِنْقَلَابِ الْمِسْلَحِ وَالثَّوَرَةِ، وَرَفَضَتِ مَبْدَأَ الْعَمَلِ الْدِيمُقْرَاطِيِّ الْبَرْلَمَانِيِّ الَّذِي أَعْتَمَدَهُ الْفِكْرُ السِّيَاسِيُّ فِي أُورَبَا، وَمَنْ ثُمَّ فَهِي تُحَارِبُ الْإِصْلَاحِيِّينَ الَّذِينَ يَشْتَهِجُونَ سَبِيلَ التَّغْيِيرِ التَّدَرِيجِيِّ السِّلْمِيِّ لِيَصُلُّوا بِالْمُجَتمِعِ السِّيَاسِيِّ إِلَى مُسْتَوَيَّاتِ أَفْضَلِ فِي أَوْضَاعِهِ الْحَيَاةِيَّةِ، وَتَرَى أَنَّ تَغْيِيرَ الْمُجَتمِعِ السِّيَاسِيِّ وَتَحْقِيقَ الْعَدَالَةِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْعُنْفِ وَالثَّوَرَةِ الَّتِي تَجْتَثِّثُ جَمِيعَ قَوَاعِدِ الْمُجَتمِعِ مِنْ جُذُورِهَا دُفْعَةً وَاحِدَةً. وَالنُّصُوصُ الْمَازِكِسِيَّةُ الْأَسَاسِيَّةُ فِي هَذَا الْمَسْأَلَةِ وَاضْحَاهُ صَرِيقَهَا لَا تَرْكُ مَجَالًا لِلتَّأْوِيلِ،

قَالَ مَارِكُسُ وَإِنْجِلْزُ :

«وَلَا يَسْتَدِنى الشُّيُوعِيُّونَ إِلَى إِخْفَاءِ آرَائِهِمْ،
وَمَقَاصِدِهِمْ، وَمَسَارِيِّهِمْ، يُعْلَمُونَ صَرَاحَةً أَنَّ أَهْدَافَهُمْ
لَا يُمْكِنُ بِلُوغِهَا وَتَحْقِيقِهَا إِلَّا بِهَدْمِ كُلِّ النَّظَامِ
الْإِجْتِمَاعِيِّ التَّقْلِيدِيِّ بِالْعُنْفِ وَالْقُوَّةِ»^(١).

وَقَالَ لِينِينُ :

(١) انظر، البيان الشُّيُوعِي: ٨.

«إنَّ الثُّورَة البُرْولِيَّاتِيَّة غَيْر مُمكِّنة بِدُون تَحْطِيم
جَهَاز الدَّوْلَة البُرجُوازِي بِالْعُنْف»^(١).

وَلَكِنَّ العُنْف الثُّورِي يُقَابِلُهُ فِي الْعَمَل السِّيَاسِي الأُسْلُوب الْدِيمُقْرَاطِي الَّذِي يَعْتَمِد التَّغْيِير عَن طَرِيق التَّشْرِيع، وَتَكُونُ الْقَنَاعَات لَدِي فَئَاتِ الْمُجَتمِع السِّيَاسِي لِلْقَبُول بِالتَّغْيِير، وَهَذَا الأُسْلُوب هُوَ الَّذِي يَتَّبِعُهُ الْخُصُوم السِّيَاسِيُّون لِلْمَارْكِسِيَّة فِي كُلِّ مُجَتمِع.

وَقَدْ رَأَى الْمُفَكِّرُون السِّيَاسِيُّون أَنْ يَلْتَمِسُوا مَوَاقِفِهِم السِّيَاسِيَّ سَنَدًا عِلْمِيًّا - فَلَسْفِيًّا يُحَقِّقُ لَهُمْ هَدَفِينَ :

الْأَوَّل : إِسْكَات خُصُومِهِم السِّيَاسِيِّين فِي الْجَدَل حَوْل أُسْلُوب التَّغْيِير السِّيَاسِي لِلْمُجَتمِع بِأَنَّ الثُّورَة الْمُسْلَحَة وَالْقَضَاء عَلَى الْمُؤْسَسَات الْقَدِيمَة بِالْعُنْف لَيْسَ أَمْرًا خَاصَّا لِلْإِخْتِيَار البَشَرِي الَّذِي يَسْمَحُ بِالْجَدَل وَتَفْضِيل أُسْلُوب عَلَى آخَر، وَإِنَّمَا هُوَ قَانُون حَتَّمِي ثَابِت فِي الطَّبِيعَة وَالتَّارِيخ، وَلِذَلِكَ فَلَأَمَنَّا مِنْ الْمَصِير إِلَيْهِ.

الثَّانِي : إِظْهَار أَنَّ مَوَاقِفِهِم السِّيَاسِيَّة نَابِعَة مِنْ مَوْقِفِ عِلْمِي - فَلَسْفِي، وَلَيُسَتَّ نَتْيَاجَةِ إِخْتِيَارات آنِيَّة تُمْلِيَهَا الضَّرُورَات السِّيَاسِيَّة فِي الْحَيَاة الْمُتَغَيِّرَة الْمُتَقْلِبة لِلْمُجَتمِع السِّيَاسِي.

لَأَجْلِ جَمِيع ذَلِكَ أَخْتَرَعَتِ الْمَارْكِسِيَّة مَبْدَأَ قَفَزَاتِ التَّطْوُر، زَاعِمَة أَنَّ التَّغْيِيرات الَّتِي تَحْدُث نَتْيَاجَة لِقَانُونِيَّةِ الْحَرْكَة وَتَنَاقِضَاتِ التَّطْوُر لَا تَحْدُث فِي

(١) انظر، أَسْسِ الْلِّيْبِيَّة: ٦٦.

الطبيعة والمجتمع تدريجياً وإنما تحدث دفعة واحدة وبشكل فوري ثوري يغير في لحظة الوضعية والبنية القديمة بوضعية وبنية جديدة تفرضها الفزعة في الطبيعة والثورة في المجتمع السياسي.

ولم تقدم الماركسية أي دليل على دعawahذه. وإنما عرّضت جملة من الأمثلة التي يكشف النقد الموضوعي زيفها وخطاؤها.

وسينتضح بطلان هذا المبدأ من الناحية الفلسفية في المباحث الآتية، وكل ما نريد توضيحه هنا هو إن هذا المبدأ كسائر المباديء الأسس في الماركسية ليس علمياً ولا فلسفياً وإنما هو تغطية ومبرير لأسلوب في العمل السياسي هو الثورة المسلحة التي قد تكون ضرورية حين تفشل جميع الوسائل في الإصلاح الإسلامي، ولكنها مع توفر إمكانات الإصلاح والتغيير نحو الأفضل بالأساليب السلمية تكون، بلا ريب، عملاً غير أخلاقي ومن ثم غير شرعي.

المَذْلُولُ السِّيَاسِيُّ لِقَانُونِ الْإِرْتِبَاطِ الْعَامِ

قَانُونِ الْإِرْتِبَاطِ الْعَامِ قَانُونٌ صَحِيحٌ وَصَادِقٌ فِي الطَّبِيعَةِ وَالْمُجَتمِعِ، وَقَدْ سَبَقَتِ الْوَاقِعَيْةُ الْإِلهِيَّةُ إِلَى الكَشْفِ عَنِ هَذَا الْقَانُونِ. وَلَكِنَّهُ يَسْتَنِدُ إِلَى أَسَاسٍ عِلْمِيَّةٍ، لَا إِلَى مَا تَدَدَّعِيهِ الْمَازِكَسِيَّةُ مِنْ مَبْدَأِ التَّنَاقُضِ، وَسَيَأْتِي فِي الْأَبْحَاثِ التَّالِيَّةِ بِيَابَانٍ وَجْهٌ لِلْحَقِّ فِي الْأَسَاسِ الَّذِي يَسْتَنِدُ إِلَيْهِ هَذَا الْقَانُونُ، أَمَّا هُنَا فَنُرِيدُ أَنْ نَكْشِفَ عَنِ الْمَذْلُولِ السِّيَاسِيِّ لِهَذَا الْقَانُونِ فِي التَّطْبِيقِ الْمَارِكَسِيِّ.

الْمَارِكَسِيُّونَ يَنْتَفَعُونَ بِجَمِيعِ الْفُرُصِ الَّتِي يُتِيحُهَا لَهُمُ أَيْ نَظَامٍ سِيَاسِيٍّ يَعْمَلُونَ فِي ظَلَّهُ : فَهُمْ : مَثَلًاً، يَنْتَفَعُونَ بِحُرْيَّةِ الْكَلَامِ، وَالتَّظَاهِرِ، وَالْتَّنَظِيمِ الْحِزْبِيِّ وَالنَّقَابِيِّ وَغَيْرِ ذَلِكِ مِنَ الْحُرْيَّاتِ الَّتِي يُتِيحُهَا لَهُمُ النَّظَامُ الْدِيمُقْرَاطِيُّ الْبَرْلَمَانِيُّ إِذَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فِي ظِلِّ نَظَامٍ كَهَذَا كَمَا تَسْتَفِعُ بِهَا سَائِرُ الْجَمَاعَاتِ السِّيَاسِيَّةِ الَّتِي تَعْمَلُ فِي ظِلِّ هَذَا النَّظَامِ. وَهَذَا أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ، فَمِنْ الْأُصُولِ الْأَسَاسِيَّةِ الَّتِي يَقُومُ عَلَيْهَا النَّظَامُ الْبَرْلَمَانِيُّ هُوَ إِتَاحَةُ هَذِهِ الْحُرْيَّاتِ لِلْجَمَاعَاتِ السِّيَاسِيَّةِ الْعَامِلَةِ فِي الْمُجَتمِعِ، وَمِنْ حَقِّ هَذِهِ الْجَمَاعَاتِ أَنْ تَسْتَفِيدَ فِي عَمَلِهَا السِّيَاسِيِّ مِنْ هَذِهِ الْحُرْيَّاتِ.

وَلَكِنَّ الْمَازِكَسِيَّةَ عِنْدَمَا تَشَتَّرُ تَشَتَّرُ مِنْ مَسَأَلَةِ الْحُرْيَّاتِ مَوْقِفًا آخَرَ، فَهِيُ تُصَادِرُ حُرْيَّةَ الْجَمَاعَاتِ السِّيَاسِيَّةِ الْأُخْرَى فِي الْمُجَتمِعِ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ الرَّأْيِ، وَالْتَّنَظِيمِ الْحِزْبِيِّ وَالنَّقَابِيِّ وَغَيْرِ ذَلِكِ، وَتَسْتَأْثِرُ لِأَجْهَزَتِهَا وَحْدَهَا بِكُلِّ هَذِهِ الْحُرْيَّاتِ . بَدَعَوْيٌ أَنَّ هَذِهِ الْجَمَاعَاتِ السِّيَاسِيَّةِ الْأُخْرَى تُمَثِّلُ تَطْلُعَاتِ سِيَاسِيَّةٍ

معادية للشعب (ولأحرى لأعداء الشعب). والحقيقة هي أن الجماعات السياسية قد لا تكون عدوة للتطلعات الشعبية وكل ذنبها أنها تعتمد عقيدة سياسية غير المازكسيّة، ولكن هذا وحده في نظر المازكسيّة، سبب كافٍ لمصادره حرّياتها. والمازكسيّة تُسند في موقفها هذا إلى رغبة طبيعية، ولكنها غير عادلة، وفقاً للشعارات التي تُنادي بها، في الإستشارة بالسلطة وفي تقوية جميع الفرص التي تشجع للشعب أن يطلع على وجهات نظر أخرى في قضاياه الحياتية والسياسية. وهي تعلم أن قانون الارتباط العام يقضي بأن لكل نشاط إنساني في الطبيعة أو المجتمع أثراً يعكس على شبكة العلاقات بين الأشياء والموافق والجماعات. وأن الجماعات السياسية الأخرى في المجتمع إذا أتيحت لها الحرّيات السياسية فستكشف أخطار الممارسات التي يقوم بها النظام الحاكم، وهذا يؤدي إلى تكوين قناعات لدى الشعب لن تكون في مصلحة هذا النظام الذي سيفقد تدريجياً سلطته وقدرته على التأثير، ولذا فهي تصادر حرّيات الآخرين لتحول بينهم وبين الارتفاع بقانون الارتباط العام في التأثير على الوضع السياسي للمجتمع، وتعطي لنفسها حرّية الارتفاع بقدرة التأثير التي يوفرها هذا القانون.

أن المازكسيّة، حين تحكم، تمنع عن الآخرين ما تطلب به هي، وتحصل عليه في الغالب، حيث يكونون حاكمين.

أن المازكسيّة تُسْتَمِر قانون الارتباط العام لمصلحتها وحدها حين تكون هي الحاكمة، بينما يكون أستثمار هذا القانون في العمل السياسي ممكناً لجميع الفئات السياسية في ظل الأنظمة التي تعطي الحرّية لجميع الفئات السياسية.

أن المازكسيّة لم تكتشف قانون الارتباط العام، ولكنها برعت في استخدامه على الصعيد السياسي.

الخلاصة

في الأبحاث الآتية تقد شاملاً لأهم الركائز التي يقوم عليها الفكر المادي من خلال المسائل التي أثيرت في تقد الفكر الديني. ولذا لم يكن من مقصدي في الأبحاث الآتية إلا الكشف عن الخلفية السياسية التي أملأت على المادية الديالكتيكية صياغة مبادئها الأساسية في الطبيعة والمجتمع، مرجحاً البحث الفلسفى إلى موضعه من هذا الكتاب.

وأود أن أُنبئ هنا إلى أن المادية بجميع مظاهرها رأسمالية كانت أو دينالكتيكية أو غيرها، بالإضافة إلى أنها خطأ علمي وفلسفي، مُخالف للطبيعة الإنسانية ولا يعمق وأصدق ما يشتمل عليه التكوين الإنساني من معنى، ومن ثم فإنها لن تؤدي إلى إنحطاط النوع الإنساني في معناه وفي جوهره وإن أدت إلى تفوق بعض فئاته في الشأن المادي ولكن بشمن باهظ هو شقاء مئات الملايين من البشر، بل ألف الملايين إذا أخذنا بنظراعتبار التضخم السكاني في العالم الثالث.

إن العالم الثالث بوجه عام، والعالم الإسلامي بوجه خاص، والعالم العربي بوجه أخص قد عانى من تيار المادية الذي كون الحضارة الحديثة وأنقسم على نفسه في الثلث الأول من هذا القرن الميلادي إلى رأسمالية وشيوعية - أشد الآلام، وتعذبت شعوبه كلها عذاباً نكرانياً، ونُكِّبت في أوطانها وإنسانها، وكراماتها

وثرّاتها بسبب روح العدوان، والحيوانية واللا أخلاقيّة التي تكون المحتوى الثابت للماديّة بجميع أشكالها ومظاهرها مهما تسترّت وراء دعاء العلّم والموضوعية والشعارات الخادعة.

لقد آن للعالم العربي أن يمسك بمصيره، ويوجه سياساته بروح مستمدّة من حضارته هو، ومن فكره هو، وبذلك يبعث الحياة القوية النابضة في العالم الإسلامي كله، وبذلك تُسَاخ للإنسانية فرصة خلاصها من الكارثة التي تقودها الماديّة إليها.

إنّ ثمة دوراً عظيماً، يبحث عن بطل. وهذا الدور ليس على مستوى وطني، أو قومي، أو قاري، إنّه على مستوى الإنسانية كلّها في عصرنا. فقد جعل العلم الحديث الإنسانية بأجمعها كلاً مترابطاً متفاعلاً تداخلت مصادر أوطانه وشعوبه وقاراته في وحدة من المستحيل فصم عرّاها.

وهذا الدور الذي يبحث عن بطل هو إنقاذ هذه الإنسانية المعدّبة المذعورة من مصير رهيب تؤدي بها إلى الماديّة التي أمثلّكت أعظم قوة قادرّة على التدمير في التاريخ كله. ومن المستحيل على الجماعات البشرية التي تقوم حياتها على مفاهيم هذه الماديّة - رأس المال - أن تكون إحداها هي بطل الإنقاذ، لأنّها تحمل الداء نفسه فلا تستطيع أن تنقذ الآخرين من آثاره وأخطاره.

إنّ المؤهل لهذا الدور هو العالم الإسلامي، بما يملك من فكري صالح للإنقاذ. وبتحميم العرب مسؤوليته خاصة في هذا المهمة التي تعجز الكلمات عن تصوير عظمتها وشرفها وبنبلها، فالعرب هم قلب العالم الإسلامي جغرافياً، وفكرياً، وثروة، وإذا فهم في موقع الريادة لهذا الدور العظيم. أنّ العالم الإسلامي قادر إذا

ثاب إلى نفسه، وعاد من غربته الروحية والفكريّة إلى فكره الأصيل، وعائق دوره في تحرك تاريخي مسؤول، لا في مظاهر النرجسيّة، والإفتتان بالذات، والإفخار بالماضي، قادر على أن يحرك العالم الثالث كله نحو المسار العظيم المؤدي إلى إنقاذ الإنسانية كلها من مصير مُرعب رهيب.

ولainي يعني أن يؤدي أخذ العالم الإسلامي لهذا الدور إلى بعث ذرة من الشك لدى شعوب العالم الثالث وفي العالم في أن يؤدي هذا الدور إلى صيغة إمبراطوريّة سلططيّة يمارسها المسلمون على الأمم الأخرى. فإن شخصيّة المسلم قائمة في جميع عناصرها المكوّنة لها على روح الإنسانية لا على الروح الإمبراطوريّة السلطانيّة، والمصير الآخروي للمسلم والتّجاهة عند الله مرتبطة بكونه يرفض التّسلط و«العلو في الأرض»، قال الله تعالى:

﴿تُلْكَ الدَّارُ الْأُخْرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُواً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسادًا وَالْعَنْقَبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١).

* * *

وأخيراً أود أن أشير، قبل الانتقال إلى الأبحاث الفلسفية من هذا الكتاب، إلى أن هذه الفصوص كتبت بروح الحب للناس، والإخلاص للحقيقة، ولم تصدر عن روح معادية أو مبغضة، فأنا أعلم أن كثيراً من أصحاب المواقف الخاطئة والأفكار المجافية للحق، هم من ذوي النّيات الحسنة الذي يحركهم الإخلاص والرغبة الحارة في تغيير واقع أمتهم إلى الأفضل. ولكن إخلاصهم لا يمنع من

لَوْمَهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يُسْخِنُوا الْبَحْثَ، وَلَمْ يَكُونُوا مَوْضُوعِيْنَ، وَلَا مُنْصِفِيْنَ فِي مَوْاْفِقِهِمُ الْفِكْرِيَّةِ، وَالسِّيَاسِيَّةِ، وَإِنَّمَا أَنْدَفَعُوا بِفَجَاجَةِ وَصِبَابَانِيَّةِ وَتَعَصُّبِ أَعْمَى فِي مَوْاْفِقِهِمُ يَهْدِمُونَ كُلَّ شَيْءٍ، وَيَطْوُحُونَ بِكُلِّ شَيْءٍ حَتَّى آتَ بِنَا الْحَالَ إِلَى مَا نَحْنُ عَلَيْهِ مِنْ فُرْقَةٍ وَتَمْزِقَ وَضَيَاعَ.

وَإِذَا نَضَحَتْ بَعْضُ الْجُمْلِ وَالْكَلْمَاتِ فِي هَذِهِ الْفُصُولِ بِالْمَرَأَةِ وَالْغَضَبِ فَلَيْسَ ذَلِكَ نَاشِئًا مِنْ ضَغْيَنَةِ فِي النَّفْسِ، وَإِنَّمَا هُوَ نَاشِئٌ مِنْ مَرَأَةِ الْوَاقِعِ، وَمِنْ الْفَضَبِ لِلْحَقِّ حِينَ يُجْحَدُ وَيُهَانَ تَوْصِلًا لِغَايَاتِ سِيَاسِيَّةٍ لَا تُؤْدِي إِلَى خَيْرٍ فِي الْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ.

القسم الثاني
مطازحات
في الفكر المادي والفكر الديني

تصفيّة حساب صغير

في الأبحاث الآتية ما يكشف بوضوح عجز الماركسية - على أفتراض تسلیم جميع مقدماتها - عن تقديم تفسير مقتضع لنشأة الكون. وسنرى أنها تعمد إلى غيبيّة تناقض مع أحكام العقل. وسأكشف من الزيف العلمي، والتضليل الفلسفى في الماركسية.

وقد أعلن الأستاذ نسيب نمر^(١) بعد أن انكشف عجز الماركسية وإفلاتها - براءة الماركسية من الدكتور صادق جلال العظم، ومن أفكاره، بدعوى أنَّ أفكاره ليست ماركسيّة بدرجّة كافية، وأنَّه لم يتّناول موضوعه تناولاً علميًّا صحيحاً وإنَّما تغلب عليه ناقدُه محمد مهدي شمس الدين.

ولأذرى لماذا طبّل الماركسيون هنا وفي كُلِّ مكان للدكتور وزمروا، وأعتبروا كتابه نموذجاً رائعاً للفكر الماركسي في مقابل الفكر الديني، ورأوا فيه انتصاراً كاسحاً للماركسية على الدين. كان هذا موقفهم قبل أن نذيع سلسلة مقالاتنا في نقد الكتاب موضوع البحث، فلما تبيّن من خلال هذه المقالات البُؤس الفكري الذي يظهر جلياً في الكتاب المذكور، وتبيّن عجز الماركسية

(١) انظر، مجلة الأُخذ: (٢٩ آذار ١٩٧٠ م - العدد ٩٧٢). (منشور).

وإفلاؤها، تَبَرُّا الماركسيون مِن الدَّكتُور وَمِن كِتَابِهِ، وَأَعْلَنُوا بِلِسَانِ الأُسْتَاذ نَسِيبِ نِمر أَنَّهُ لَا يُمَثِّلُهُمْ، وَلَا يُمَثِّلُ فِكْرَهُمْ... لِمَاذَا؟!!.

هَل هَذَا تَكْتِيكَ مَاركِسِيٍّ لِلمَاركِسِيَّةِ الَّتِي تَتَخْطِي ذَاتَهَا بِإِسْتِمَارٍ؟!!، وَإِذْنَ فَلْنُسَمْ مَا كَتَبَهُ الأُسْتَاذ نَسِيبِ نِمر فِي شَأنِ مَقَالَاتِي، وَكِتَابِ نَقْدِ الْفِكْرِ الْدِينِيِّ نَوْعًا مِن تَخْطِي الذَّاتِ!!.

وَقَدْ تَحَدَّثَ الأُسْتَاذ نَسِيبِ نِمر عَمَّا أَتَيَحَ لِي مِن حُرْيَّةِ، وَعَمَّا تَعَرَّضَ لَهُ الأُسْتَاذ صَادِق جَلَالِ الْعَظَمِ مِن مَصَادِرَةِ لِحُرْيَّتِهِ. وَهَذَا مَا أَثَارَ عَجَبِي وَدَهْشَتِي، فَلَقَدْ أَتَيَحَ لِلَّدَّكْتُورِ مِن حُرْيَّةِ التَّغْيِيرِ عَن الرَّأْيِ مَا لَمْ يُتَيَّحْ لِي عِشْرَ مِعْشَارِهِ، وَأَتَيَحَ لِأَفْكَارِهِ مِنْ فُرَصِ الْذِيُّونِ وَالْإِنْتَشَارِ مَا لَمْ يُتَحْ لِأَحَادِيشِي فِي الرَّدِّ عَلَيْهِ. لَقَدْ نَاصَرَهُ الصَّحَافَةُ عَلَى إِخْتِلَافِ مَيْولَهَا وَأَتَجَاهَاتِهَا، وَأَنْبَرَتْ لِلدَّفَاعِ عَنْهُ وَلَشَرَحَ أَفْكَارِهِ كُلَّ الْمُؤْسَسَاتِ الإِعْلَامِيَّةِ وَالْحِزْبِيَّةِ الْمُوَالِيَّةِ لِخَطَبِ الْفِكْرِيِّ، وَنَهَجَهُ السِّيَاسِيِّ. وَكَمْ رَوَّجَتْ لَهُ هَذِهِ الْأَوْسَطُ وَهَلَّلَتْ فِي الصَّحَافَةِ وَالنَّوَادِيِّ الثَّقَافِيَّةِ. وَأَمَّا مَا تَعَرَّضَ لَهُ مِنْ مُلاَحَقَةِ، وَتَعَرَّضَ لَهُ كِتَابِهِ مِنْ مَنْعِ وَمُصَادِرَةِ، فَقَدْ قُلْتُ فِي مَطْلَعِ أَحَادِيشِي أَنَّهُ أَمَّرَ لَا مُوجِبَ لَهُ وَلَا دَاعِيٌ إِلَيْهِ. وَعَلَى أَيِّ حَالٍ فَقَدْ كَانَ هَذَا الإِجْرَاءُ فُرَصَةً أَتَاحَتْ لِلْكِتَابِ ذِيُّونًا وَأَنْتَشَارًا مَا كَانَ لِيَحْصُلُ عَلَيْهِمَا لَوْاَنَ الْكِتَابِ تُرُكَ وَشَانَهُ دُونَ أَعْتَراَضٍ.

مَدْخَل

شُغِلتُ ببعض الوقت عن قِرَاءَةِ كِتَابِ الدُّكْتُورِ صَادِقِ جَلَالِ الْعَظَمِ «نَفْذُ الْفِكْرِ الدِّينِي» وَقَدَرْتُ فِي نَفْسِي أَنَّ هَذَا الْكِتَابُ لَا يُعْدُ وَأَنَّ يَكُونُ كَأَمْثَالِهِ أَفْنَاهَا فِي السَّنَوَاتِ الْأُخِيرَةِ، هِيَ حَصِيلَةُ أَفْكَارِ شَبَابِنَا الَّذِي تَعَلَّمَ فِي أُورْبَا فَأَخْذَ مِنْهَا - إِلَى جَانِبِ عُلُومِهَا - أَوْهَامِهَا وَتَصَوُّرَاتِهَا الْخَاطِئَةِ عَنِ الدِّينِ بِوَحْيِهِ عَامَ، دُونَ أَنْ يَكُونَ قَدْ وَعَيَ مِنْ تُرَاثِهِ، وَمِنْ عَقِيدَتِهِ، وَمِنْ تَارِيخِهِ مَا يَعْصِمُهُ مِنِ الزَّلَلِ، وَيَحْمِلُهُ عَلَى غَرَبَلَةِ مَا يَسْمَعُ وَيَرَى وَيُلْقَنُ، فَأَخْذَ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى أَنَّهُ حَقِيقَةٌ، وَطَفَقَ يُرَوِّجُهَا فِي وَطَنِهِ، بَعْدَ أَنْ شُدِّهِ بِحَضَارَةِ أُورْبَا الْمَادِيَّةِ، الْغَالِبَةُ الْأُنْ عَلَى كُلَّ شَيْءٍ، وَبَعْدَ أَنْ رَأَى أَنَّ مُثُلَّهَا وَمَفَاهِيمَهَا وَأَخْلَاقَهَا تَكْتُسُحُ أَمَامَهَا كُلَّ الْمَوَاضِعَاتِ وَالْأَعْرَافِ وَالْتَّقَالِيدِ سَيِّئَةً كَانَتْ أَوْ حَسَنَةً، جَمِيلَةً كَانَتْ أَوْ قَبِيحةً.

وَهَذِهِ الْكُتُبُ أَيْضًا حَصِيلَةُ مُوجَةِ الْإِلْحَادِ الَّتِي أَنْطَلَقَتِ فِي السِّنِينِ الْأُخِيرَةِ، وَشَمَلَتْ قَطَاعًا كَبِيرًا مِنِ الشَّبَابِ الْمُتَعَلِّمِ - وَلَا أَقُولُ المُتَقَفِّ - الشَّبَابُ الَّذِي لَمْ يَتَزَوَّدْ بِأَيِّ مَعْرِفَةٍ دِينِيَّةٍ عِلْمِيَّةٍ عَلَى الإِطْلَاقِ، وَالَّذِي يُحَسِّنُ فِكْرَهُ بِأَفْكَارِ الْمَلَأِ الْأَجَانِبِ فِي صِيغِ جَازَمَةٍ. وَمُسْلِمَاتِ حَاسِمةٍ.

وَمِنْ الغَرِيبِ فِي ظَواهرِ هَذِهِ الْمَوْجَةِ الْإِلْحَادِيَّةِ أَنَّهَا تَسْمَحُ لِنَفْسِهَا بِالشَّكِّ فِي الْمَسِيحِيَّةِ، وَالْإِسْلَامِ وَتُحَاوِلُ تَهْدِيهِمَا بِالضَّلَالَاتِ الَّتِي تُشَرِّهَا، وَالْأَبَاطِيلِ الَّتِي

ترُوِّج لها. دون أن تمس اليهودية بشيء، وإن مسَّتها بكلمة فإنها تصاغ بمعنٍى الرقة والعدوبة، ولا أعرف سرًا لهذه الظاهرة إلا فكرة ماركس أو إنجلز - لا أتذكر - «إن اليهود إذا فقدوا دينهم فقدوا أنفسهم».

قدَّرت في نفسي أنَّ الأمر في هذا الكتاب لا يعود أن يكون كذلك، ولكن بعض الأصدقاء الحواли أنتزع نفسي من بعض مشاغلي على الأقل لبعض الوقت، وأن أتفرغ لقراءة الكتاب، والتعليق عليه، لأنَّه «خطير» يجب أن يناقش وتفصح أكاديميه وأباضيله، وهكذا استجبت لهم، وخصصت للكتاب وقتاً في جملة أوقاتي، وجعلت النظر فيه من بعض أعمالي.

وعندما قرأت الكتاب لم يتغير حكمي عليه قياساً على نظائره وأمثاله، فهو لا يعود أن يكون تردیداً أميناً لأفكار عصر النهضة الأوروبيَّة عن الدين وعن أسسه، وعن أهدافه ... هذه الأفكار التي أندفع إليها بلا تبصر علماء ذلك الحين تحت وطأة الصراع بينهم وبين الكنيسة في ذلك الحين. والكتاب إنْ تميَّز على أمثاله بشيء فهو يتميَّز بالواقحة الزائدة، وسوء الأدب في التعبير. إنه عمل تافه يتسم بالنزق الفكري، والعاطفية، والفحاجة في كثير من موارده، ولا يخلو عن كثير من الناقصات.

وقد كنت أقرأ الكتاب وأغلق عليه، فأجتمع لي من تعليقاتي عليه هذه الحصيلة التي يراها القاريء، والتي عساه أن يجد فيها ما يجعله يوافقني في أنَّ الكتاب المذكور لا يستحق كُلَّ هذه الضجَّة التي أثيرت حوله وحول كاتبه، فإنه لا يعود - كما قلت - أن يكون كسائر الكتابات من هذا النوع ثمرة دون أن تثال من الدين أي منال، لأنَّ الدين ينبع من فطرة في الإنسان لا تقوى على اقتلاعها

الترهات والأباطيل مهما كسبت ثوب العلم زوراً وبهتاناً، وأسبغَ عَلَيْهَا شَكْلَ الحقيقة كذباً وهزياناً.

وَلَا بَدِلَى - قَبْلَ الدَّخُولِ فِي نَقْدِ الْكِتَابِ - أَنْ أَقْدَمَ بَعْضَ الْمُلَاحَظَاتِ حَوْلَ طِبْيَةِ الْمَوْضُوعِ التَّبْحُوثُ عَنْهُ «الدِّين» وَحَوْلَ مَدْىِ اهْلِيَّةِ الدُّكْتُورِ الْمُؤَلَّفِ لِتَحْمِلِ الْمُهِمَّةِ الَّتِي كَرَسَ كِتَابَهُ لِأَجْلِهَا.

أ- اهليّة المؤلّف:

هَلْ الدُّكْتُورُ مُؤَهَّلٌ لِلْكِتَابَةِ عَنْ نَقْدِ الْفِكْرِ الدِّينِيِّ؟ .
هَذَا أَوَّلُ سُؤَالٍ يُوَاجِهُنَا .

يُفترضُ فِيمَنْ يَكْتُبُ عَنْ شَيْءٍ - نَقْداً أَوْ تَأْيِيداً - أَنْ يَكُونَ مُلْمِلاً يَصُورَةً كَافِيَّةً بِالْمَوْضُوعِ الَّذِي يَكْتُبُ عَنْهُ، وَأَنْ يَكُونَ مُطْلِقاً عَلَيْهِ أَطْلَاعاً تَامًا، وَذَلِكَ لِيَكُونَ مُؤَهَّلاً لِلْحُكْمِ لَهُ أَوْ عَلَيْهِ . فَهَلْ الدُّكْتُورُ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ مِنْ الْمَعْرُوفَةِ الدِّينِيَّةِ؟ .

لَقَدْ ظَهَرَ لِي مِنْ قِرَاءَةِ كِتَابِهِ أَنَّ مَعْرِفَتَهُ الدِّينِيَّةَ بِالْإِسْلَامِ سَادِجَةٌ وَسَطْحِيَّةٌ إِلَى أَبْعَدِ الْحُدُودِ . إِنَّهَا التَّصُورَاتُ الَّتِي أَمْتَصَهَا خَيَالُهُ وَعَقْلُهُ مِنْ مُجَتمِعِهِ وَمِنْ أَهْلِهِ، وَلَيْسَتْ مَعْرِفَةٌ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْمُعَايَنَةِ وَالْدَّارَسَةِ وَالْبَحْثِ .

إِنَّ فِكْرَتَهُ عَنِ الْإِسْلَامِ أَخْذَهَا - لَيْسَ عَنِ مَصَادِرِ الْإِسْلَامِ الْأَسَاسِيَّةِ «الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالسُّنْنَةِ الصَّحِيحَةِ» وَإِنَّمَا أَخْذَهَا عَنِ الْعَجَائِزِ وَأَشْبَاهِ الْعَجَائِزِ وَعَنِ الْجُهَالِ وَأَشْبَاهِ الْجُهَالِ، وَعَنِ الْكِتَابَاتِ الْمُتَأْثِرَةِ بِالْأَفْكَارِ الإِسْرَائِيلِيَّةِ، وَالْقَصَصِ الَّتِي لَمْ تُثْبِتْ إِسْلَامِيَّةً مِنْ مَصَادِرِ الْإِسْلَامِ الصَّحِيحَةِ .

وَسَيَمِرُ عَلَيْنَا خِلَالَ نَقْدِنَا التَّحْلِيلِيَّ لِلْكِتَابِ كُثُرٌ مِنْ الْأَمْثَالِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ

المُؤَلَّف يُنْقُد مَوْضُوعًا لَا يَعْرُفُهُ مَعْرِفَةً كَافِيَّةً. إِنَّهُ يَعْرُفُ الْإِسْلَامَ مَعْرِفَةً مُشَوَّهَةً، وَيُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَ الْإِسْلَامَ مِنْ خِلَالَ مَعْرِفَتِهِ الْمُشَوَّهَةَ - مَوْضُوعًا لِلنَّقْدِ، مُسْتَخْدِمًا فِي ذَلِكَ الْأَرَاءِ الَّتِي أَسْتَعَارَهَا مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَطْلَقُوهَا ضِدَّ الدِّينِ فِي فَتْرَةِ الْصَّرَاعِ بَيْنَ الْكَنِيَّةِ وَمَلُوكِ الْحُكْمِ الْمُطْلَقِ فِي أُورَبَا، تِلْكَ الْأَرَاءِ الَّتِي تَجاوزَهَا الْفِكْرُ وَأَثَبَتَ زَيفَ كَثِيرٍ مِنْهَا، وَفَجَاجَتْهُ، وَإِغْرَاقَهُ فِي الذَّاتِيَّةِ وَالْعَاطِفَيَّةِ.

سَنَرَى أَنَّ الْفَصْلَ الَّذِي عَقَدَهُ الْمُؤَلَّفُ تَحْتَ عَنْوَانَ «الْثَّقَافَةُ الْعِلْمِيَّةُ وَبُؤْسُ الْفِكْرِ الدِّينِيِّ» لَا يَكُشَّفُ عَنْ بُؤْسِ الْفِكْرِ الدِّينِيِّ، وَلَا يَكُشَّفُ عَنْ بُؤْسِ الْفِكْرِ الْعِلْمِيِّ، وَإِنَّمَا يَكُشَّفُ عَنْ الْبُؤْسِ الْفِكْرِيِّ لِلْدَّكْتُورِ الْمُؤَلَّفِ.

ب - وَظِيفَةُ الدِّينِ، مَا هِيَ؟ :

إِنَّ الدِّينَ عَقِيَّدَةً إِلهِيَّةً يَنْبَشِقُ عَنْهَا نَظَامٌ كَامِلٌ لِلْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ. يُقَوِّمُ السُّلُوكُ الْإِنْسَانِيُّ، وَيَرْسِمُ الْمَنَاهِجَ الصَّحِيحةَ لِهَذَا السُّلُوكِ، وَيَرْفَعُ الْكَائِنَ البَشَرِيَّ مِنْ مُسْتَوَى الْحَيَوَانِيَّةِ إِلَى مُسْتَوَى الْإِنْسَانِيَّةِ الْعَالِيَّةِ.

وَلَيْسَتْ وَظِيفَةُ الدِّينِ أَنْ يَقْدِمَ تَفْسِيرًا تَفْصِيلِيًّا لِلْكَوْنِ: كَيْفَ نَشَاءُ؟ وَمَا هِيَ الْأَطْوَارُ الَّتِي مَرَّ فِيهَا؟ وَمَا هِيَ الْعَنَاصِرُ الَّتِي يَتَكَوَّنُ مِنْهَا؟ وَمَا هِيَ التَّفَاعُلَاتُ بَيْنَ هَذِهِ الْعَنَاصِرِ؟ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الْمَسَائِلِ. وَلَيْسَ فِي الْإِسْلَامِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ إِذَا مَا رَجَعْنَا إِلَى الْمَصَادِرِ الْأَسَاسِيَّةِ لِلْإِسْلَامِ.

كُلُّ مَا يَقُولُهُ الدِّينُ فِي هَذَا الْمَجَالِ أَنَّهُ يَرِدُ الْكَوْنَ إِلَى عِلْمَةٍ عَلَيْهَا إِنَّهُ يَعْتَبِرُ «الله» هُوَ السَّبَبُ النَّهَائِيُّ الْأَعْمَقُ وَالْأَعْلَى لِلتَّكَوِينِ «وَيُحَمِّلُ عَلَيْهِ تَسْلِسلُ الْعِللِ وَالْأَسْبَابِ أَنْ يَتَصَادِعَ إِلَى قُوَّةٍ فَوْقَ الطَّبِيعَةِ وَفَوْقَ الْمَادَّةِ» أَمَّا الْمَسَائِلُ الْمُتَقْدَمَةُ

وزَمَالَهَا فَهِيَ مَجَالُ الْعِلْمِ.

وَمَوْقِفُ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ مِنَ الْعِلْمِ يَتَكَوَّنُ مِنْ عَنْصَرَيْنِ :

الأَوَّلُ : التَّشْجِيعُ عَلَى الْبَحْثِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَذَلِكَ بِفَتْحِ الْآفَاقِ أَمَامَ الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ، وَإِزَالَةِ الْمُعَوِّقَاتِ الَّتِي تَعْتَرِضُ طَرِيقَهُ وَتُعَرِّقُ سَيِّرَهُ « حَرَمُ الْإِسْلَامِ السُّحْرُ، وَالشَّعْبَدَةُ، وَالكَهَانَةُ، وَالقِيَافَةُ »^(١) فَالْإِسْلَامُ يُشَجِّعُ، وَلَا يُخَطِّطُ، لَأَنَّ

(١) وَرَدَتْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ فِي مُنَاسِبَاتٍ عِدَّةٍ وَجَهَ اللَّهُ فِيهَا الْإِنْسَانَ إِلَى طَلَبِ الْمَعْرِفَةِ وَالْبَحْثِ فِي الْكَوْنِ الْمَادِيِّ وَالْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْحَيْوَانِيَّةِ وَالْبَاتِلَّيَّةِ الْمُجِيَّبَةِ بِهِ.

وَبِسْمِ اللَّهِ تَعَالَى فِي طَائِفَةِ أُخْرَى مِنَ الْآيَاتِ أَنَّ الْكَوْنَ الْمَادِيَ كُلُّهُ مُسْخَرٌ لِلْإِنْسَانِ لِيَتَشَفَّعَ بِهِ، وَلَا يُمْكِنُ ذَلِكَ بِطَبَيْعَةِ الْحَالِ إِلَّا بَعْدِ أَكْتِشافِهِ، وَأَكْتِشافُ الْقَوْانِينِ الَّتِي تُبَيِّنُ التَّعَالِمَ مَعَهُ.

وَالطَّائِفَةُ الْأُولَى مِنَ الْآيَاتِ هِيَ آيَاتُ التَّفَكُّرِ، مِنْهَا الْآيَاتُ التَّالِيَّةُ :

١ - « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِلَّهِ الْأَلْيَلِ وَالنَّهَارِ لَآيَتٍ لِأُولَئِكَ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قَيْنَمًا وَقَعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ زَبَدًا مَا حَلَقَتْ هَذَا بِطَلَاءً سُبْحَانَكَ فَقَنَا عَذَابَ النَّارِ » آلِ عِمَّارَ : ١٩٠ - ١٩١.

٢ - « أَلَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلُّ يَجْرِي لِأَجْلِ مُسَمَّى يُدَبِّرُ الْأُمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَتِ لَعَلَّكُمْ يَلْقَاءُونَ رَبِّكُمْ تُوقَنُونَ وَهُوَ الَّذِي مَدَ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوْسِيَّا وَأَنْهَرًا وَمِنْ كُلِّ الْثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوْجِينَ أَثْنَيْنِ يُغْشِي الْأَلَيَّلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعَةً مُتَجَوِّرَةً وَجَنَّتْ مِنْ أَغْنَبِ قَرْزَعَ وَنَخِيلَ صِنْوَانَ وَغَيْرَهُ صِنْوَانٌ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنَفْضِيلٍ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَتِ لِقَوْمٍ يَعْقُلُونَ » الرَّعَدُ : ٤ - ٢.

٣ - « وَالآنِعُمْ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءُ وَمَنَفِعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَجِينَ شَرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدِلُمْ تَكُونُوا بِنَلْغِيَهِ إِلَّا بِشَيْقَ أَلْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ وَالْحَيَّلَ وَالْبَيْلَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةٌ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَى اللَّهِ قَضْدُ الْسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَالِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهُدَلَكُمْ أَجْمَعِينَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ ↵

التخطيط ليس من وظيفته وإنما هو وظيفة العقل الباحث، ولأن للعلم قوانيين تطوره الخاصة التي تترجم عن تطور المعرفة، وتتنوع الإكتشافات.

الثاني: إن موقف الدين الإسلامي بالنسبة إلى كشف العلم وانتصاراته موقف مؤيد - وأكرر: بالنسبة إلى العلم، أي إلى ما ثبت باليقين، والحس، والتجربة، فهو يُعترف به، ويُباركه ويُعتبر مظهراً من مظاهر خلافة الإنسان في الأرض. أما

﴿سَيِّمُونَ يُنْمِيُّ لَكُمْ بِهِ الْزَّرْعَ وَالْزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ وَمِنْ كُلِّ الْثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِيَّةٌ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ النحل: ١١ - ٥

٤ - «وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِيَّةٌ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَمِ لَعِبْرَةٌ سُنْقِيْكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا حَالِصًا سَالِغًا لِلشَّرِبِينَ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَبِ تَنْجِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِيَّةٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَيْكُمْ أَنْ أَتَخْذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلُّ مِنْ كُلِّ الْثَّمَرَاتِ فَأَشْلُكُي سُبْلَ رَبِّكَ ذَلِلًا يَخْرُجُ مِنْ مُطْوِنِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ الْوَتْهُ وَفِيهِ شِيقَاءُ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِيَّةٌ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ النحل: ٦٥ - ٦٩.

٥ - «أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٌ مُسْمَى وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يُلْقَى زِيَّهُمْ لِكُفَّارِونَ﴾ الروم: ٨.

٦ - «اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ شَكُّرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِيَّةٌ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الجاثية: ١١ - ١٢.

والطائفة الثانية من الآيات هي آيات التسخير، وقد مر بعضها في آيات التفكير، ومنها مثلاً يتقدّم ذكره الآيات التالية.

١ - «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلُكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقْعُ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ» الحج: ٦٥.

٢ - «أَلَمْ تَرَوْ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ بِنَعْمَهُ وَظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَدِّلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدُىٰ وَلَا كِتْبٌ مُّبِينٌ» لقمان: ٢٠.

الظُّنُون، أَمَّا الْفَرَضِيَّاتُ وَالنَّظَرِيَّاتُ فَلَا قِيمَةُ لَهَا، وَلَا تَشَاءُ مِنَ الدِّينِ الْإِحْتِرَامُ بِوَصْفِهَا عِلْمًا لَأَنَّهَا لَيْسَتْ عِلْمًا، وَإِنَّمَا هِيَ ظُنُونٌ: «إِنَّ الظُّنُونَ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيئًا»^(١).

إِنَّ الْفَرَضِيَّةَ وَالنَّظَرِيَّةَ مُجَرَّدُ «مَشْرُوعٍ» وَلَيْسَتْ حَقِيقَةً نَهَائِيَّةً حَتَّى تُؤْخَذْ مَا خَذَ الْقَبُولُ الْمُطْلَقُ، وَإِلَّا فَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُظْفِي عَلَى الْفَرَضِيَّاتِ قَدَاسَةَ الْحَقِيقَةِ «الْمَعْرِفَةُ الْعِلْمِيَّةُ النَّهَائِيَّةُ الْجَازِيَّةُ» نَكُونُ قَدْ نَقَضْنَا بِذَلِكَ الْمَتْهِجُ الْعِلْمِيُّ الَّذِي - لَا يُجِيزُ لَنَا الْإِيمَانُ إِلَّا بِمَا ثَبَّتَ بِالْيَقِينِ صِحَّتْهُ وَصِدَقَهُ.

* * *

إِنَّ مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ مِنْ جَهْلِ الْمُؤْلَفِ بِمَوْضُوعِ بَحْثِهِ «الَّدِينُ الْإِسْلَامِيُّ» يَكْشُفُ عَنْ نَفْسِهِ بِوَضُوحٍ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَوَارِدِ الَّتِي يَنْسِبُ فِيهَا إِلَى الْإِسْلَامِ أَنَّهُ يُقَدَّمُ «نُصُوصًا مُقدَّسَةً» تُفَسِّرُ الظُّواهِرَ الْكَوْنِيَّةَ، وَهُوَ مُخْطَيٌّ فِي نِسْبَتِهِ ذَلِكَ إِلَى الْإِسْلَامِ.

وَمَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ مِنْ بُؤْسِ الْمُؤْلَفِ الْفِكْرِيِّ يَكْشُفُ عَنْ نَفْسِهِ بِوَضُوحٍ عِنْدَمَا يَفْتَرِضُ فِي الدِّينِ مَوْضُوعًا غَيْرَ مَوْجُودٍ فِي الدِّينِ وَيَنْقُدُ بِفَرَضِيَّةِ مِنَ الْفَرَضِيَّاتِ، وَنَظَرِيَّةِ مِنَ النَّظَرِيَّاتِ الَّتِي لَمْ تَثْبِتْ صِحَّتِهَا، وَلَمْ تَرْتَقِعْ عَنْ دَرَجَةِ «الظُّنُونِ» إِلَى دَرَجَةِ «الْيَقِينِ».

(١) سُورَةُ الْنَّجْمِ : ٢٨.

وَقَدْ وَرَدَتِ الْمُقَابَلَةُ فِي الْقُرْآنِ دَائِعًا بَيْنَ الْعِلْمِ الصَّحِيحِ (الْحَقِيقَةِ) فِي جَمِيعِ الْحَقُولِ أَوْ فِي حَقْلِ بَعْيَنِيهِ، وَبَيْنَ الظُّنُونِ وَالْأَوْهَامِ غَيْرِ الثَّابِتَةِ، وَالَّتِي هِيَ، فِي أَحْسَنِ الْأَحْوَالِ، «مَشَارِيعٍ» تَفْتَرِي إِلَى مَزِيدٍ مِنَ الْبَحْثِ لِإِثْبَاتِهَا أَوْ نَفْيِهَا.

ج - مُنهَجَة الْبَحْث :

تَحْتَ عَنْوَانِ : «الْثَّقَافَةُ الْعِلْمِيَّةُ وَبُؤْسُ الْفِكْرِ الدِّينِيِّ» عَالِجُ الْمُؤَلَّفُ مَوْقِفَ الدِّينِ (الإِسْلَامُ عَلَى الْأَخْصِ) مِنَ الْعِلْمِ، وَمَوْقِفَ الْعِلْمِ مِنَ الدِّينِ فِي أَشْتَهِنَ وَسِتِينَ صَفَحَةً مِنْ كِتَابِهِ .

وَقَدْ أَنْطَلَقَ فِي بَحْثِهِ هَذَا مِنْ فَرْضَيَّةٍ لَمْ يُبَرِّهنْ عَلَى صِحَّتِهَا (وَمَا أَكْثَرَ مَا لَدَيهِ مِنْ فَرْضَيَّاتِ لَا تَزِيدُ عَنْ كَوْنِهَا دَعَاوَى بِلَا بُرْهَانٍ) - أَقُولُ أَنْطَلَقَ مِنْ فَرْضَيَّةٍ لَمْ يُبَرِّهنْ عَلَيْهَا وَهِيَ :

أَنَّ النَّظَرَةَ الْعَصْرِيَّةَ «يُسَمِّيهَا هُوَ عِلْمِيَّةً» حَقَّ بِجَمِيعِ مَا آشَمَلَتْ عَلَيْهِ وَأَدَتْ إِلَيْهِ، وَأَنَّ الْفِكْرَ الدِّينِيَّ بَاطِلٌ كُلُّهُ، أَبْتَداً مِنْ قَضَيَّةِ وجُودِ اللَّهِ إِلَى أَصْغَرَ قَضَيَّةِ دِينِيَّةٍ، وَرَتَبَ عَلَى هَذِهِ الْفَرْضَيَّةِ الْعَارِيَّةِ عَنِ الْبُرْهَانِ أَنَّ عَلَى الْفِكْرِ الْعَصْرِيِّ أَنْ يَنْقُدِ الْفِكْرَ الدِّينِيَّ .

إِنَّ أَبْسَطَ النَّاسَ ثَقَافَةً لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَوَافِقَ الْمُؤَلَّفَ عَلَى هَذَا الْمَوْقِفِ . وَإِلَّا، فَإِذَا كَانَتِ الْمَسَأَلَةُ تَقْوَمُ عَلَى مُجَرَّدِ الْإِفْتَرَاضِ وَالْإِدْعَاءِ فَلَمَّاذَا لَا يَكُونُ الصَّحِيحُ هُوَ الْعَكْسُ، وَهُوَ أَنَّ عَلَى الْفِكْرِ الدِّينِيِّ الصَّحِيحِ الْأَصِيلِ أَنْ يَقُومَ بِنَفْسِ الْمُهَمَّةِ أَتَجَاهَ الْأَفْكَارِ الْعَصْرِيَّةِ الْقَائِمَةِ عَلَى الْهَوَى وَعَلَى سُوءِ الْفَهْمِ لِقَضَائِيَا الدِّينِ وَالْعِلْمِ . أَعْتَقُدُ أَنَّ الْمُؤَلَّفَ أَنْطَلَقَ فِي هَذِهِ الْمَسَأَلَةِ بِسَبَبِ تَشْيِيعِ فِكْرَةِ «بَكَلِيشَاتِ» أَنْصَافِ الْمُتَقْفِينَ عَنِ الْعِلْمِ وَعَنِ التَّفْكِيرِ الْعِلْمِيِّ وَعَنِ قُوَّةِ الْعِلْمِ وَأَنْتِصَارِهِ، دُونَ أَنْ تَكُونَ لِدَيْهِمُ الْقُدْرَةُ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْعِلْمِ وَبَيْنَ الْفَرْضَيَّاتِ وَالنَّظَرَيَّاتِ، أَضْفِ إِلَيْهِ ذَلِكَ مَا ذَكَرْنَاهُ عَنْ ضَحَّالَةِ تَفْكِيرِهِ وَمَعْرِفَتِهِ فِيمَا يَتَّصلُ بِالدِّينِ وَمَصَادِرِهِ الْأَسَاسِيَّةِ وَوَظِيفَتِهِ، فَوَقَعَ فِي هَذَا الْخَطَا الَّذِي أَشْرَنَا إِلَيْهِ .

وَعَلَى أَيْ حَالٍ فَقَدْ أَثَارَ الْمُؤْلِفُ فِي مُقَدَّمَ بَحْثِهِ قَضِيَّةَ الْصَّرَاعَ بَيْنَ الدِّينِ وَالْعِلْمِ، وَعَالَجَ فِي نَهَايَةِ الْبَحْثِ مَسَأَلَةَ وجُودِ اللهِ.

وَأَعْتَقَدُ أَنَّ التَّرْتِيبَ الطَّبِيعِيَّ لِلْبَحْثِ يَقْضِي بِالْعَكْسِ: أَنْ تَبْحَثَ أَوْلَى مَسَأَلَةَ وجُودِ اللهِ، وَبَعْدَ ذَلِكَ تَكُونُ جَمِيعُ الْقَضَايَا ثَانِيَّةً، لِأَنَّ قَضِيَّةَ وجُودِ اللهِ هِيَ أَسَاسُ الْفَكْرِ الدِّينِيِّ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْهَا بِرَأْيِ حَاسِمٍ أَسْتَطَعْنَا أَنْ نُصَفِّي بِقِيَّةَ الْمَسَائِلِ بِسَهْلَةٍ.

الله أَمِّ الْمَادَّةُ؟!

آ - تَمْهِيد

ب - الْعِلْمُ الْأَوَّلُ

ج - اللَّهُ أَمِّ الْمَادَّةُ؟

تَمْهِيد

في الصفحات (٢٥ - ٢٩) عرض المؤلف بأسلوب غير علمي لمسألة وجود الله، وخلقته للكون، وعرض للمسألة أيضاً في الصفحات (٧٤ - ٧٨) عند مناقشته لرأي وليم جيمس. وقد لخص رأيه في المسألة في صفحات (٢٨ - ٢٩) بالنص التالي :

«في الواقع علينا أن نعترف - بكل تواضع - بجهلنا حول كل منا يتعلق بمشكلة المصدر الأول للكون. عندما تقول لي أن الله هو علة وجود المادة الأولى التي يتالف منها الكون، وأسألتك بدوري : وما علة وجود الله. إن أقصى ما تستطيع الإجابة به : «لا أعرف، إلا أن الله موجود غير معلول» ومن جهة أخرى عندما تسائلني : وما علة وجود المادة الأولى؟ فإن أقصى ما تستطيع الإجابة به «لا أعرف، إلا أنها غير معلولة الوجود» في نهاية الأمر أعترف كل منا بجهله حيال المصدر الأول للأشياء. ولكنك أعترفت بذلك بعدي بخطوة واحدة، وأدخلت عناصر غيبية لا لزوم لها لحل المشكلة.

الخلاصة : وإذا قلنا أن المادة الأولى قديمة وغير محدثة، أو أن الله قديم وغير محدث نكون قد أعترفنا بأننا لا نعرف ولن نعرف كيف يمكن الجواب على مشكلة المصدر الأول للأشياء. فالأفضل إذن أن نعترف بجهلنا صراحة ومباشرة

عوضاً عن الإعتراف به بطرق ملتوية.

وهكذا نرى المؤلف يسجل على نفسه بصراحة ووضوح أنه يجهل حقيقة المصدر الأول للأشياء: أهو الله أم المادة؟.

ومع ذلك فهو يصرّح في كل صحفة تقريراً من صفحات كتابه بأنه (المؤلف) مادي، وبأي الحقيقة النهائية هي المادة، ويختتم كتابه بالعبارة التالية: «ومن المؤكد أن المادية الديالكتيكية هي أنجح محاولة لعرفها اليوم في صياغة صورة كونية متكاملة تتناسب هذا العصر وعلومه».

وهكذا يقع المؤلف في التناقض.

إن تبني مفهوم معين للكون يتبع بالضرورة من تبني قرار حاسم بالنسبة إلى العلة الأولى للكون:

إن الإعتراف بالله علة أولى يلزم بتبني المفهوم الإلهي للكون.

والاعتراف بالمادة علة أولى يلزم بتبني المفهوم المادي للكون.

وعدم الجزم بالعلة الأولى للكون - كما يكشف عنه المؤلف في نصه الذي نقلناه - يجعل من المستحيل منطقياً تبني أي من المفهومين - الإلهي أو المادي للكون، إذ لا يكمن بناء نتيجة بدون مقدماتها.

أما أن نُعلق الحكم في مسألة العلة الأولى للكون، لأننا (في زعم المؤلف) نجهلها، ثم نجزم بالمفهوم المادي للكون كما صنع المؤلف فهذا تناقض ومحال يكشف كما قلت وأكرر عن البُؤس الفكري للمؤلف. إن تعليق الحكم في العلة الأولى يقتضينا أن نُعلق أيضاً الحكم في طبيعة مفهومنا عن الكون: مادي هو أم الإلهي؟.

وَيَقُولُ الْمُؤْلَفُ فِي تَنَاقُضِ آخِرِ التَّسْبِيَةِ إِلَى مَسَأَةِ الْعِلْمِ الْأُولَى، فَبَعْدَ أَنْ يُعْتَرِفُ بِصَرَاحَةِ النَّصِّ السَّابِقِ بِأَنَّهُ يَجْهَلُ الْجَوابَ عَنْ مُشْكُلَةِ الْمَصْدَرِ الْأُولَى لِلأَشْيَاءِ، نَرَاهُ فِي صَفَحةِ (٧٨) يُصَرِّحُ بِأَنَّهُ يَعْرِفُ الْمَصْدَرَ الْأُولَى لِلأَشْيَاءِ، وَيَنْفِي وُجُودَ اللَّهِ بِشَكْلِ حَاسِمٍ، وَيُعْبَرُ عَنْ رَأْيِهِ هُنَا بِالنَّصِّ التَّالِي :

«وَأَنَّ الْفِكْرَ الَّذِي لَا يَعْتَقِدُ بِوُجُودِ اللَّهِ أَوْ يُعْلِقُ الْحُكْمَ حَوْلَ الْمَوْضُوعِ بِأَسْرِهِ قَدْ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ تَكُونِيهِ الْعَاطِفِي... إِنَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لِأَنَّ الْقَنَاعَاتِ الْفِكْرِيَّةِ الَّتِي تَشَكَّلَتْ لَدِيهِ عَلَى أُسُسِ عِلْمِيَّةٍ وَاضِحَّةٍ لَا تَسْمَحُ لَهُ بِأَنْ يَعْتَقِدُ بِوُجُودِ اللَّهِ دُونَ أَنْ يَقُولُ فِي تَنَاقُضِ ذَاتِي وَدُونَ أَنْ يُضَحِّي بِوَحْدَةِ تَفْكِيرِهِ وَمَنْطَقِهِ».

نَسَائِلٌ : كَيْفَ عَلَقَ الْحُكْمُ سَابِقًا فِي هَذِهِ الْمَسَأَةِ ، وَكَيْفَ جَزَمَ بِالْعَدَمِ هُنَا ؟ .
إِنَّهُ عَلَقَ الْحُكْمَ سَابِقًا لِأَنَّهُ لَا دَلِيلٌ عَلَى الْوِجُودِ (فِي زَعْمِهِ) وَلَا دَلِيلٌ عَدَمٌ
الْعَدَمِ ، وَمَعَ أَنَّهُ لَمْ يُقْدِمْ أَيْ دَلِيلٌ عَلَى الْعَدَمِ نَرَاهُ جَزَمَ هُنَا بِعَدَمِ وُجُودِ اللَّهِ .

* * *

إِنَّ الْمُصَوَّرَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَلْتَقطَ صُورَةً دَقِيقَةً لِجَسْمٍ مَا يُرِيدُ تَصْوِيرَهُ مَالَمْ يَضْبِطْ - بِدَقَّةِ مُتَنَاهِيَّةٍ - زَوَافِيَّةَ الرُّؤْيَا - بَيْنَ عَدْسَتِهِ وَبَيْنَ الْجِسْمِ الْمُرَادِ تَصْوِيرَهِ ، فَإِذَا مَا أَخْلَى بِهَذَا الشَّرْطِ الْأَسَاسِيِّ حَصَلَ عَلَى صُورَةً مُشوَهَةً ، أَوْ لَمْ يَحْصُلْ عَلَى صُورَةً إِطْلَاقَأً .

وَالْأَمْرُ فِي عَمَلِيَّاتِ الْفِكْرِ يَشْبِهُ هَذَا الْمَثَالِ . فَإِذَا أَرَدْنَا أَكْتِشَافَ حَقِيقَةِ مَا أَوْ الْبَرْهَنَةِ عَلَى فَرَضِيَّةِ مَا فَعَلَيْنَا أَنَّ نُفَكِّرَ فِيهَا مِنْ الزَّاوِيَّةِ الْمُلَائِمَةِ لَهَا ، الْمُتَفَقَّةِ مَعْ طَبِيعَتِهَا - أَمَّا حِينَ نُفَكِّرَ فِيهَا مِنْ زَاوِيَّةِ أُخْرَى ، أَوْ نُطْبِقَ عَلَيْهَا شُروطًا لَا تَتَّفَقُ مَعْ طَبِيعَتِهَا فَإِنَّا نُخْفِقُ فِي مُهْمَتِنَا ، وَيُؤْدِي ذَلِكَ بِنَا فِي النَّهَايَةِ إِلَى الضَّلَالِ وَسُوءِ الْفَهْمِ

كما حدث للمؤلف.

أن الشك في وجود علة نهائية للكون، أو الاعتراف بذلك والشك بأنها الله أو المادة ينتهي لدى رجل الفكر من أحد عاملين: إما عن قصور فكري، وإما عن سوء استخدام للفكر الطريقة الصحيحة. إن ما يبدوا لي هو أن المؤلف قد نظر إلى مسألة وجود الله من غير الرؤاية الصحيحة، فأدى به ذلك إلى الواقع في الخطأ: تعليق الحكم في هذه المسألة، أو الجزم بعدم وجود الله، فله رأيان في المسألة كما رأينا.

إن هذا يكشف عن أن المؤلف يعاني من اهتزاز فكري حيال هذه المسألة. وعلى أي حال فهذه المسألة تبحث على مرحلتين.
 الأولى: هل نحن بحاجة إلى الالتزام بعلة أولى للكون أم لا؟
 الثانية: إذا آمنا بلزم علة أولى للكون، فهل هذه العلة الأولى هي الله كما تقول الفلسفة الإلهية أم المادة كما تقول الفلسفة المادية؟.

مَسْأَلَةُ الْعِلْمِ الْأَوَّلِيِّ

إِنَّ مَبْدَاَ الْعِلْمِيَّةَ (تَوْقِفُ كُلِّ مَوْجُودٍ مُمْكِنٍ عَلَى عِلْمٍ لِوْجُودِهِ) مِن الْبَدِيهَاتِ الَّتِي يُدْرِكُهَا الْعَقْلُ البَشَرِيُّ. إِنَّ الْإِنْسَانَ يَجِدُ فِي صَمِيمِ طَبِيعَتِهِ مَا يَدْفَعُ إِلَيْهِ تَعْلِيلَ الْأَشْيَاءِ وَالظُّواهرِ، وَأَكْتَشَافَ أَسْبَابِهَا. وَقَدْ أَعْتَرَفَ الْمُؤْلِفُ فِي صَفَحَةِ (٢٥) بِأَنَّ النَّظَرِيَّةَ الْعِلْمِيَّةَ لَا تَعْرِفُ بِالخَلْقِ مِنْ لَا شَيْءٍ.

وَكُلِّ مَعْرِفَةِ بَشَرِيَّةِ نَظَرِيَّةٍ أَوْ تَطْبِيقِيَّةٍ تَسْتَوْقِفُ عَلَى التَّسْلِيمِ بِمَبْدَاَ الْعِلْمِيَّةِ وَالْإِذْعَانِ لِقَوْانِينِهِ :

آ - مَبْدَاَ الْعِلْمِيَّةَ «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَبِيبًاً».

ب - قَانُونُ الْحَتَمِيَّةِ «إِنَّ كُلَّ سَبِيبٍ يُولِدُ النَّتْيُوجَةَ الْحَتَمِيَّةَ لَهُ بِصُورَةٍ ضَرُورِيَّةٍ وَلَا يُمْكِنُ لِلنَّتْيَائِجِ أَنْ تَنْفَضُلَ عَنْ أَسْبَابِهَا».

ج - قَانُونُ التَّنَاسُبِ بَيْنَ الْأَسْبَابِ وَالنَّتَائِجِ : «إِنَّ كُلَّ مَجْمُوعَةً مُتَفَقَّةً فِي حَقِيقَتِهَا مِنْ مَجَامِعِ الطَّبِيعَةِ يُلْزِمُ أَنْ تَتَقَوَّلْ أَيْضًاً فِي الْأَسْبَابِ وَالنَّتَائِجِ». وَهَكَذَا يَتَوَقَّفُ عَلَى التَّسْلِيمِ بِمَبْدَاَ الْعِلْمِيَّةِ وَقَوْانِينِهِ :

١ - إِثْبَاتُ الْوَاقِعِ الْمَوْضُوعِيِّ لِلْإِحْسَاسِ فِي التَّجْرِيَةِ الشَّخْصِيَّةِ الْمَادِيَّةِ .

٢ - النَّظَرِيَّاتِ وَالقَوْانِينِ الْعِلْمِيَّةِ الْمُسْتَنْدَةِ إِلَيْهِ التَّجْرِيَةِ .

٣ - جَوَازُ الإِسْتَدْلَالِ وَإِنْتَاجِهِ فِي أَيِّ مَيْدَانٍ مِنْ المَيَادِينِ الْفَلْسَفِيَّةِ أَوِ الْعِلْمِيَّةِ

ولولاً مبدأ العلية لما أمكن إثبات شيء من ذلك.

* * *

وهنا يواجهنا سؤال أساسي:

هل مبدأ العلية قائم على أساس تجربتي أو على أساس فلسفى؟.

الحق أن مبدأ العلية ليس مبدأ يُستند إلى الحس، ولا إلى التجربة وإنما هو مبدأ عقلي ضروري فوق الحس وفوق التجربة.

ليس مبدأ العلية برهاناً حسياً لأن الحس لا يكتسب صفة الحقيقة الموضوعية إلا عن طريق مبدأ العلية، فليست من المعقول أن يكون مبدأ العلية مديناً للحس في ثبوته.

وليس مبدأ العلية نظرية علمية تجريبية، لأن جميع النظريات العلية تتوقف عليه. فإن كل استنتاج علمي قائم على التجربة يواجه المشكلة التالية، وهي: أن التجربة التي يُستند إليها الاستنتاج محدودة بمناذج معينة، فكيف تكون بمجردها دليلاً على نظرية عامة؟ والحل الوحيد لهذه المشكلة في العلية وقوائينها: مبدأ العلية. قانون الحتمية. قانون التاسب.

فإذا افترضنا أن مبدأ العلية نفسه، مرتكز على التجربة فسنواجه مشكلة العموم والشمول من جديد على صعيد مبدأ العلية نفسه، وذلك لأن التجربة ليست مسؤوبة للكون، فكيف تعتبر دليلاً على نظرية عامة، وقد كنا نحل هذه المشكلة في مختلف النظريات العلمية بالإسناد إلى مبدأ العلية، بصفته الدليل الكافي على عموم النتيجة وشموليها، وأما إذا أعتبر نفس هذا المبدأ تجربياً، وواجهنا مسألة العموم والشمول بالنسبة إليه، فسوف نعجز نهائياً عن الجواب عليه.

وإذن، فلابد أن يكون مبدأ العلية فوق التجربة، وقاعدة أساسية للإستنتاجات التجريبية عامة.

وأخيراً، إن مبدأ العلية مبدأ ضروري لا يمكن الإستدلال على رده، وذلك لأن الدليل علة للعلم بالشيء المستدل عليه، وإذن محاولة الإستدلال على رد مبدأ العلية تطوي على الاعتراف بمبدأ العلية وتطييقه.

والخلاصة: أن مبدأ العلية ليس مبدأ حسياً، وليس مبدأ تجريبياً، ولا يمكن نقضه بأي دليل، وإنما هو مبدأ عقلي ضروري فوق الحس والتجربة، وثبتت بصورة متقدمة على جميع الإستدلالات التي يقوم بها الإنسان.

* * *

بعد أن آمنا بمبدأ العلية وقوانيئه، وأنه مبدأ عقلي ضروري، تخضع له جميع الموجودات الممكنة ولا تستغني عنه، نتساءل:

لماذا تحتاج الأشياء إلى علل، ولماذا لا توجد الأشياء بدون علل؟.

وقد أجاب عن ذلك الفيلسوف الإسلامي الكبير (صدر الدين الشيرازي) بما ملخصه: إن علاقة العلية بين العلة والمعلول هي ارتباط بين شيئين، وللارتباط مظاهر متنوعة، ولكنها جمیعاً ترجع إلى نوعين.

أحد هما: أن يكون لكل من الشيئين المرتبط أحدهما الآخر وجود مستقل سابق على حصول الإرتباط: يكون القلم - مثلاً - موجوداً بصورة مستقلة، ويكون الكاتب موجوداً بصورة مستقلة، ثم يحصل الإرتباط بينهما حين يستخدم الإنسان القلم للكتابة. ويكون القماش - مثلاً - موجوداً بصورة مستقلة، ويكون الشخص موجوداً بصورة مستقلة أيضاً، ثم يحصل الإرتباط

بَيْنَهَا حِينَ يَلْبِسُ الشَّخْصُ الْقِمَاشَ ثِيَابًاً، وَهَكَذَا.
 ثَانِيهِمَا: أَنْ لَا يَكُونَ لِأَحَدِ الشَّيْئَيْنِ وَجُودٌ مُسْتَقْلٌ عَنْ وَجُودِ الْآخَرِ وَهَذَا هُوَ
 رِبَاطُ الْعِلْيَةِ، مَثَلًاً (ب) أَرْتِبَاطُ (آ) بِرِبَاطِ الْعِلْيَةِ، فَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ لَا يَكُونُ لِ
 (ب) وَجُودٌ مُسْتَقْلٌ عَنْ وَجُودِ (آ) وَإِنَّمَا حَقِيقَةُ وَجُودِ (ب) عَبَارَةٌ عَنْ أَرْتِبَاطِهِ
 وَعَلَاقَتِهِ بِ(آ) فَلَوْ أَنْقَطَعَ هَذَا الْإِرْتِبَاطُ أَنْقَطَعَ وَجُودُ (ب) بِالضَّرُورَةِ - وَهَذَا
 بِخَلَافِ مَا إِذَا كَانَ الْإِرْتِبَاطُ لَيْسَ عَلَى نَحْوِ الْعِلْيَةِ، فَإِنَّ أَنْقَطَاعَ الْإِرْتِبَاطِ بَيْنَ الْقَلْمَانِ
 وَالْكَاتِبِ لَا يُؤْثِرُ عَلَى الْوِجُودِ الْمُسْتَقْلِ لِكُلِّ مِنْهُمَا، وَإِنَّمَا يَحْتَفِظُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا
 بِوَجُودِ الْمُسْتَقْلِ قَبْلَ الْإِرْتِبَاطِ وَمَعَهُ وَبَعْدَهُ، بَيْنَمَا الْمَعْلُولُ وَجُودُ مُنْبِشِقٍ عَنِ الْعِلْيَةِ
 حَالٌ أَرْتِبَاطِهِ بِهَا أَمَّا قَبْلَ ذَلِكَ فَلَا وَجُودَلَهُ أَبْدًا، وَأَمَّا بَعْدَ أَنْقَطَاعِ الْإِرْتِبَاطِ فَيَنْعَدِمُ
 فَوْرًا.

وَإِذَنْ : فَالْحَقَائِقُ الْخَارِجِيَّةُ لَيْسَتْ فِي الْوَاقِعِ إِلَّا تَعْلُقَاتٌ وَأَرْتِبَاطَاتٌ، فَالْتَّعْلُقُ
 وَالْإِرْتِبَاطُ مُقَوَّمٌ لِكِيَانِهَا وَوَجُودُهَا، وَالسُّرُّ فِي إِحْتِيَاجِهَا إِلَى الْعِلْيَةِ أَنَّ وَجُودَهَا
 وَكِيَانُهَا عَبَارَةٌ عَنِ الْإِرْتِبَاطِ وَالْتَّعْلُقِ بِمَنْبَعِ وَجُودِهَا الْمُبَاشِرِ، وَهُوَ الْعِلْيَةُ.

* * *

إِنَّ مَبْدَأَ الْعِلْيَةِ فِي الْكَوْنِ يَقُوْدُنَا إِلَى قَانُونِ النَّهَايَةِ : «إِنَّ الْعِلْلَةَ الْمُتَصَاعِدَةَ الَّتِي
 يَنْبِشِقُ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ، يَجْبُ أَنْ تَكُونَ لَهَا بَدَائِيَّةً، أَيْ عِلْلَةً أُولَى يَنْبِشِقُ عَنِ عِلْلَةٍ
 سَابِقَةً» .

وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعِلْلَةَ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَصَاعِدَ بِشَكْلٍ لَا نَهَائِيٍّ، فَإِنَّ الْمَوْجُودَاتِ
 الْمَعْلُولَةِ كُلُّهَا أَرْتِبَاطَاتٌ، وَهِيَ تَحْتَاجُ إِلَى حَقِيقَةٍ مُسْتَقْلَةٍ تَسْتَهِي إِلَيْهَا، وَإِلَّا فَإِنَّ
 سُؤَالَ «لِمَاذَا؟» يَبْقَى قَائِمًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى كُلِّ مَوْجُودٍ، وَإِذَنْ، فَإِنَّ عَقْلَنَا يَقُوْدُنَا إِلَى

الإيمان بسبب أول متحرر من مبدأ العلية، مستقل بذاته عن كل شيء، وبذلك لا نواجه بالنسبة إليه سؤال « لماذا؟ ».

* * *

إن خصوص الكون كله لمبدأ العلية وقوانيينه قادنا بصورة حتمية إلى الإيمان بعلة أولى واجبة الوجود بالذات، غير محتاجة إلى علة، ولا يسع الإنسان إلا الأذعان لهذه الضرورة العقلية لأن رفضها يؤدي إلى التسلسل اللأنهائي المستحيل.

الله أَمْ المَادَّة

يَتَأَلَّفُ الْكَوْنُ الْمَتَنْظُورُ مِنْ عَدَدٍ مِنَ الْعَنَاصِرِ الْأَسَاسِيَّةِ بِلَغَ عَدَدَ مَا أَكْشَفَ مِنْهَا حَتَّى الْآنُ عُنْصَرَيْنِ وَمِئَةً عُنْصَرٌ رُّتِبَتْ فِي جَدَولٍ حَسَبَ تَسْلِيلٍ وَزَنَهَا الذَّرِّيِّ. وَيَقْعُدُ الْهَدْرُ وَجُنُونُ فِي أَوَّلِ هَذَا الْجَدَوْلِ لِأَنَّهُ أَخْفَفُ الْعَنَاصِرِ فِي وَزَنِهِ الذَّرِّيِّ، فَهُوَ يَحْتَوِي فِي نَوَّاهِهِ عَلَى شُحْنَةً وَاحِدَةً مُوجَبَةً، يَحْمِلُهَا بُرُوتُونٌ وَاحِدٌ، وَيُحِيطُ بِهَا الْأَكْتَرُونَ وَاحِدَذُو شُحْنَةِ سَالِبَةٍ، وَيَقْعُدُ فِي نَهَايَةِ الْجَدَوْلِ النُّوبِلِيُّوم - فَرَقْمَهُ الذَّرِّيِّ (١٠٢) أَيْ أَنَّ نَوَّاهِهِ تَشْتَمِلُ عَلَى (١٠٢) وَحدَةً مِنْ وَحدَاتِ الشُّحْنَةِ الْمُوجَبَةِ، وَيُحِيطُ بِهَا مَا يُمَاثِلُ هَذَا الْعَدَدَ مِنَ الْأَكْتَرُونَاتِ ذَاتِ الشُّحْنَاتِ السَّالِبَةِ.

فِي حُدُودِ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ الْعِلْمِ الْآنُ هَذِهِ الْعَنَاصِرُ هِيَ الْمَوَادُ الْأَسَاسِيَّةُ الَّتِي يَتَأَلَّفُ مِنْهَا الْكَوْنُ الْمَادِيُّ، وَهَذَا الْحَسْدُ الْهَائِلُ مِنَ الْحَقَائِقِ وَالْأَنْوَاعِ الْمُخْتَلَفَةِ يَرْجِعُ لَدِي التَّحْلِيلِ إِلَى تِلْكَ الْعَنَاصِرِ.

* * *

وَقَدْ أَثَبَتَ الْعِلْمُ التَّجَرْبِيُّ أَنَّ خَصَائِصَ هَذِهِ الْعَنَاصِرِ غَيْرُ نَهَايَةٍ وَغَيْرُ ثَابِتَةٍ، بَلْ يُمْكِنُ تَبَدِّلُ بَعْضُهَا بِيَعْضٍ، وَهَذَا التَّبَدِّلُ بَعْضُهُ يَتَمُّ بِصُورَةِ تَلْقَائِيَّةٍ، وَبَعْضُهُ يُمْكِنُ إِحْدَائِهِ بِالْوَسَائِلِ الْعِلْمِيَّةِ. فَعُنْصُرُ الْيُورَانِيُّوم - مَثَلًاً - يَطْلُقُ أَنْوَاعًا ثَلَاثَةَ مِنَ الْأَشْعَةِ، مِنْهَا أَشْعَةُ (أَلْفَا) وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ ذَرَّاتِ عُنْصُرِ الْهَلِيُّومِ، وَيَتَحَوَّلُ

اليُوازِنِيُوم تَدْرِيْجِيًّا إِلَى رَادِيُوم، وَيَتَحَوَّل الرَّادِيُوم - بَعْد عِدَّة تَحْوِلاتٍ عُنْصُرِيَّة - إِلَى عُنْصُر الرَّصَاص.

وَقَدْ تَمَكَّنَ الْعَالَمُ الطَّبِيعِيُّ (رَذْرُوفُورْد) مِنْ تَحْوِيل عُنْصُرٍ إِلَى عُنْصُرٍ آخَر يَجْعَل ذَرَّاتِ الْهَلِيُومَ تَضْطَدُ بِذَرَّاتِ الْأَزُوتِ، فَنَتَجَتْ ذَرَّةُ هَيْدَرُوجِينَ مِنْ ذَرَّةِ الْأَزُوتِ، وَتَحَوَّلَتْ ذَرَّةُ الْأَزُوتِ إِلَى أُوكْسِيجِينَ.

وَهَكَذَا اغْدَى مِنَ الثَّابِتِ أَنَّ خَصَائِصَ الْعَناصرِ لَيْسَتْ ذَاتِيَّةً لِلْعَناصرِ.

* * *

وَقَدْ أَسْتَطَاعَ الْعِلْمُ التَّجَرِبِيُّ - عَلَى ضَوْءِ نِسْبِيَّةِ آينِشِتِينَ - أَنْ يَنْزَعَ عَنِ الْكُتْلَةِ صِفَتَهَا الْمَادِيَّةِ، وَيُحَوِّلَهَا إِلَى طَاقَةٍ، فَلَمْ يَعُدْ فِي الْكَوْنِ عُنْصَرًا مُّتَمَيِّزًا: أَحَدُهُمَا الْمَادَةُ الْمُحَسَّنَةُ، وَالْآخَرُ الطَّاقَةُ غَيْرُ الْمُحَسَّنَةِ، بَلْ غَدَتِ الْمَادَةُ عَبَارَةً عَنْ طَاقَةِ مُرْكَزةٍ، فَإِنَّ كُتْلَةَ الْجِسمِ نِسْبِيَّةٌ، وَلَيْسَتْ ثَابِتَةٌ، فَهِيَ تَزِيدُ بِزِيادةِ السُّرْعَةِ، كَمَا أَكَدَتِ التَّجَارِبُ الَّتِي أَجْرَاهَا عُلَمَاءُ الْفِيَزِيَّاءُ الذَّرِّيَّةِ. وَلَمَّا كَانَتْ كُتْلَةُ الْجِسمِ تَزَدَّادُ بِإِزْدِيَادِ حَرْكَتِهِ - وَلَيْسَتِ الْحَرْكَةُ إِلَّا مَظْهَرًا مِنْ مَظَاهِرِ الطَّاقَةِ - فَالْكُتْلَةُ الْمُتَزاِدَةُ فِي الْجِسمِ هِيَ إِذْنُ طَاقَتِهِ الْمُتَزاِدَةِ، وَذَلِكَ وَفقًا لِلْمُعَادَلَةِ التَّالِيَّةِ:

$$\text{الطاقة} = \text{كتلة المادة} \times \text{مربع سرعة الضوء}$$
: «١٨٦٠٠٠» ميل في الثانية. كَمَا أَنَّهُ:
$$\text{الكتلة المادة} = \frac{\text{الطاقة}}{\text{تقسيم مربع سرعة الضوء}}$$
.

وَإِذْنُ، فَنَفَسِ صِفَةِ «الْمَادِيَّةِ» صِفَةٌ عَرَضِيَّةٌ، وَلَيْسَتْ ذَاتِيَّةً لِلْمَادَةِ الْمُتَطَوَّرَةِ.

* * *

عَلَى ضَوْءِ الْحَقَائِقِ السَّابِقَةِ:

آ - إِنَّ الْمَادَةَ الْأَصْلِيَّةَ لِلْكَوْنِ الْمَادِيِّ تَرْجَعُ إِلَى حَقِيقَةِ وَاحِدَةٍ مُشَرَّكَةٍ.

ب - إنَّ خَواصَ الْمَرْكَبَاتِ الَّتِي تَشَكُّونَ مِنِ الْعَنَاصِرِ - هَذِهِ الْخَواصُ لَيْسَتْ ذَاتِيَّةً بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَادَةِ الْأُصْلِيَّةِ، وَإِنَّمَا هِيَ عَارِضَةً عَلَيْهَا بِسَبَبِ التَّرْكِيبِ، وَلَيْسَ عَنِ الطَّبِيعَةِ الْأَسَاسِيَّةِ الْمُكَوَّنةِ لِلْمُرْكَبِ.

ج - إنَّ خَواصَ الْعَنَاصِرِ الْبَسيِطَةِ الَّتِي يَتَكَوَّنُ مِنْهَا الْعَالَمُ الْمَادِيُّ أَيْضًا لَيْسَتْ ذَاتِيَّةً لِتِلْكَ الْعَنَاصِرِ وَلَيْسَتْ نَهَائِيَّةً بِدَلَيلٍ تَحُولُ بَعْضُ الْعَنَاصِرِ إِلَى بَعْضٍ آخَرَ كَمَارَأَيْنَا.

د - وَأَخِيرًا إِنَّ صِفَةَ «الْمَادِيَّةِ» لَيْسَتْ ذَاتِيَّةً لِلْمَادَةِ الْمَحْسُوسَةِ، لَأَنَّهَا تَحُولُ - فِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ - إِلَى طَاقَةٍ.

وَإِذَنَ فَلَيْسَتْ لَدَيْنَا «حَقِيقَةً نَهَائِيَّةً» هِيَ الْمَادَةُ. وَلَيْسَتْ لَدَيْنَا حَقِيقَةً نَهَائِيَّةً هِيَ الطَّاقَةُ.

النَّتِيْجَةُ

أَنَّ الْمَادَةَ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ هِيَ الْعِلْلَةُ النَّهَائِيَّةُ لِلْكَوْنِ، لَأَنَّ الْكَوْنَ يَحْتَوِي عَلَى حَشْدٍ هَائِلٍ مِنِ الْمَظَاهِرِ الْمُسْتَوْعَةِ، وَالْأُنْوَاعِ الْمُتَبَايِنَةِ، وَهِيَ تَرْجَعُ بِأَجْمَعِهَا إِلَى حَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ كَمَا رَأَيْنَا. وَلَا يُمْكِنُ لِلْحَقِيقَةِ الْوَاحِدَةِ أَنْ تَخْتَلِفُ أَثْارُهَا وَتَسْتَبَانَ أَفْعَالُهَا، إِذْ لَوْ أَمْكَنَ ذَلِكَ لَأَمْكَنَ أَنْ تَكُونَ الْحَقِيقَةُ الْوَاحِدَةُ مُتَنَاقِضَةً الظَّوَاهِرِ، وَلَكِنَّ هَذَا مُسْتَحِيلٌ لِأَنَّهُ يُؤْدِي إِلَى الْقَضَاءِ عَلَى نَتَائِجِ الْعُلُومِ الْطَّبِيعِيَّةِ جَمِيعًا، لَأَنَّ هَذِهِ الْعُلُومَ قَائِمَةً - كَمَا رَأَيْنَا سَابِقًا - عَلَى أَسَاسِ قَانُونِ التَّشَابُبِ الَّذِي يَقْضِي بِأَنَّ الْحَقِيقَةَ الْوَاحِدَةَ لَهَا آثَارٌ وَاحِدَةٌ وَثَابِتَةٌ لَا تَتَغَيِّرُ؛ فَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ التَّجْرِيَةَ فِي الْعِلْمِ الْطَّبِيعِيِّ لَا تَسْتَأْوِي إِلَّا نَمَادِجَ ضَئِيلَةٍ مِنِ الْمَادَةِ الْمَدْرُوسَةِ، وَتُتَعَمَّمُ نَتَائِجُ التَّجْرِيَةِ

إلى جميع المادة المدروسة بمقتضى قانون التناقض، فلو فرضنا إمكان تناقض ظواهر الحقيقة الواحدة لما أمكن وضع أي قانون علمي عام، وبذلك تنهار العلوم كليّة. وإذن، فهذا الفرض - أن التناقض من خصائص المادة الذاتية - فرض مستحيل. وإذن، من المستحيل أيضاً أن تكون المادة هي العلة النهاية للكون، لأن هذا الفرض يؤدي بنا إلى الإستحالة العقلية كما رأينا، ويصدم حقائق التجربة الواقعية. وإذن، فإذا كانت المادة غير صالحة لأن تكون علة نهاية، فلا بد أن تكون هذه العلة النهاية فوق المادة وفوق الطبيعة.

* * *

هل بقي علينا شيء؟

نعم، بقي علينا أن نناقش - بصورة مباشرة - موقف المازكسيّة من هذه المسألة لنفضح قصورها وعجزها وسطحيتها.

تقول المازكسيّة في تصوير نشوء الكون عن المادة: أن الأشياء تُنتَج عن حركة في المادة، وإن حركة المادة ناشئة ذاتياً عن المادة نفسها لا يحتوainها على التناقض في داخلها، وقيام الصراع بين تلك التناقضات.

ونغض النظر الآن عن بطلان المبدأ الماركسي (مبدأ التناقض) ونناقش هذه المسألة وفقاً لهذا المبدأ لنرى إن كانت المازكسيّة قادرة على تفسير نشوء الكون من المادة وفقاً لمبادئها؟.

لقد أوضح العلم - كما أشرنا - إلى أن العناصر التي يتآلف منها الكون ابتداءً من الهيدورجين وحتى نهاية السلسلة تعود إلى مادة واحدة بسيطة مشتركة بين الجميع (ولنغض النظر عن أن هذه المادة الأساسية عبارة عن طاقة) فنسأل: كيف

وَجَدَتِ الْعَنَاصِرُ اَلْأَسَاسِيَّةَ لِلْكَوْنِ؟ .

سَنَقُولُ - مَعَ الْمَازِكِسِيَّةِ - إِنَّ التَّنَاقِضَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ فِي الْمَادَةِ اَلْأَسَاسِيَّةِ (وَلَا نَعْرِفُ مِنْ أَيْنَ جَاءَتْ هَذِهِ التَّنَاقِضَاتِ فِي الْمَادَةِ اَلْأَسَاسِيَّةِ الْبَيْسِيَّةِ الْمُتَجَانِسَةِ) - إِنَّ التَّنَاقِضَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ وَلَدَتْ أَبْسَطِ الْعَنَاصِرِ (الْهِيدِرُوجِينِ) وَبِالْتَّنَاقِضَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ فِي الْهِيدِرُوجِينِ تَوَلَّدُ عَرْنَصِرُ اَرْقِيِّ مِنْهُ وَأَكْثَرُ تَعْقِيْدًا، وَهُوَ عَنْصِرُ الْهَلِيُّومِ، وَتَسْتَمِرُ التَّنَاقِضَاتِ تَفْعُلُ فِعْلَهَا فِي الْهَلِيُّومِ وَمَا يَتَوَلَّدُ مِنْهُ حَتَّى يَصُلُّ التَّطْوُرُ إِلَى ذَرَوَتِهِ فِي الْعَنْصِرِ الثَّانِي بَعْدِ الْمِئَةِ النَّوْبِلِيُّومِ .

هَذَا هُوَ التَّفْسِيرُ الَّذِي يُقَدِّمُهُ الْدِيَالِكْتِيكُ لِيُفَسِّرَ بِهِ دِيَنَامِيَّةَ الْمَادَةِ .

وَلَكِنْ بُطْلَانُ هَذَا التَّفْسِيرِ يَتَضَعَّحُ حِينَ نُلَاحِظُ أَنَّ الْهِيدِرُوجِينَ لَوْ كَانُ مُشَمَّلًا بِصُورَةِ ذَاتِيَّةٍ عَلَى نَقِيَّصِهِ، وَمُتَطَوِّرًا بِسَبِيلِ ذَلِكَ فَلَمَاذَا لَمْ تَتَكَاملْ جَمِيعُ ذَرَاتِ الْهِيدِرُوجِينَ وَتَتَحُولَ إِلَى هَلِيُّومَ، وَلَمَاذَا تَحُولَ بَعْضُهَا إِلَى عَنْصِرِ الْهَلِيُّومِ وَبَقِيَ الْآخَرُ مُخْتَفِظًا بِخَواصِهِ الْعَنْصُرِيَّةِ بِالرَّغْمِ مِنْ تَنَاقِضَاتِهِ الدَّاخِلِيَّةِ الَّتِي حَوَلَتْ أَجْزَاءَ مِنْهُ إِلَى هَلِيُّومَ .

إِنَّ هَذَا الْمَثَالُ يُمْكِنُ تَطْبِيقَهُ عَلَى جَمِيعِ الْعَنَاصِرِ الْإِثْنَيْنِ وَالْمِئَةِ، وَهُوَ يَكْسِفُ عَنْ بُطْلَانِ التَّفْسِيرِ الْمَارِكِسِيِّ لِدِيَنَامِيَّةِ الْمَادَةِ .

وَكَمَا أَتَضَعَّحُ بُطْلَانُ التَّفْسِيرِ الْمَادِيِّ عَلَى مُسْتَوَى الْعَنَاصِرِ يَتَضَعَّحُ بُطْلَانُهُ بِصُورَةِ جَلِيلَةٍ عَلَى مُسْتَوَى الْمُرَكَّباتِ، وَلَنَأْخُذُ الْمَاءَ مَثَلًا عَلَى ذَلِكَ : الْمَاءُ مُرَكَّبٌ مِنْ أَكْسِيجِينَ وَهِيدِرُوجِينَ وَلَنَفْرُضْ وَفَقًا لِلتَّفْسِيرِ الْمَارِكِسِيِّ أَحَدُ هَذَيْنِ الْعَنْصَرَيْنِ إِثْبَاتًا وَالْآخَرُ نَفِيًّا نَتَجُ عَنْهُمَا مُرَكَّبُ الْمَاءِ .

وَنَسَاءَلُ : إِذَا كَانَ هَذَا التَّفَاعُلُ يَتَمُّ بِصُورَةِ ذَاتِيَّةٍ بَيْنَ عَنْصَرِيِّ الْأَكْسِيجِينِ

والهيدروجين ، فلماذا أختص بقسم معين منها ، وبقيت الأقسام الأخرى متحررة من أسر هذا القانون ، فيوجد أكسجين حر ، ويوجد هيدروجين حر ، ويوجد ماء . إن هذا المثال - ويمكن تطبيقه على كل مركب في الكون - يكشف بوضوح عن بطلان التفسير الماركسي لديناميكية المادة .

* * *

الحقيقة هي أن المادة ليست ديناميكية ، ولنست هي نفسها سبباً ذاتياً لاكتساب خصائصها وتنوعها ، فقد عرفتنا النتائج العلمية أن جميع خصائص المادة عرضية .

- ١ - خصائص المركبات صفات عرضية لها جاءت بسبب تركيب العناصر . فخاصة السيلان في الماء عرضية جاءت من اتحاد عنصره ، وإذا فرزناها ترجع إلى حالتها الغازية وتندفع خاصية السيلان .
 - ٢ - خصائص العناصر نفسها صفات عرضية لها ، فالليورانيوم مثلاً خصائصه من آخر وأنه لأنواعاً أشعته ، فإذا فقدها يتتحول إلى الراديوم الذي يتتحول بدوره - بعد عدة تحولات إلى رصاص .
 - ٣ - خصوصية «المادية» في المادة البسيطة نفسها صفة عرضية لها ، فقد عرفنا أنها تحول إلى طاقة ، وتكون من الطاقة .
- وإذن : فليست المادة ديناميكية بذاتها تولد تفاعلاتها وتنوعاتها وظواهرها بنفسها ، لأن كل ذلك (حتى ماديتها) شيء عرضي لها . وهكذا يظهر بخلافه ووضوح عجز الماركسيه عن تفسير نشوء الكون من المادة ، وتسلط بصورة مزرية فكرة أن المادة هي العلة الأولى .

وَهَكَذَا نَتَهَى بِصُورَةِ حَتَّمِيَّةٍ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ عَلَّةٌ نَهَائِيَّةٌ لِلْكَوْنِ .
 وَيَجِبُ أَنْ نُوضَحَ هُنَا أَنَّ إِيمَانَنَا بِاللَّهِ لَا يَعْنِي أَنَّ الْأَسْبَابَ الطَّبِيعِيَّةَ لَا مَعْنَى لَهَا
 وَلَا أَهْمَيَّةَ لَهَا ، وَإِنَّمَا يَعْنِي أَنَّ التَّنْوُعَ وَالتَّطْوِيرَ الظَّاهِرُ وَالخَلْفِيُّ فِي الْكَوْنِ يَعُودُ إِلَى
 أَسْبَابٍ طَبِيعِيَّةٍ خَارِجِ الْمُحْتَوِيِّ الذَّاتِيِّ لِلْمَادَةِ ، وَهَذِهِ الْأَسْبَابُ تَتَصَاعِدُ مُتَوَلَّةً
 مِنْ بَعْضِهَا حَتَّى تَصُلُّ فِي النَّهَايَةِ إِلَى عَلَّةٍ وَرَاءِ الطَّبِيعَةِ هِيَ اللَّهُ تَعَالَى .

الإِسْلَامُ وَالْعِلْمُ

الإِسْلَامُ وَالْعِلْمُ

يَرَى الْمُؤَلَّفُ فِي صَفْحَةٍ (٢١) :

«أَنَّ الدِّينَ - كَمَا يَدْخُلُ فِي صَمِيمِ حَيَاةِنَا، وَكَمَا يُؤثِّرُ فِي تَكْوِينَنَا الْفِكْرِيِّ وَالنَّفْسِيِّ - يَتَعَارِضُ مَعَ الْعِلْمِ، وَمَعَ الْمَعْرِفَةِ الْعِلْمِيَّةِ قَلْبًا وَقَالْبًا، رُوحًا وَنَصَّا». نُاقَشَ فِيمَا يَلِي الْأَدَلَّةُ الَّتِي سَاقَهَا الْمُؤَلَّفُ عَلَى رَأْيِهِ هَذَا التَّكْشِفُ عَنْ خَطَأِهِ، وَعَنْ جَهْلِهِ بِمَوْضُوعِ نَقْدِهِ (الدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ).

* * *

يُذَكِّرُ الْمُؤَلَّفُ قَارئَهُ بِالصَّرَاعِ الَّذِي حَدَّثَ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالدِّينِ فِي أُورَبَا، وَنَحْنُ نَقُولُ لَهُ: إِنَّ الصَّرَاعَ حَدَّثَ بَيْنَ عُلَمَاءِ عَصْرِ النَّهْضَةِ وَكَنِيسَةِ الْقُرُونِ الْوَسْطَى لِأَسْبَابٍ لَا مَجَالَ لِذِكْرِهَا الْآنُ، وَلَيْسَ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالإِسْلَامِ. وَحَدَّثَ فِي أُورَبَا وَلَيْسَ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ، وَالإِسْلَامُ لَيْسَ مُلْزَمًا بِتَبَرِيرِ مَوَاقِفٍ لَمْ يَتَّخِذَهَا هُوَ فِي مَنَاطِقِ جُغرَافِيَّةٍ لَمْ يَصُلِ إِلَيْهَا، وَفِي مُجَتمِعَاتٍ لَمْ يَطْبَعُهَا بِطَابِعِهِ.

وَمَا يَدَعِيهِ الْمُؤَلَّفُ مِنْ أَنَّ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ مَعْرِكَةً تَدُورُ فِي الْخَفَاءِ بَيْنَ الدِّينِ وَالْعِلْمِ شَيْءٌ لَا نَعْرِفُهُ وَلَا نَحْسَهُ، وَلَا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ وَلَا يَحْسَهُ - نَعَمْ تَدُورُ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ مَعْرِكَةً - ظَاهِرَةً وَلَيْسَتْ خَفِيَّةً - بَيْنَ الإِسْلَامِ وَبَيْنَ الْإِلْحَادِ مُتَمَثِّلًا فِي الْمَازِكَسِيَّةِ وَمُشْتَقَاتِهَا. وَالْمَازِكَسِيَّةُ لَيْسَتْ عِلْمًا: لَيْسَتْ عِلْمًا بَعْدَ أَنْ أَفْتَضَحَ

عجزها عن تفسير تطور الكون، والحياة، والمجتمع، وبعد أن أضطر قادتها إلى تغييرها وتبدلها حتى لم يبق منها في بعض المناطق إلا اسمها، ليست علماً وإنما هي مجموعة من الأخطاء في الفكر أطلق عليها اسم العقيدة. وإن صداقتنا مع المعسكر الشرقي لا تعني تبعيتنا له في عقائده وطريقه التي آتتوضح لمفكرينا وعلمائنا بطلانها. إننا أصدقاء، نعم، ولكن عقيدتنا وجذورنا التأريخية ستبقى هي التي تكون شخصيتنا الحضارية المستقلة. وتدور في العالم الإسلامي معركة بين الإسلام وبين تيار الإنحلال والإباحية الجنسية، والإنهيار الأخلاقي الوارد إلينا من الغرب، وتدور في العالم الإسلامي معركة بين الإسلام وبين الاستعمار بشتى أشكاله وألوانه: العسكريي، والإقتصادي، والفكري، من أي مصدر جاء.

* * *

يرى المؤلف في صفحة (٢٢) :

آ - «ويحوي الدين الإسلامي آراءً ومعتقدات تشكل جزءاً لا يتجرأ منه عن نشوء الكون وتركيبه وطبيعته، عن تاريخ الإنسان وأصله وحياته خلال العصور».

لاأدرى أين وجد المؤلف هذه «الموسوعة الدينية عن الكون» نسوانه، وتركيبيه، وطبيعته. الحق أنَّ الموجود في القرآن والسنة الصحيحة لا يعدُ الأفكار العامة عن نشوء الكون، وأنَّه نشأ بإرادة الله، وعن أصل تكوين هذه السلالة البشرية الموجودة الآن، وهي لا تتنافى مع أية حقيقة علمية قائمة على الإطلاق - كما سنرى.

نعم، ربما يكون المؤلف قد استقرَّ بعض معلوماته الدينية منأشخاص أو

مصادر متأثرة بالإسراطيليات كبعض العجائز المتأثرات كثيرةً بهذا النوع من القصص فيروينها لأطفالهن، كما لا يزال يؤمن كثير من المتعلمين عندنا ببعض الفرضيات «العلمية» التي شاعت في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، والتي تجاوزها العلم منذ عقود من السنين ولكن أفكاراً متعلمنا لا تزال متشبّهة بها بالرغم من الشكوك الكبيرة التي تحيط بأنقاضها الباقية كـ«الداروينية» وـ«المادية الجدلية»، ولا يقوّتنا أن نذكر المؤلف وغيره بأنَّ كثرة أشياء فكرة ماء تعني أنها حقيقة، وأنَّ القوة المادية لا يمكن أن تسبّب صفة الحقيقة على أيّة فكرة، أنَّ الفكرة حينئذ تكون أدلة سياسية، لا حقيقة علمية.

ب - بالنسبة إلى منهج البحث في كلِّ من العالم والدين، قال المؤلف: «إنَّ الإسلام والعلم في هذا الأمر على طرفي تقىض، وبالنسبة للدين الإسلامي (كما بالنسبة لغيره) إنَّ المنهج القوي للوصول إلى مثل هذه المعارف والقناعات هو الرجوع إلى نصوص معيّنة تعتبر مقدّسة أو مُنزلة، أو الرجوع إلى كتابات الحكماء والعلماء الذين درسوا وشرحوا هذه النصوص».

أكَّرَرَ قولي عن المؤلف بأنه لا يعرف الإسلام (موضوع نَقْدَه). أولاً: ليس في الإسلام أفكار تفصيلية حاسمة حول الكون، وطبيعته وتركيبته وتفاعلاته، ومن هنا فليس ثمة موضوع لإتهام المؤلف للإسلام.

ثانياً: إنَّ النصوص الدينية التي تكون مورداً للدراسة والفحص والتعميق فيها هي نصوص الدين، أي ما يتناول العقيدة والشريعة، وليس لأجل اكتشاف أسرار الطبيعة المادية. إنَّ المنهج في استكشاف أسرار الطبيعة المادية هو التجربة وليس دراسة النصوص. إنَّ علماء المسلمين الأعظماء الذين نبغوا في جميع

مجالات العلوم الطبيعية في المغرب والشرق (الخوارزمي، ابن خلدون، ابن سينا، ابن الهيثم، جابر بن حيان، الطوسي وغيرهم، وغيرهم) هؤلاء العلماء الذين بنت أوربا نهضتها على ثمرات بحوثهم العلمية توصلوا إلى نتائجهم العلمية الباهرة لأبدار آلة القرآن والحديث يا دكتور، وإنما باتباع النهج العلمي في البحث والتجربة. إن دور الدين في تكوينهم العلمي هو أنه لهم ود لهم على قداسة هذا النوع من البحث العلمي وعظمته وكون في عقولهم المنهج التجريبي عن طريق الأمر بالبحث والتأمل والنظر في ظواهر الطبيعة وأسرار الإنسان، وذلك كما ورد كثيراً في الحديث وفي الآيات الكونية في القرآن.

لقد كان هؤلاء علماء في الفلك، والطب، والجغرافيا، والكميات، والفيزياء، والإجتماع البشري، وغير ذلك، وكانوا مع ذلك مسلمين صالحين يتلقى المجتمع والدولة على صعيد رجال الدين ورجال الدنيا نتاجهم بالإحترام والتقدير والإعجاب، بل وينفقون الأموال الطائلة عليهم وعلى بحوثهم، وعلى تيسير وسائل البحث العلمي لهم من مكتبات ومستشفيات، ومرافق، وغيرها.

هل سمع الدكتور أن عالماً مسلماً أضطهد لعلمه، لا لكتشاف من إكتشافاته، أو لرأي من آرائه كما حدث في أمينة أخرى؟ لم يحدث هذا أبداً يا دكتور (فلماذا تقيس الدين الإسلامي إلى غيره) عفواً، فما بالي أسألك، والذي يبدو لي من كلامك إنك جاهم بالتأريخ العلمي للمسلمين كجهلك بالدين.

ولأنني تعجبني من أحد المدافعين عن الدكتور (محلق النهار ١٨ / كانوا ١٩٧٠ م) الذي أراد - بدافع من حقده على الإسلام أو جهله به - أن يلحق بالإسلام التهمة العالقة بغيره، فأدعى أن الأمويين قتلوا العلماء القائلين

بِحُرْيَّةِ الْفِكْرِ، وَيَا لَيْتَهُ جَاءَ عَلَى ذَلِكَ بِشَاهِدٍ مِنَ التَّارِيخِ يُثْبِتُ دَعْوَاهُ. نَعَمْ، كَانَ الْأُمُوْرُ يَلْتَزِمُونَ بِمَبْدأَ الْجَبَرِيَّةِ لِغَایَاتِ سِيَاسِيَّةٍ وَلَكِنَ التَّارِيخُ لَا يُحَدِّثُنَا أَنَّهُمْ قَاتَلُوا الْقَائِلِينَ بِحُرْيَّةِ الْإِنْسَانِ. عَلَى أَنَّا لَا نَسْتَطِعُ إِعْتَبَارَ الْأُمُوْرِ مُمْثَلِينَ أُمَّةً لِلْإِسْلَامِ - إِنَّ مَوْضُوعَنَا هُوَ الْإِسْلَامُ كَمَا وَرَدَ فِي مَصَادِرِهِ الْأَسَاسِيَّةِ.

* * *

آ - «مِنَ الْأُمُورِ الْجَوْهِرِيَّةِ الَّتِي يُشَدَّدُ عَلَيْهَا الدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ أَنَّ جَمِيعَ الْحَقَائِقِ الْأَسَاسِيَّةِ الَّتِي تَمَسُّ حَيَّةَ الْإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ قَدْ كَشَفَتْ مَرَّةً وَاحِدَةً فِي نُقطَةٍ مُعَيَّنةٍ وَحَاسِمَةٍ فِي التَّارِيخِ - نُزُولُ الْقُرْآنِ وَرُبَّمَا الْكُتُبُ الْأُخْرَى قَبْلَهُ».

مِنْ أَينْ جَاءَ الْمُؤْلَفُ بِهَذِهِ الْفِكْرَةِ عَنِ الْإِسْلَامِ؟ وَمَنْ قَالَ لَهُ أَنَّ جَمِيعَ الْمَعَارِفِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِحَيَّةِ الْإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا قَدْ أَكْتُشَفَتْ بِنُزُولِ الْقُرْآنِ؟ وَلَمَاذَا أَشْتَغلَ الْمُسْلِمُونَ بِشَتَّى الْعُلُومِ إِذَنَ إِذَا كَانَتْ هَذِهِ هِيَ عَقِيدَتِهِمْ؟ لَا أَسْتَطِعُ إِلَّا أَنْ أُكَرِّرَ أَتَهَامِي لِلْمُؤْلَفِ بِأَنَّهُ جَاهِلٌ بِمَوْضُوعِ نَقْدِهِ بِصُورَةٍ تَبَعَّثُ عَلَى الْأَسْفِ. كَلَّا يَا أَسْتَاذَ هَذِهِ الْخَرَافَةِ الَّتِي ذَكَرَتْهَا لَيْسَتْ مِنَ الْإِسْلَامِ فِي شَيْءٍ. إِنَّ الْمَعْرِفَةَ فِي الْإِسْلَامِ عَمْلِيَّةٌ أَقْتَحَامٌ وَأَكْتِشَافٌ لِلْمَجْهُولِ. قَوْلَهُ تَعَالَى : «مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ»^(١) الَّذِي أَسْتَشَهِدُ بِهِ، لَا يَعْنِي مَيَادِينَ الْعُلُومِ وَالْحَقَائِقِ الْكَوْنِيَّةِ، إِنَّ كَلْمَةَ «شَيْءٍ» فِي الْآيَةِ حِينَ تُوْضَعُ فِي إِطَارَهَا - الدِّينِ - تَعْنِي الْقَوَاعِدِ الْعَامَةِ

المتعلقة بأمور العقيدة والشريعة، ولكن المشكلة إنك لا تعرف الإسلام من مصادره الأساسية.

ب - «أما الدين فبطبيعة عقائده المحددة ثابت ساكن، يعيش في الحقائق الأزلية، وينظر إلى الوراء ليستلهم مهدئه».

إن الدين ثابت في عقائده وتشريعاته، ولكنه يدفع إلى الحركة في الكون، والتقدم في الحياة، وبناء الحضارة، ودليل ذلك تاريخ المسلمين الحضاري حين كان الإسلام يحركهم ويدفع بهم نحو بناء الحضارة وصنع التاريخ. وتلح على ذهني فكرة أن المؤلف أستقر أفكاره هذه من المستشرق (هـ آ). حبيب في كتابه «الاتجاهات الحديثة في الإسلام» فإن هذا المستشرق في بعض فضول كتابه المذكور وجّه إلى الإسلام هذا الاتهام الذي ردّه المؤلف هنا.

ج - «في الواقع أصبح الإسلام الأيديولوجية الرسمية للقوى الرجعية المختلفة في الوطن العربي وخارجها، والمربطة صراحةً ومباشرةً بالإستعمار الجديد».

إن الإسلام ليس حليفاً لأي نظام غير عادل، وإذا كانت بعض الدول «تُظهر» الإسلام كحليف لها في ذلك إلا لأنها سخرت الإسلام لخدمة مآربها، كما تظهر الحكومات الاستراكية الإسلام كحليف لها، والحقيقة هي أن الإسلام مع نفسه فقط. ولا تقوتنا هنا أن نتبه على تنافض من تناقضات المؤلف الكثيرة، فهو في هذا الموضع يتهم الإسلام بأنه حليف الإستعمار والرجعية، ولكنه في صفحة

(٤٥-٥١)، تحت عنوان «التفريق التبريري» يقول أن الإسلام يتخذ سندًا للرجعيّة والإشتراكية، وللديموقراطيات الشعبيّة، وللبيروني. وتسأل المؤلف: هل هذا الموقف تشكّل أثهاماً للإسلام الذي لا ينسجم إلا مع نفسه فقط أو تشكّل أثهاماً بالجهل أو بالتفاق لأولئك الذين يظهرونّه بمثل هذه المظاهر^(١).

ملاحظة: «نذكر المؤلف بأن حكومة ستالين في الاتحاد السوفيتي استعانت بالروح الديني عند المسلمين التابعين لها في الحرب العالمية الثانية».

هذه هي الأدلة التي ساقها المؤلف للتّدليل على أن الإسلام يقف ضد العلم، وقد رأينا مدى تفاهتها، وكشفها عن جهل المؤلف بموضوع تقدّه.

* * *

وقد استطرد المؤلف في صفحة (٢٤-٣٣)، في أفكار يبدُّو أنه أراد أن يعزّز بها أداته الثلاثة، ونحن نستعرضها فيما يلي لبيان زيفها وبطلانها:

آ - «وهناك تشابه بين الدين والعلم في أن كلّيّهما يحاول أن يفسّر الأحداث، وأن يحدّد الأسباب».

هذا خطأ. أن الدين الإسلامي لا يحاول أن يفسّر الظواهر الطبيعية، ولا يحاول أن يجعل نفسه بديلاً عن العلم. أن الدين كما ذكرنا عقيدة وشريعة توجه سلوك الإنسان وحياته، وموضوع العلم هو الطبيعة يكتشفها ويُسخرها للإنسان، ودور الدين في العملية دور الإثارة، والتوجيه وبعث الاهتمام بالطبيعة، ونحو

(١) الجهل من أمّهات الرذائل، وأكثرها خطراً، وكفى بالجهل عيّاً، فتساداً أن الجاهل يعادي ويُعادن ما فيه خيره، وصلاحه دنياً وآخرة، ولا دواء للجاهل إلا أن يتعلم بأنه جاهل، وأنه لا غنى له عن يقوده وبهديه، وأخطر الخطورة أن يرى الجاهل نفسه عالماً، وأن يرى العالم أنه دائمًا على صواب.

أكثناه المعنى الذي يكمن فيها، ومن يلاحظ الآيات الكونية في القرآن يرى الشاهد على ما نقول. وبهذا ينكشف أن كل النتائج التي رتبها المؤلف على مقدمة الساقطة خيال محض من عنده وليس من الإسلام.

ب - «خلق الله هذا الكون في فترة معينة من الزمن بقوله كُن فكان... أما الطبيعة فقد حافظت على سماتها الأساسية منذ أن خلقها الله، أي أنها تحتوي الآن على نفس الأجرام السماوية وأنواع الحيوانات والنباتات التي كانت موجودة فيها منذ اليوم الأول لخلقها، أما النظرية العلمية حول الموضوع ذاته فلا تُعترف بالخلق من لا شيء، ولا تقر بأن الطبيعة كانت منذ البداية كما هي عليه الآن».

أولاً - نكرر أن العقيدة الأساسية في الإسلام هي أن علّ التكوين المتضادة في عالم الطبيعة تنتهي إلى الله، وما ورد في القرآن:

«إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كُن فيكون»^(١).

(١) ورد أمر الخلق (كُن) في القرآن الكريم في سبع سور، في ثمان آيات، هي كما يلي:

١ - «بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ وَكُن فَيَكُونُ» البقرة: ١١٧.

والآية إخبار من الله تعالى عن قدرته المطلقة على الخلق بصيغة (عَابِ).

٢ - «قَالَتْ رَبِّي أَنِّي يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسِسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ وَكُن فَيَكُونُ» آل عمران: ٤٧.

٣ - «إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمثَلِ إِدَمَ خَلَقَهُ وَمِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ وَكُن فَيَكُونُ» آل عمران: ٥٩.

وَغَيْرُهَا مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي وَرَدَ فِيهَا هَذَا التَّعْبِيرُ، لَا تَدْلِي عَلَى أَنَّ الْكَوْنَ خُلُقَ بِصُورَةٍ دَفْعِيَّةٍ عَلَى نَحْوِ مُكْتَمَلٍ، وَإِنَّمَا تَدْلِي عَلَى قُدرَةِ اللَّهِ الْكُلُّيَّةِ الشَّامِلَةِ، بَلْ لِعَلَّهَا عَلَى التَّدْرِيجِ فِي الْخَلْقِ أَكْثَرُ دَلَالَةً بِقَرِينَةِ قَوْلِهِ :

﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾

ثَانِيًّا - أَمَّا أَنَّ الطَّبِيعَةَ وَجَدَتْ بِصُورَةٍ مُكْتَمَلَةَ، وَحَافَظَتْ عَلَى سِمَاتِهَا الْأَسَاسِيَّةِ مُنْذُ أَنْ خَلَقَهَا اللَّهُ .. فَهَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ، وَلَيْسَ فِي الإِسْلَامِ مَا يُشِيرُ إِلَى ذَلِكَ، بَلْ فِي الْقُرْآنِ مَا يَدْلِي صَرَاحَةً عَلَى أَنَّ الطَّبِيعَةَ مَرَّتْ فِي أَدَوَارٍ وَأَطْوَارٍ حَتَّى أَكْتَمَلَتْ فِي صُورَتِهَا الْحَاضِرَةَ، وَعَلَى الْمُؤْلِفِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْقُرْآنِ الصَّحِيحِ لِيُصَحِّحَ رَأْيَهُ .

ثَالِثًا - يَقُولُ الْمُؤْلِفُ أَنَّ النَّظَرِيَّةَ الْعِلْمِيَّةَ لَا تَعْتَرِفُ بِالْخَلْقِ مِنْ لَا شَيْءٍ . وَنَحْنُ

إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فِي مَوْرِدِ خَاصٍ (خَلْقُ آدَمَ وَعِيسَى) عَنْ قُدرَتِهِ الْمُطْلَقَةِ عَلَى الْخَلْقِ .

٤ - «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الْأَصْوَرِ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَدَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَيْرُ» *الأنعام* : ٧٣ .
تَعْلِيمٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

٥ - «إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ» *النَّحْل* : ٤٠ .

إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ قُدرَتِهِ الْمُطْلَقَةِ عَلَى الْخَلْقِ فِي مَقَامِ يَسَانِ قُدرَتِهِ الْمُطْلَقَةِ عَلَى بَعْثِ الْأَمْرَاتِ .

٦ - «مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَخَذَ مِنْ وَلِيٍّ سُبْحَانَهُ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ» *مَرْيَم* : ٢٥ .

إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِصِيغَةِ الْغَائِبِ عَنْ قُدرَتِهِ الْمُطْلَقَةِ عَلَى الْخَلْقِ فِي مَقَامِ بُطْلَانِ قَوْلِ النَّصَارَى فِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمِ أَنَّهُ أَبِنُ اللَّهِ .

٧ - «إِنَّمَا أَمْرُهُ وَإِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ» *يَس* : ٨٢ .

تَعْلِيمٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْإِحْتِجاجِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِشَأنِ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَبَعْثِهِمْ .

٨ - «هُوَ الَّذِي يُخِيِّرُ وَيُمْبِيْتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ» *غَافِر* : ٦٨ .

تَعْلِيمٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَوَاجِهَةِ الْمُشْرِكِينَ .

نَسَأْلُ الْمُؤْلِفَ : إِذَا كَانَتِ الْعُلُومُ تَرْفَضُ الْخَلْقَ مِنْ لَا شَيْءٍ ، فَكَيْفَ وَجَدَ الْكَوْنَ إِذَنَ ؟ وَمِنْ أَينَ وَجَدَ ؟ وَهَذَا الشَّيْءُ الَّذِي وَجَدَ مِنْهُ الْكَوْنَ مَنْ أَوْجَدَهُ ؟ لَقَدْ رَأَيْنَا فِي مَطْلَعِ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ الَّذِي أَوْجَدَهُ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى .

رَابِعًاً - تَعَرَّضَ لِذِكْرِ خَلْقِ آدَمَ ، وَالْجَنَّةَ وَالْطَّرَدِ مِنْهَا ، وَنُرْجِيَ الْحَدِيثُ عَنْ ذَلِكَ إِلَى مَوْعِدَنَا مَعَهُ فِي مَكَانٍ آخَرَ مِنْ كِتَابِهِ تَعَرَّضَ فِيهِ لِهَذِهِ الْمَسَائِلِ .

خَامِسًاً - بَعْدَ كُلِّ مَا ذَكَرْنَا فَمَا هِيَ قِيمَةُ مَا نَقَلَهُ الْمُؤْلِفُ عَنْ «رُسُلٍ» وَهَلْ هُوَ إِلَّا تَهْرِيجٌ فِي وَجْهِ الْمَنْطَقِ وَالْحَقِيقَةِ .

سَادِسًاً - فِي صَفَحَةِ (٢٩ - ٣١) تَحَدَّثُ الْمُؤْلِفُ عَنِ التَّوْتُرِ الَّذِي يُعَانِي مِنْهُ الْمُشَفَّفُ الْحَدِيثُ بِسَبَبِ التَّعَارُضِ الْقَائِمِ بَيْنَ ثَقَافَتِهِ الْعِلْمِيَّةِ وَبَيْنَ تُرَاثَهُ الْدِينِيِّ - إِنَّ هَذَا التَّوْتُرَ يَا دُكْتُورَ لَيْسَ نَاشِئًا مِنْ تَعَارُضِ حَقِيقَيِّ بَيْنِ الْعِلْمِ وَبَيْنِ الإِسْلَامِ ، وَإِنَّمَا هُوَ نَاشِئٌ مِنْ أَنَّ كَثِيرًا مِمَّا تُسَمُّونَهُ «عِلْمًا» لَيْسَ إِلَّا أَفَتَراضاً لَمْ تَأْكُدْ صِحَّتَهَا ، أَوْ ثَبَّتْ بُطْلَانَهَا ، وَأَنَّ الدِّينَ كَمَا تَفْهُمُونَهُ لَيْسَ مُسْتَنْدًا عَلَى مَصَادِرِهِ الْأَسَاسِيَّةِ ، وَإِنَّمَا عَلَى الْأَبَاطِيلِ الَّتِي أَصْقَتَ بِهِ عَلَى مَدْى الْقُرُونِ مِنِ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ وَغَيْرِهَا .

الْعِلْمُ ، الْعِلْمُ الْحَقِيقِيُّ وَالدِّينُ الصَّافِيُّ لَا يَتَعَارَضُانِ وَإِنَّمَا يَتَكَامِلَانِ فِي شَشَةِ إِنْسَانٍ وَتَقدِّمهِ .

فَلْقُ الْأَنْسَانِ

خَلْقُ الْإِنْسَان

المُعْتَقَدُ الْإِسْلَامِيُّ الْأَسَاسِيُّ الَّذِي هُوَ مِنْ ضَرُورَيَاتِ الدِّينِ هُوَ أَنَّ الْإِنْسَانَ
وَكُلَّ شَيْءٍ فِي الْكَوْنِ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أَمَّا تَفَاصِيلُ كَيْفِيَّةِ الْخَلْقِ وَأَبْتِدَائِهَا فَلَيْسَ فِيهَا نَصٌّ صَرِيحٌ قَاطِعٌ غَيْرُ قَابِلٍ
لِلتَّأْوِيلِ. وَكَيْفِيَّةُ الْخَلْقِ وَأَبْتِدَائِهَا لَيْسَتِ مِنْ أَصُولِ الدِّينِ الَّتِي يَتَحَمَّلُ الْإِعْتِقادُ
بِتَفَاصِيلِهَا وَمُمْيِزَاتِهَا، بَلْ يَتَقَبَّلُهَا الْمُسْلِمُ كَمَا جَاءَتْ بِهِ ظَواهرُ الْكِتَابِ وَالسُّنْنَةِ
الصَّحِيحَيَّةِ وَمَا لَا يَتَنَافَى مَعَ الْمُسْلِمَاتِ الْعِلْمِيَّةِ الْيَقِينِيَّةِ.

بَعْدَ هَذَا التَّمَهِيدِ نَوَاجِهُ ثَلَاثَ مَسَائلٍ :

الْأُولَى - وَجُودُ الْإِنْسَانَ عَلَى الْأَرْضِ هَلْ أَبْتَدَأَ بِالسَّلَالَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْمَوْجُودَةِ
الآنُ، أَوْ سَبَقَتْهَا سَلَالَاتٌ أُخْرَى غَيْرُهَا أَنْقَرَضَتْ وَبَادَتْ؟.

الثَّانِيَةُ - نَشَأَ السَّلَالَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ الْمَوْجُودَةُ الآنُ.

الثَّالِثَةُ - الدَّارَوِينِيَّةُ فِي عِلْمِ الْأَحْيَاءِ.

* * *

لَمْ يَتَعَرَّضْ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِصَرَاحَةٍ وَوْضُوحٍ لِبَيَانِ أَنَّ هَذِهِ السَّلَالَةَ الْبَشَرِيَّةَ
الْمَوْجُودَةَ الآنُ هِيَ السَّلَالَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي ظَهَرَتْ عَلَى الْأَرْضِ، أَوْ أَنَّ ثَمَّةَ سَلَالَاتٍ
بَشَرِيَّةٍ أُخْرَى ظَهَرَتْ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ، وَعَاشَتْ ثُمَّ أَنْقَرَضَتْ، ثُمَّ تَكَرَّرَ ظَهُورُ

السّلالات البشريّة وانقراضها، ونسلنا البشري الحاضر هو آخر هذه السّلالات. قُلْتُ : إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَتَعَرَّضْ بِصَرَاحَةٍ وَوضُوْحٍ لِبَيَانِ هَذِهِ النُّقطَةِ ، وَإِنْ كَانَ التَّحْلِيلُ الدَّقِيقُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيُسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسْتَخِبُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ »^(١). أَقُولُ : أَنَّ التَّحْلِيلَ لِهَذِهِ الْآيَةِ رُبَّمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ سَلَالَةَ إِنْسَانِيَّةَ سَابِقَةَ عَلَى هَذِهِ السّلالَةِ ، وَجَدَتْ عَلَى ظَهَرِ الْأَرْضِ ، وَعَاشَتْ ، ثُمَّ أَنْقَرَضَتْ ، وَلَيْسَ هُنَّا مَجَالٌ أَسْتَعْرَاضُ تَحْلِيلَ الْآيَةِ الْمَذُكُورَةِ .

نَعَمْ ، فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ الْوَارَدَةِ عَنْ طَرِيقِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَنْ طَرِيقِ غَيْرِهِمْ مَا يَدْلِلُ بِصَرَاحَةٍ وَوضُوْحٍ عَلَى أَنَّ السّلالَةَ الْبَشَرِيَّةَ الْمَوْجُودَةَ الْآنَ لَيْسَتْ هِيَ الْوَحِيدَةِ الَّتِي وَجَدَتْ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ مِنَ النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ ، وَإِنَّمَا سَبَقَتْهَا سَلالَاتٌ كَثِيرَةٌ أَنْقَرَضَتْ قَبْلَ وُجُودِهَا :

آ - رُوِيَ عَنِ الْإِمَامِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قَالَ : « لَعَلَّكَ تَرَى أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْ بَشَرًا غَيْرَكُمْ ؟ بَلْنِي وَاللهُ . لَقَدْ خَلَقَ أَلْفَ أَلْفَ آدَمَ أَنْتُمْ فِي آخِرِ أُولَئِكَ الْأَدَمِيِّينَ »^(٢) .

ب - ذَكَرَ الشَّعَرَانِيُّ فِي كِتَابِهِ : عَنْ مُحَمَّدِ الدِّينِ بْنِ عَرَبِيِّ حَدِيثًا رَوَاهُ عَنْ أَبِنِ عَبَّاسِ عَنْ رَسُولِ اللهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ : « أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ مِئَتَيْ أَلْفِ آدَمَ »^(٣) .

ج - وَعَنِ الْإِمَامِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « لَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ مُنْذُ خَلْقِهَا سَبْعَةَ عَالَمَيْنِ

(١) الْبَقَرَةُ : ٢٠.

(٢) أَنْظُرْ ، الْخِصَالُ : ٦٥٢ ح ٥٣ . تَوْجِيدُ الصَّدُوقِ : ٢٧٧ ، بَحَارُ الْأَنْوَارِ : ٢٥/٢٥ ح ٤٥ .

(٣) أَنْظُرْ ، الْيَوْاقِيتُ وَالْجَوَاهِرُ : ١/٤٩ .

لَيْسُ هُم مِنْ وُلْدِ آدَمَ، خَلَقُوهُمْ أَذْيَمُ الْأَرْضِ، فَأَسْكَنُهُمْ فِيهَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدًا مَعَ عَالَمَهُ، ثُمَّ خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ أَبَا الْبَشَرِ، وَخَلَقَ ذَرْيَتَهُ مِنْهُ»^(١).

هَذِهِ نَمَادِجٌ مِنَ النُّصُوصِ الَّتِي تَدْلِي بِصَرَاحَةٍ عَلَى تَقْدِيمِ سَلَالَاتِ بَشَرِيَّةٍ، غَيْرُ السَّلَالَةِ الْحَالِيَّةِ، فِي سُكُونِهِ الْحَالِيَّةِ، وَأَنْفَرَاضِهَا قَبْلَ ظُهُورِهِ الْحَالِيَّةِ.

وَلَمْ يَتَّحْ لَنَا الْوَقْتُ لِدِرَاسَةِ هَذِهِ النُّصُوصِ مِنْ حَيْثِ السَّنَدِ وَالشَّكْلِ وَالْمَضْمُونِ وَتَحْلِيلِ دَلَائِلِهَا، وَنَرْجُو أَنْ تُتَّسَّحَ لَنَا الفُرْصَةُ لِذَلِكَ.

* * *

إِنَّ ظَواهِرَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ تَدْلِي أَنَّ السَّلَالَةَ الْبَشَرِيَّةَ الْمَوْجُودَةَ الْآنَ تَسْتَهِي إِلَى آدَمَ وَحَوَاءَ «لَمْ يَرِدْ فِي الْقُرْآنِ! أَسْمَ حَوَاءَ». وَنَحْنُ هُنَّا أَمَامَ أَزْبَعِ الْأَحْتَمَالَاتِ.

١ - آدَمَ رَمْزٌ لِلنَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ كُلِّهِ.

٢ - آدَمَ عَدَدٌ مِنْ أَفْرَادِ النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ نَظَرًا لِالتَّعْدُدِ الْأَوَانِ الْبَشَرِيِّ وَرُسُومِهِمْ.

٣ - آدَمَ فَرْدٌ إِنْسَانِيُّ وَاحِدٌ. وَهَذَا يَنْطُويُ عَلَى أَحْتَمَالَيْنِ:

آ - إِنْسَانٌ كَامِلٌ تَطَوُّرٌ مِنْ نَوْعٍ حَيَوَانِيٍّ آخَرَ كَالْقَرْدَةِ الْعُلَيَا مَثَلًاً.

ب - إِنْسَانٌ كَامِلٌ عَقْلَيًا تَوْلَدَ مِنْ زَوْجٍ إِنْسَانِيٍّ غَيْرِ مُتَكَامِلٍ عَقْلَيًا وَهَذَا بِدَوْرِهِ تَطَوُّرٌ مِنْ زَوْجٍ أَحَاطَ مِنْهُ عَقْلَيًا، وَهَذَا بِدَوْرِهِ لِزَوْجٍ أَدْنَى مِنْهُ... وَهَكَذَا حَتَّى

(١) أَنْظُرْ، الْخِصَالُ: ٤٥ ح ٢٥٩، بَخارِ الْأَنْوَارِ: ٨/٣٧٤ ح ١.

تُشهي السلسلة إلى أبسط أنواع الحياة.

٤ - أنَّ آدَمَ وَزَوْجَهُ هُمَا الْأَبُوَانِ الْأَوَّلَانِ لِهَذِهِ السَّلَالَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَهُمَا لَمْ يَتَكَوَّنَا بِالتَّنَاسُلِ، وَإِنَّمَا خُلِقَا مِنَ الْأَرْضِ.

هَذِهِ هِيَ الصُّورَةُ الْمُخْتَمَلَةُ لِمَسَالَةِ الْمَخْلُوقِ الْأَوَّلِ، وَإِبْتَدَاءُ خَلْقِ النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ - هَذِهِ السَّلَالَةُ الْمَوْجُودَةُ الْآنُ بِخَصُوصِهَا، أَوْ جَمِيعِ السَّلَالَاتِ السَّابِقَةِ أَيْضًاً - وَأَكْرَرَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ ضَرُورِيَّاتِ الدِّينِ الْإِعْتِقَادِ بِتَفاصِيلِ مَسَالَةِ كَيْفِيَّةِ الْخَلْقِ الْأَوَّلِ، مَا دَامَ الْإِعْتِقَادُ الْمُضْرُورِيُّ الْأَسَاسِيُّ مَوْجُودًا، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، الْإِنْسَانَ وَغَيْرَهُ.

إِلَّا أَنَّا حِينَ نَعُودُ إِلَى الْفُرُوضِ الْمُتَقْدَمَةِ لِفَحْصِهَا نَجِدُ أَنَّ ظَواهِرَ الْقُرْآنِ تَدَلُّ عَلَى الْفَرْضِ الرَّابِعِ، وَتَدْفَعُ بِظَاهِرِهَا الْفُرُوضَ الْأُخْرَى - وَلَا مَجَالٌ فِي هَذِهِ الْعُجَالَةِ لِتَحْلِيلِ ذَلِكَ، نَعْمَ نَتَوَقَّفُ عِنْدَ الْفَرْضِ الثَّالِثِ، لِأَنَّهُ الْفَرْضُ الْمَقْبُولُ إِجمَالًا فِي أَذْهَانِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُتَأثِّرِينَ بِالْدَّارْوِينِيَّةِ، وَذَلِكَ لِنَبْحَثَ مَدِيَّ صَحَّةِ نَظْرِيَّةِ دَارْوِنِ الْأَحْيَائَةِ.

* * *

مُلَخصُ نَظَرِ دَارْوِنِ فِي عِلْمِ الْأَحْيَاءِ :

إِنَّ الْأَنَواعَ الْحَيَّةَ بِمَا فِيهَا الْإِنْسَانُ تَرْجَعُ إِلَى كَائِنٍ وَحِيدِ الْخَلْيَّةِ. حَدَثَتْ فِي دَاخِلِ هَذَا الْكَائِنِ تَغَيِّرَاتٌ نَوْعِيَّةٌ بِشَكْلِ طَفَرَاتٍ أَوْ جَبَتْ أَنْقَسَامَهُ إِلَى أَنَواعٍ بَعْدَ أَنْ كَانَ وَحِيدِ النَّوْعِ. وَهَذِهِ الطَّفَرَاتُ لَا تَتَمَمُ بِتَوْجِيهٍ وَقَصْدٍ، وَإِنَّمَا تَتَمَمُ صِدْفَةً يَحْصُلُ صِرَاعٌ - وِفقًا لِقَانُونِ تَبَارُعِ الْبَقَاءِ - بَيْنَ الْأَنَواعِ الَّتِي زَوَّدَتْهَا الطَّفَرَةُ الصِّدْفَةَ بِكَفَاءَاتٍ نَوْعِيَّةٌ جَدِيدَةٌ، وَبَيْنَ تِلْكَ الَّتِي لَمْ تَحْظَ بِذَلِكَ، وَبِحُكْمِ قَانُونِ بَقَاءِ

الأَصلح تُبِدِّي هَذِهِ الْأَنواعَ أَمَامَ الْأَنواعِ المُزَوَّدةِ بِالطُّفَرَاتِ^(١). وَهَذِهِ التَّغْيِيراتُ الْمُكْسَبَةُ بِالطُّفَرَاتِ الصِّدْفَةُ لَا بُدَّ مِنْ أَفْتَرَاضِ أَنَّهَا قَابِلَةُ لِلتَّوْرِيثِ إِلَى الْأَعْقَابِ، وَهَكَذَا يَنْشَا جَيلَ جَدِيدٍ وَرَثَ الْخَصَائِصَ النَّوْعِيَّةَ الْمُمِيَّزةَ عَنْ أَسْلَافِهِ. وَتَسْتَمِرُ الطُّفَرَاتُ فِي الْعَدُوْثِ صِدْفَةً وَيَسْتَمِرُ قَانُونُ الْوَرَاثَةِ فِي عَمَلِهِ. وَيَسْتَمِرُ قَانُونًا تُنَازِعُ الْبَقَاءَ وَبَقَاءَ الْأَصْلَحِ فِي عَمَلِهِمَا وَتَسْتَمِرُ التَّطَوُّرَاتُ مِنْ خِلَالِ ذَلِكَ، حَتَّى يَصِلَّ بِنَا الْمَطَافُ إِلَى الْأَنواعِ الْحَيَّةِ السَّائِدَةِ الْآنُ، وَمِنْ بَيْنِهَا إِلَيْنَا إِنْسَانٌ، قَمَةُ هَذِهِ الْعَمَلِيَّةِ التَّطَوُّرِيَّةِ.

هَذَا مُلْخِصُ لِنَظَرِيَّةِ دَارُونِ فِي أَكْمَلِ صُورِهَا، بَعْدَ كَثِيرٍ مِنِ الْإِصْلَاحَاتِ الَّتِي أَضَافَهَا خُلَفَاءُ دَارُونِ إِلَيْهَا. فَهَلْ هِيَ عِلْمٌ يَقِينِي تُمَاثِلُ أَنَّ $2 + 2 = 4$? كَلَّا، إِنَّهَا فِي غَالِبِهَا ظُنُونٌ وَاحْتِمَالَاتٌ وَفَرَضِيَّاتٌ صُنِّفتُ لِأَجْلِ تَكُونِ صُورَةً عَنْ عَمَلِيَّةِ التَّطَوُّرِ الَّتِي لَا شَكَّ فِيهَا إِجْمَالًا. وَالَّتِي لَا تَخْتَصُ بِالْأَنواعِ الْحَيَّةِ وَحْدَهَا وَإِنَّمَا تَشْمِلُ الْجَمَادَ وَالنَّبَاتَ وَالحَيْوانَ. فَعَلَيْنَا أَنْ نُمَيِّزَ بَيْنَ أَصْلِ مَسَأَلَةِ التَّطَوُّرِ وَهِيَ قَضِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِجْمَالًا وَبَيْنَ تَفَاصِيلِهَا كَمَا شَرَحَهَا دَارُونُ وَخُلَفَاؤُهُ وَهِيَ لَا تَعْدُ أَنْ تَكُونُ مَجْمُوعَةً مِنِ الظُّنُونِ وَالْإِحْتِمَالَاتِ، وَلَا تَرْقَى إِلَى مَرْتَبَةِ الْعِلْمِ وَالْيَقِينِ.

(١) قَالَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (الشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ دَائِبَانِ فِي مَرْضَاهِهِ) أَيْ مُسْتَمِرَانِ فِي تَحْقِيقِ الْفَائِدَةِ مِنْهُمَا، وَثَابَتَانِ عَلَى قَوَاعِدِنِي، وَخَصَائِصُ لَا تَتَغَيِّرُ، وَلَوْلَا هَذَا الْإِطْرَادُ، وَالْإِسْتِمَارُ فِي جَمِيعِ الْكَائِنَاتِ مَا ثَبَتَ شَيْءٌ فِي مَيْدَانِ الْعِلْمِ، وَبِكُلِّمَةٍ أَصْحَى مَا كَانَ لِلْعِلْمِ عِنْهُ، وَلَا أَثْرٌ... وَنَسَالُ: مِنْ أَيْنَ جَاءَتْ هَذِهِ الْقَوَاعِدُ، وَالْخَصَائِصُ، مِنِ الْطَّبِيعَةِ الْعَمِيَّةِ، أَوْ مِنِ الصِّدْفَةِ؟

وَقَالَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (يُبَلِّيَانِ كُلُّ جَدِيدٍ، وَيُقْرَبَانِ كُلُّ بَعِيدٍ) بِمُرُورِ الْأَيَّامِ، وَالسَّيِّدُونَ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ فِي وَصِيَّتِهِ لِوَلَدِهِ الْإِمَامِ الْحَسَنِ: «مَنْ كَانَتْ مَطْيَّبَةُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارِ؛ فَإِنَّهُ يُسَارِّهُ، وَإِنْ كَانَ وَاقِفًا». أَنْظُرْ، خُطْبَ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ: ٣١/٥٠، جُزْءٌ مِنْ وَصِيَّتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لِلْإِمَامِ الْحَسَنِ، وَالْحُسَيْنِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، تَحْتَ رَقْمِ (٣١).

وَالْمُنَاقِشَاتُ الَّتِي تَدُورُ حَوْلَ النَّظَرِيَّةِ تَكْشِفُ عَنْ ضَعْفَهَا، وَعَدْمِ تَمَاسِكِهَا: أَوَّلًا: لِمَاذَا تَحْدُثُ الطَّفْرَة؟ يُجِيبُ الدَّارُوينِيُّونَ: أَنَّهَا تَحْدُثُ صِدْفَةً. وَلَكِنَّ هَذَا التَّعْلِيلُ غَيْرُ مُقْنَعٍ. إِنَّ الطَّفْرَةَ ظَاهِرَةٌ طَبِيعِيَّةٌ لَا يَبْدُلُهَا مِنْ أَشْبَابِ، فَمَا هِيَ أَسْبَابُهَا؟ لَا نَدْرِي !!، إِذَنَ تَعْلِيلُنَا لِلتَّغْيِيرِ النَّوْعِيِّ الَّذِي يَحْدُثُ بِأَنَّهُ طَفْرَةَ حَدَثَتْ صِدْفَةً، لَا يَعْنِي أَكْثَرُ مِنْ أَنَّنَا نَجْهَلُ سَبَبَ التَّغْيِيرِ النَّوْعِيِّ. وَإِلَّا فَإِذَا كَانَتْ الصِّدْفَةُ وَحْدَهَا كَافِيَّةً - عِلْمِيًّا - لِتَفْسِيرِ التَّنْوُعِ الْحَيَوَانِيِّ فَلِمَاذَا لَا نُفَسِّرُ الظَّواهرَ الْطَّبِيعِيَّةَ الْأُخْرَى بِالصِّدْفَةِ أَيْضًا؟ وَإِذَا كَانَ التَّعْلِيلُ بِالصِّدْفَةِ يَكْفِي عِلْمِيًّا فَلِمَاذَا تَرْفُضُ فِكْرَةً أَنَّ السُّلَالَةَ الْبَشَرِيَّةَ الْمَوْجُودَةَ الْآنَ تَتَسَلَّتْ مِنْ أَبْوَيْنِ وَجَدَّا صِدْفَةً، وَلَمْ يَتَسَلَّلَا مِنْ نُوعٍ آخَرَ؟.

الْحَقِيقَةُ أَنَّ التَّمْسِكَ بِالصِّدْفَةِ لَا يَعْنِي شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ أَنَّنَا نَجْهَلُ السَّبَبِ فِي حَدُوثِ التَّنْوُعِ الْحَيَوَانِيِّ. وَهَكَذَا تَخْتَفِي السُّمَةُ الْعِلْمِيَّةُ مِنَ النَّظَرِيَّةِ لِتَعُودُ بِالْأَلْفَاظِ الَّتِي تُخْفِي عَجْزَهَا عَنِ الْبَيَانِ الْعِلْمِيِّ الْمُقْنَعِ ثُمَّ مَا هِيَ الصِّدْفَة؟ هَلْ فِي الْكَوْنِ صِدْفَةً؟ إِنَّ لِلصِّدْفَةِ قَانُونًا مُعَيَّنًا يَكْشِفُ لَنَا عَنْ أَسْتَحَالَةِ تَعْلِيلِ نُشُوءِ جُزْيَاءٍ وَاحِدٍ مِنَ الْبُرُوتِينِ - وَالْبُرُوتِينِ - مِنَ الْمُرْكَبَاتِ الْأَسَاسِيَّةِ فِي جَمِيعِ الْخَلَائِيَّةِ - إِنَّ الْعَالَمَ الرِّيَاضِيَّ السُّوِيسِرِيَّ (تشارلز يوجين جاي) قَامَ بِحَسَابِ الْفُرْصَةِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تُتَاحَ لِتَكْوينِ جُزْيَاءٍ وَاحِدٍ مِنَ الْبُرُوتِينِ صِدْفَةً فَوُجِدَ أَنَّهَا بِنِسَبَةِ (١٠١٦٠) أَيْ بِنِسَبَةِ رَقْمٍ وَاحِدٍ إِلَى عَشَرَةِ مَضْرُوبٍ بِأَفْسَهِ (١٦٠) مَرَّةً، وَهُوَ رَقْمٌ لَا يُمْكِنُ النُّطُقَ بِهِ وَالتَّغْيِيرُ عَنْهُ بِالْكَلِمَاتِ. وَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ كَمِيَّةُ الْمَادَةِ الْأَلَازِمَةُ لِحَدُوثِ هَذَا التَّفَاعُلِ لِيُتَسَبِّحَ جُزْيَاءً وَاحِدًا مِنَ الْبُرُوتِينِ صِدْفَةً أَكْثَرَ مِمَّا يَتَسَعُ لَهُ هَذَا الْكَوْنُ بِمَلَائِيَّنِ الْمَرَّاتِ. وَيَجِبُ أَنْ يَسْتَمِرَ هَذَا التَّفَاعُلُ بِلَأَيْنِ مِنْ

الستين قدرها العالم المذكور بأنها عشرة ماضروبة في نفسها (٢٤٣) (١٠٤٣) من السينين. كل هذا الانتاج جزيء واحد من البروتين صدفة فإذا قلنا أن التنوع الحيوياني في الكون ناشيء عن طريق الصدفة نصل إلى الصفر، أي أن قيمة الإحتمال أو الصدفة تساوي الصفر أي تساوي المحال الرياضي.

ومع ذلك يقول الداروينيون إن التنوع الحيوياني في الكون وجد صدفة!!! ثم أن هذه التغيرات التي يسموها الداروينيون طفرات، ما الدليل على أنها نقلت كائناً حياً من حالة نوعية إلى حالة نوعية أخرى؟ لا دليل، إنه مجرد افتراض لا غير، فلم تستطع جميع العلوم التي استعانت بها الداروينية أن تثبت بصورة علمية لا تقبل الشك حلقات الاتصال بين نوع حيوي ونوع آخر.

أن التغيرات موجودة بلا شك، وتدل على تطور في الكفاءات، ولكن في داخل كل نوع، ولا تدل أبداً على الانتقال بسببها من حالة نوعية إلى حالة نوعية أخرى.

ثانية: ننتقل إلى مشكلة توريث الصفات المكتسبة بواسطة الطفرات، دون الصفات المكتسبة الأخرى التي ثبت علمياً عدم قابليتها للتوارث. بأي تغلييل علمي مقبول نعمل هذا الافتراض الذي يشكل العمود الفقري للنظرية - إلى جانب حكاية الطفرة الصدفة لقد فشل دارون وخلفاؤه في إعداد جواب علمي مقبول وكاف على هذا السؤال. أما علم الوراثة فقد أثبت أن مرد جميع الطفرات الوراثية إلى الجينات التي تحتويها خلايا التناسل. وقد أوضح العلم أن الجينات لم تشتق من خلايا جسمية بل من «جرم بلازم» الوالدين فالآجداد، وهذا وعلى هذا الضوء أثبت علم الوراثة بعد التمييز بين الخلايا الجسمية والخلايا

التناسليّة أنَّ الصُّفَات المكتسبة لا تُورث. وهكذا تنهار الداروينيّة، من هنا للتجاء إلى فرضيّة التّنوع عن طرِيق الطُّفرات، وقد عرَفنا قيمة هذه الفرضيّة آنفاً. وهكذا تبقى الداروينيّة - مجرد فرضيّة لم يُحالفها التوفيق.

ثالثاً: نُسَاير الداروينيّة فنقول: لقد وصل التّطور إلى قيمته مُتمثلاً بالعقل الإنساني، فكيف حدث ذلك؟ ما هو العقل؟ وما هو سرّه العجيب؟ إنَّ العِلم الحديث لا يُعرف شيئاً عن طبيعة العقل. والداروينيّة كغيرها من الفرضيّات عاجزة عن تقديم تفسير معقول لنشأة العقل الإنساني المدهش. هل تفرض الداروينيّة أنَّ العقل تَطَور من تَطَورات المادة نَسَأْ بِواسطة الطُّفرات الصدفة وَتَنَازع البقاء وبقاء الأصلح والتوريث...؟ الحق أنَّ أشد مذاهب علم النفس غلوّاً في المادِيَّة «المذهب الشلوكي» حاول الجواب وفشل بشكلٍ فاضح.

الخلاصة: إنَّ الداروينيّة عاجزة عن إثبات دعوتها إنَّها ذات نتائج إحتمالية مبنية على مقدمات إحتمالية، فهل يصح أن نعتبرها علماً، وأن نتخذها سندًا في نقد الأفكار الدينيّة؟ وهل تكون أمناء حين نسمى الظُّنُون والإحتمالات علماً؟^{١٢}.

(١) نشرت صحفة الأهرام القاهريّة في عددها الصادر يوم الأربعاء ٢٠ شوال سنة ١٣٩٢ هـ - ٨ نوفمبر / تشرين الثاني ١٩٧٢ م)، الخبر التالي:

واشنطن، في (٧/١٩٧٢ م) وكالات الأنباء:

أعلن ريتشاردليكي، أحد علماء إنتروبولوجيا - علم الإنسان - في كينيا، أنه تم اكتشاف بقايا جمجمة يرجع تاريخها إلى مليونين ونصف مليون عام، ويُقدّم أقدم أثر من نوعه للإنسان الأول. وقال العالم: إنَّ هذا الاكتشاف يمتد في أثره مليوناً ونصف مليون عام عن أقدم أثر يمكن العثور عليه حتى

الآن. وقد تم اكتشاف عظام الجمجمة مع عظام لسان بشرية ترجع إلى نفس الحقبة من التاريخ في جبل حجري بصراء تقع شرق بحيرة رودلفا في كينيا.

وقال العالم: إن هذا الأمر يمكن أن يقلب النظريات القائمة بشأن تطور الإنسان عن أجداده فيما قبل التاريخ، وكيف ومتى تم.

وقد قدم ريتشارد، (وهو مدرس المتحف البريطاني في كينيا) تقريراً عن اكتشافه إلى الجمعية الجغرافية في واشنطن، وقال فيه:

إن نظريات التطور الحالية - وعلى رأسها نظرية دارون - تفيد أن الإنسان تطور من مخلوق بدائي كانت له سمات بدائية شبيهة بسمات القرود. وأن أقدم أثر للإنسان كمخلوق منتسب يسير على رجليه ولهم منع كبير يرجع إلى نحو مليون سنة، في حين أن الإكتشاف الجديد يدل على أن المخلوق الإنساني المنتسب في الساقين لم يتطور عن المخلوق البدائي الذي يشبه القرد، بل كان يعاصره منذ أكثر من مليونين ونصف مليون عام، وإنه يمكن على هذا اعتبار أستبعاد المخلوق البدائي الأول على أساس أن الإنسان انحدر من سلالته وذكرت الجمعية الجغرافية في تعليقها:

«أن نظرية ليكي تقوم على أساس أن المخلوق البدائي الأول، وأسمه العلمي (أوسترالوبيشيكوس) - وكان أساساً من أكلة النباتات - قد وصل إلى مرحلة تطورية مسدودة، بينما استطاع الإنسان الذي استعمل اللحم في عذانه، وتمكن من صناعة الأدوات الحجرية أن يبقى على قيد الحياة».

وأكمل ليكي في تقريره أنه أمكن إعادة بناء جمجمة من شظايا العظام التي عثر عليها، وأنه بالرغم من أن هذه الجمجمة لا تشبه جماجم الجنس البشري المعروف حالياً إلا أنها تختلف كذلك عن جميع أشكال الجنماجم التي عثر عليها للإنسان الأول، ولذلك لا تتفق مع أي نظرية حالية من تطور الإنسان».

وفي (١١/٢/١٩٧٣) نشرت جريدة الأخبار القاهرة في صفحتها الثالثة تحت عنوان «انتكاسة نظرية الارتفاع» ما يأتي للأستاذ ظفر الإسلام خان - الهندي: «تعرضت نظرية الارتفاع لهزة عنيفة في أوائل الشهر الحالي حين قرر المجلس التعليمي الحكومي بولاية كاليفورنيا الأمريكية بأن تشير جميع الكتب المدرسية للعلوم إلى نظرية الارتفاع الداروينية بأنها «نظرية افتراضية وليست حقيقة» وجاء في قرار المجلس التعليمي للولاية: «أن ما يمكن معرفته عن أصول الحياة لا يعدو أن يكون مجرد افتراض ذكي - على أكثر تقدير» وأمر المجلس «باستخدام تعديل على العقائد النظرية المسلم بها»

إنَّ الدُّكْتُور العَظِيم وَقَعَ فِي الْخَطَاءِ حِينَ أَصْدَرَ أَحْكَامًا جَازِمَة مَبْنِيَّة عَلَى مَا أَسْمَاهُ عِلْمًا، وَمَا هُوَ بِعِلْمٍ إِنَّهُ إِلَّا ظَنٌّ وَاحْتِمَالٌ وَالظَّنُّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا، وَنُدْرِكُ مَدْيَ خَطَاهُ حِينَ يُهَاجمُ الْعَقَائِيدُ مُسْتَنْدًا عَلَى هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ وَيُهَاجمُ الْمَوْقِفِينَ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالدِّينِ الَّذِينَ يَرْفَضُونَ هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ^(١).

«إلى بيانات قابلة للتعديل وفقاً للظروف».

أُورِدَتْ هَذَا الْخَبَرُ مَجَلَّةً (الْإِيْكُوْنُومِسْت) الْأَسْبُوعِيَّةِ الْبِرْيَطَانِيَّةِ فِي عَدَدِهِ الصَّادِرِ فِي (١٠ مَارْسِ سَنَةِ ١٩٧٢ م) نَقَلَنَا هَذِينَ الْخَبَرَيْنَ عَنِ الْأَسْنَادِ الدُّكْتُورِ عَبْدِالْمُتَّعِمِ التَّمَرِ مُدِيرِ الْبَحْثُوْتِ الإِسْلَامِيِّ فِي الْأَزْهَرِ الشَّرِيفِ (خَوَاطِرُ مِنَ الدِّينِ وَالْحَيَاةِ) الطَّبْعَةُ الْأُولَى (١٩٧٢ م - دَارُ الْكِتَابِ الْلُّبْنَانِيِّ - بَيْرُوت - لُبْنَانٌ : ٢١٢ - ٢١٠). (مِنْهُ).

(١) أُنْظِرَ : ٤٢، ٤٣ مِنَ الْكِتَابِ. (مِنْهُ).

الكون، والنظام:

وَمَنْ نَظَرَ، وَتَأَمَّلَ هَذَا الْكَوْنَ يَجِدُ أَنَّهُ مُسْخَرٌ لِلْقَانُونِ، وَالنَّظَامِ فِي جَمِيعِ أَوْضَاعِهِ وَأَطْوَارِهِ، فَكُلُّ كُوكَبٍ يَبْعُدُ عَنِ الْآخَرِ بِمَقْدَارٍ، وَيَسِيرُ بِحَسَابٍ، وَكَذَلِكَ الضَّوءُ، وَالْحَرَارةُ، وَالْبَرْوَدَةُ... كُلُّ شَيْءٍ، حَدَّلَ يَعْدُوهُ، وَلَوْ تَجَاوَزَهُ لِإِخْتَلَلِ نِسَامِ الْكَوْنِ، وَكَانَ مَصِيرُهُ الْخَرَابُ، وَالدَّمَارُ: «وَخَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ وَتَقْدِيرَاهُ»، الْفَرْقَانُ : ٢.

وَقَالَ أَكْثَرُ الْفَلَاسِفَةِ بِوَحْدَةِ الْكَوْنِ عَلَى تَبَاعِينَ أَشْيَائِهِ، وَمُحْتَوِيَّاتِهِ، وَإِنَّهُ شَخْصٌ كَثِيرُ الْأَعْضَاءِ وَالْأَجْزَاءِ، وَأَسْمَاءَ بَعْضُهُمْ بِالْإِنْسَانِ الْكَبِيرِ، وَأَسْمَى الْإِنْسَانِ بِالْكَوْنِ الصَّغِيرِ، وَمَرَادُهُمْ بِوَحْدَةِ الْكَوْنِ وَوَحْدَةِ الْقَوَافِينِ الَّتِي تَرْبِطُ بَيْنَ كُوَاكِبِهِ، وَأَزْكَانِهِ.

هَذَا مَا يَعُودُ إِلَى الْكَوْنِ بِوَجْهِ عَامٍ، أَمَّا أَشْيَاؤُهُ، وَأَحْدَائِهِ فَإِنَّ مِنْهَا - كَمَا شَاهَدْنَا بِالْعِيَانِ - مَا يَقُومُ بِوَظِيفَةٍ خَاصَّةٍ، وَيَهْدِفُ إِلَى غَرْضٍ مُعْنَى، وَتَبَدُّلُ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ وَاضْحَاءُهُ فِي أَعْضَاءِ الْإِنْسَانِ، وَالْحَيَوانِ، وَمَنْ قَرَأَ شَيْئًا مِنْ عِلْمِ وَظَانَفِ الْأَعْضَاءِ رَأَى عَجَبًا!.. وَمَا أَنَا مِنْ أَهْلِ هَذَا الْفَنِ فِي شَيْءٍ، وَلَكِنِي قَرَأْتُ بَعْضَ مَا قَالَهُ أَهْلُ الْإِخْتِصَاصِ، فَشَعِرْتُ بِأَنَّهُ لَا شَيْءٌ فِي هَذَا الْكَوْنِ إِلَّا وَهُوَ مُدَهَّشٌ، وَعَجِيبٌ شَمَامًا كَالْكَوْنِ فِي عَظَمَتِهِ، وَمَا وَجَدْتُ تَفْسِيرًا لِذَلِكَ إِلَّا بِقُوَّةِ عُلْيَا تُقْدِرُ، وَتُدَبِّرُ مِنْ وَزَاءِ الطَّبِيعَةِ، وَقَدْ أَتَهْمَتُ نَفْسِي فِي الْبَدَائِيَّةِ، وَقَلَّتْ: رُبَّمَا كَانَ شَعُورِي هَذَا أَنْعَكَاسًا عَنْ عَقِيدَتِي، وَإِيمَانِي حَتَّى قَرَأْتُ كِتَابَ

»

الإنسان... ذلك المجهول، للطبيب الفرنسي الشهير «الكسيس كاريل». وقد حصل هذا العالم - بالإضافة إلى إجازة الطب على إجازة في العلوم، وجائزة نوبل، ودرس في الولايات المتحدة أكثر من (٢٠) عاماً، وطبع كتابه عدة مرات، وتُرجم إلى كثير من اللغات.

وجاء فيه: «أن كل عضو من أعضاء الجسم يُكيف نفسه مع سائر الأعضاء، وهي أيضاً تُكيف نفسها معه... وما من أحد يُذكر وجود الغایة من هذه الأعضاء حتى كان لكل عضو معرفة يعمل في ضوئها... فالجسم بما فيه يدرك، ويعرف القريب والبعيد من أعتاله، والحاضر والمستقبل... وحيثما يقترب الجنين من الإكمال يُمهّد، ويعبد له طريق المرور، والخروج من بطن أمه، وذلك بأن تضيق أنسجة الفرج مرتنة، تأمعة تمتد بسهولة، ويسع الفرج بحجم الجنين». ثم قال: «ولا يمكن تفسير هذه الحقائق الأولى بأداة الميكانيكية - أي بالعلم التأديب - أو الحيوان الساذجة أي بقوله من قال: «إن الحياة تأخذ مجرىها بطبيعتها، وتُكيف نفسها ب بنفسها، وبدون سبب خارج عنّها. وعلق الفيلسوف الصيني «لين يوتانج» في كتابه «كيف يحيا الإنسان» على ذلك بقوله: «لقد قبل كاريل النظرية الفيزيية في الحياة بالرغم من سعة أفقه، ونحن نتفق معه على أن هناك أشياء غير قابلة للتفسير». أنظر، كتاب كيف يحيا الإنسان للفيلسوف الصيني «لين يوتانج»: ٦٥ طبعة سنة ١٩٦٧ م.

وإذًا لم تقبل التفسير بالمادة فإنّها التفسير بما وراء المادة، وفي مقال مطول عن آينشتاين جاء فيه: قال آينشتاين: «إن التجارب لا يمكن أن تصنع علماً حقيقياً بدون تدخل الروح». أنظر، مجلة «عالم الفكر الكوبيتية»: ج ٢ / العدد ٢ / (منه).

وقال الفيلسوف راسل: «أنا أعتقد أن ثمة حقائق لا يوصل إليها إلا بالتأمل الباطني، بل أذهب إلى أبعد من ذلك، وأقول: «إن علم الفيزياء لا بد لها من هذه الحقائق التي لا يوصل إليها إلا بالتأمل الباطني». أنظر، كتابه «الفلسفة بنظرة علمية» الفصل السادس. (منه).

وبعد أن أتفق الكل على أن الكون بما فيه مُسخر لسلطان النظام، والقدر في طبعه، وحجمه، ووضعه، وحركته - اختلقو في مصدر هذا النظام: أي شيء هو؟

وخلص الأقوال في ذلك بما يلي:

١ - لا مصدر إلا الصدفة العشوائية!

والجواب: لا مصدر لهذا القول إلا العجز، والتهرب من حكم العقل، والواقع، وفي كتاب «ملقى

«السييل» لاستعمال مظاهر أن داروين قال: «كلمة الصدفة خطأ محض يدل على الإعتراف بالجهل، والقصور عن معرفة السبب». ذلك أن الصدفة لا تطرد كنظريّة محددة ذات نتائج علمية، أو فلسفية، أو دينية تناط بظاهره من الظواهر، أو حادثة من الحوادث.

٢ - لأسباب إلا المادة، فهي وحدها، وبما تملك من طاقة، وأستعداد ذاتي ترتب، وتنظم!... وقد دحض العلماء هذا القول داحضاً قاطعاً بما يتلخص أن النظام يحتاج إلى قصد، والمادة بما هي لا إرادة لها، ولا شعور، وإلا كانت على نفس واحد، لا فرق بين مادة، ومادة في الصفات، والخصائص، وهو خلاف الواقع... وأيضاً إذا كانت المادة في غيرها بذاتها عن الغير تكون، والحال هذه، واجبة الوجود أزلية، أبدية، لا تجري عليها حركة، ولا حرارة، أو برودة، ولا تركيب، وتفصان، ومتاعب، والأم... وأيضاً كيف أنشأت المادة لنفسها عقلاً، وسمعاً، وبصرًا، وهي بطبعتها صماء عمياً؟ بل كيف انتقلت بانتظام من وضع إلى وضع لتؤدي غاية معقولة؟ وإذا كان في المادة طاقة تولد الحياة، والنظام تلقائياً فمن الذي أودع فيها هذه الطاقة؟ وعلى حد ما قال شوقي: «الطبيعة من طبعها؟».

وإن قال قائل: والإله من الله؟ وواجب الوجود من أوجبه؟ قلنا في جوابه: إن الذي نولهه، ونعبده لا تراه عين، ولا تلمسه يد كما هو شأن المادة التي تقضم بالآتياب، وتتدخل المعدة، وتخرج منها، وتلبس على الأجسام، وتدعى بالأقدام... إن إلينا قوة علينا فوق المادة، ومزيد عنها، قوة فعالة، ومؤثرة، وحكيمة مدببة، وعادلة تسمع الشكوى، وتعنى بالآلام، وتحاسب، وتعاقب، وعليمة بكل جليل، وحقيق، وظاهرة يخضع لها كل شيء، ولا تخضع لشيء... إنها الكمال المطلق في ذاتها، وصفاتها... وإن فاين القاسم المشترك، والقدر الجامع؟ وما هو المبرر للشبه، والقياس؟.

٣ - الإعتراف بوجود قوّة سرمدية عالمية قادرة ليس كمثلها شيء في الجلال والكمال، وإنها تُدبر الكون بما فيه، وأسمها الله الأحد الفرد الصمد، ولكن هذا الإله العظيم غير منفصل عن الطبيعة ولا مستقل عنها، بل يتحد معها، ومع جميع أشيائها آتَها كلياً يشبه اتحاد الروح مع الجسم بحيث لا يمكن التمييز بينه، وبين الطبيعة... وبكلمة، أن الله موجود بلا زيف، ولكن في نفس الطبيعة، وليس وراءها كما يقول المتشاءون، والمؤمنون... وهذا الدين، أو هذه الفلسفة تُعرف بوحدة الوجود. أنظر، منتقى الأصول: ١٩/٣ و٨٧ وما بعدها، تقريرات بحث الروحاني للحكيم، أفاضة الوجود في وحدة الوجود لأبي المواهب أحمد بن علي بن أحمد الشناوي المصري المعروف بالحناني، إيضاح المقصد

↳ من معنى وحدة الوجود للشيخ عبد الغني النابلسي، وغيرهما.

والجواب عن هذه الوحدة: إنها مجرد خدش، وتخمين، وإنها تخلط بين العلة والمعلول، وال فعل وفاعله، وتجعل الكون إليها خالقاً، والأله كوناً مخلوقاً.

٤ - وإذا بطلت الأقوال الثلاثة تحتم الأخذ بالقول الرابع، وهو أن وراء الكون خالقاً حكيمًا يدير، وينظم، ولا شيء يشبهه من الكائنات، ولا هو يشبهها في شيء.... وتقديم ذلك مرات، ومرات.

ومن جملة ما قرأت في الصحف اليومية كلية بعنوان «أجمل ما في الحياة» وهي تمثل الإيمان الصادق مع سلامة المتنطق، وبدهنته، فاحتفظت بها - على عادتي - في ملف خاص بقصصيات الجرائد. ومن المفيد أن أختتم شرجي لهذه الخطبة بأجمل ما جاء في تلك الكلمة، قال كاتبها، أحسن الله إليه، وأذن له: «إن أجمل ما في الحياة هو المجهول، وأجمل ما في المجهول محاولة معرفته، وأجمل من هذه المحاولة العجز عن معرفة التفاصيل مع الرجوع الثاني إلى الإيمان بالقوة العظمى المسيطرة على الكون، ومن ملك هذا الإيمان فلا يهاب أحداً غير الله». انظر، في ظلال نهج البلاغة شرح العلامة الشيخ محمد جواد مغنية: ٤٠٣/٢، بتحقيقنا، «يتصرف».

الجِنْ وَالْمَلَائِكَةُ
وَآيَاتُ أُخْرَىٰ

الْجِنُّ وَالْمَلَائِكَة

ثُمَّةَ حَقَائِقٍ أَثَبَتَهَا الْوَحْيُ وَلَا سَبِيلٌ إِلَى الْعِلْمِ بِهَا عَنْ طَرِيقِ الْحِسْنَ وَالتَّجْرِيَةِ،
وَهِيَ الْحَقَائِقُ الْغَيْبِيَّةُ. إِنَّ الْمَلَائِكَةَ، وَالْجِنَّ، وَإِنْجِيلِيسَ، وَالْجَنَّةَ، وَالنَّارَ وَمَا إِلَيْهَا
لَيَسَّتْ أَسَاطِيرُ كَمَا يَقُولُ الْمُؤَلِّفُ.

هَلِ النَّظَرَةُ الْعِلْمِيَّةُ التَّجْرِيَّيَّةُ الْحِسْيَيَّةُ تَشْفِي وَجُودَ هَذِهِ الْكَائِنَاتِ؟ أَوْ أَنَّ الْحِسْنَ
وَالتَّجْرِيَةَ لَمْ تَكُنْ تُكْشَفَ هَذِهِ الْكَائِنَاتِ؟ إِنَّ التَّغْبِيرَ الصَّحِيحَ هُوَ الثَّانِي، وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ
أَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ يُمْكِنُ أَكْتِشافَهَا فِي الْمُخْتَبَرِ، لَسَبْبِ بَسِطَتِهِ جَدًا، وَهُوَ أَنَّهَا خَارِجَةٌ
عَنْ نَطَاقِ التَّجْرِيَةِ الْحِسْيَّةِ. فَالرَّجُوعُ إِلَى النَّظَرَةِ الْعِلْمِيَّةِ الْحِسْيَّةِ لِلْحُكْمِ عَلَى مَا
هُوَ خَارِجٌ عَنْ نَطَاقِهَا مَسْلِكٌ غَيْرُ عِلْمِيٍّ، وَلَا يَنْفِي عَدَمَ قُدرَةِ الْحِسْنَ وَالتَّجْرِيَةِ
عَلَى مُلَامِسَةِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ أَنَّ تَكُونُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ حَقِيقَةً أَيْضًا كَالْأَشْيَاءِ الْحِسْيَّةِ.
إِنَّ الْوَحْيَ الصَّادِقَ الَّذِي ثَبَّتَ بِالْبُرْهَانِ الْقَاطِعَ هُوَ طَرِيقُنَا إِلَى الْعِلْمِ بِهَذِهِ
الْأُمُورِ؛ فَإِنَّا إِذَا آمَنَّا بِالْعِلْمِ الْأُولَى لِلْكَوْنِ، وَهِيَ اللَّهُ، وَآمَنَّا بِالنُّبُوَّةِ وَالْوَحْيِ فَلَا بُدَّ
لَنَا مِنِ الإِيمَانِ بِالْحَقَائِقِ الْغَيْبِيَّةِ الَّتِي أَخْبَرَنَا الْوَحْيُ عَنْهَا^(١).

(١) هَذَا هُوَ مَنْهَجُ الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْذَّاتِ، وَهُوَ الْمَتْهَجُ السَّوِيُّ، وَبِهِ أَخْذُ التَّجْرِيَّيْنِ، وَعُلَمَاءُ الطَّبِيعَةِ
حَيْثُ يُشَاهِدُونَ ظَواهِرَهَا، ثُمَّ يَنْفَرُغُ وَاحِدٌ، أَوْ تَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلِّبَحْثِ فِي ظَاهِرَةِ مِنَ الظَّواهِرِ، وَيَسْتَبَعُ
هُنَّا

إِنَّا حِينَ نُؤْمِن بِأَنَّ شَيْئًا مَا مَصْدَرَ لِلْمَعْرِفَةِ، فَلَا بُدَّ لَنَا مِنِ الْإِيمَانَ بِالْمَعْرِفَةِ الَّتِي تَأْتِينَا مِنْ هَذَا الْمَصْدَرِ.

وَإِذَنَ فَالْإِيمَانُ بِهَذِهِ الْأُمُورِ فَرَعٌ لِلْإِيمَانِ بِظَاهِرَةِ الْوَحْيِ، وَمَنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْوَحْيِ لَا مَعْنَى لِلْكَلَامِ مَعْنَى فِي الْفَرْعِ وَهُوَ يُنْكِرُ الْأَصْلَ، وَإِذَا آمَنَّا بِالْوَحْيِ فَمِنَ الْمَنْطَقِيِّ حِينَئِذٍ الْإِيمَانُ بِالْغَيْبِ الَّذِي جَاءَ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ.

وَالدُّكْتُورُ الْعَظِيمُ وَأَمْثَالَهُ مِنَ الْمَادِيِّينَ الْمَارْكُسِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ حِينَ يَرْدُونَ الْكَوْنَ وَظَوَاهِرَهُ إِلَى أَصْلِ غَيْرِ مَعْرُوفٍ وَغَيْرِ مَعْقُولٍ، وَحِينَ يَلْوِذُونَ بِحَكَائِيَّةِ الصُّدْفَةِ إِذَا حُوْصِرُوا وَأَعْوَزُتُهُمُ الْحُجَّةُ الْمُقْنَعَةُ - هَوْلَاءُ أَيْضًا يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ الَّذِي يَعْتَقِدُ بِمِثْلِهِ الْمُؤْمِنُونَ بِالْأَدِيَانِ، فَلِمَاذَا يَكُونُ غَيْبُ الْمَادِيِّينَ حَقًّا وَغَيْبُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْأَدِيَانِ بَاطِلًا؟ مَعَ أَنَّ غَيْبَ الْمُؤْمِنِينَ أَكْثَرُ عَقْلَانَيَّةً وَأَنْسَجَامًا مَعَ الْمَنْطَقِ السَّلِيمِ.

* * *

مِنْ هُنَا يَتَّسْعُ لَنَا أَنَّ سِخْرِيَّةَ الْمُؤْلِفِ فِي (٣٧-٣٨) لَا مَعْنَى لَهَا فَلَيْسَ الْمُرَادُ

← خَصَائِصُهَا، وَآثَارُهَا، وَيَمْضِي فِي دَرْسَهَا، وَتَحْلِيلِهَا حَتَّى إِذَا أَنْتَهَى أَنْتَلَى مِنَ الْمُشَاهَدَةِ، وَالْإِدْرَاكِ الْمُبَاشِرِ إِلَى الْإِسْتِنْتَاجِ، وَالْحُكْمُ الْعَالَمُ عَلَى أَفْرَادِ تِلْكَ الظَّاهِرَةِ جَمِيعًا مَا شَاهَدَ مِنْهَا، وَمَا غَابَ عَنْهُ. وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ مَعْنَا أَنَّ مَنْهَجَ التَّجْرِيبِينِ فِي إِثْبَاتِ مَا يُتَبَشِّرُونَ بِلِلطَّبِيعَةِ مِنْ قَوَاعِدِ عَامَّةٍ، وَيُرْسِلُونَ عَلَيْهَا مِنَ الْأَحْكَامِ تَشْمِلُ كُلَّ فَرَدٍ مِنْ أَفْرَادِ تِلْكَ الظَّاهِرَةِ مَا كَانَ مِنْهَا، وَمَا يَكُونُ، يَتَبَيَّنُ أَنَّ مَنْهَجَ التَّجْرِيبِينِ هَذَا هُوَ مَنْهَجُ الْقُرْآنِ فِي إِثْبَاتِ وُجُودِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَنْهَجُ الْعُلَمَاءِ باشَهُ، وَبِدِينِهِ.. وَإِذَنَ فَلِمَاذَا الْإِنْكَارِ، وَالْإِسْتِنْكَارِ، وَشَسِيمَةِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ إِيمَانًا بِالْغَيْبِ دُونَ الْأَحْكَامِ الْعَامَّةِ عَلَى الطَّبِيعَةِ؟ أَلِيسْ كُلُّ مِنْهُمَا يَبْشِرُ عَلَى الْعِسْكِ، وَالْقُلْقُلِ؟ وَتُقْلَلُ عَنْ (ماكس بورن) أَنَّ عَقِيدةَ (إِنْشتَاين) الْدِيَنِيَّةِ تَقْوِيمُ عَلَى إِيمَانِهِ بِقُدرَةِ الْقُلْقُلِ عَلَى تَخْمِينِ الْقَوَاعِيدِ الَّتِي بَنَى اللَّهُ الْعَالَمَ بِمُوجَبِها. اُنْظُرْ، اُنْظُرْ، فِي ظَلَالِ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ شَرْحَ الْعَلَمَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ جَوَادِ مُغَنِيَّةِ : ٦٠/١، بِتَحْقِيقِهِ. «بِتَصْرِف».

مِنَ النَّصِّ الَّذِي أَخْتَارَهُ الْمُؤْاَنَ: أَنَّ بِالْإِمْكَانِ أَكْتَشَافَ مَوْجَاتٍ ضَوئِيَّةٍ جِنِّيَّةٍ وَمَلَائِكِيَّةٍ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ هُوَ أَنَّ ثَمَةَ عَوَالَمَ غَيْرَ مَنْظُورَةٍ كَثِيرَةٌ وَرَاءَ عَالَمَنَا، فَعَدْمُ أَطْلَاعَنَا عَلَى تِلْكَ الْعَوَالَمِ وَتَرْكِيهَا لَا يَنْفِي وجودَ كَائِنَاتٍ غَيْرَ مَنْظُورَةٍ وَذَاتٍ طَبِيعَةٍ غَيْرِ إِنْسَانِيَّةٍ فِيهَا - وَهَذَا مَعْنَى مَعْقُولٍ صَحِيحٍ لَا وَجْهٌ لِلْسُّخْرِيَّةِ مِنْهُ^(١).

* * *

النَّظَرَةُ الْغَائِيَّةُ:

وَهَذَا يَنْقُلُنَا إِلَى مُنَاقِشَةِ الْمُؤَلَّفِ لِلنَّظَرَةِ الْغَائِيَّةِ إِلَى الْكَوْنِ. إِنَّ الْمُؤَلَّفَ يَنْفِي

(١) الْحَدِيثُ عَنِ الْمَلَائِكَةِ حَدِيثُ عَنِ الْغَيْبِ، وَقَدْ أَنْبَتَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَنَّ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ كِرَاماً حَافِظِينَ كَاتِبِينَ كَمَا فِي الْآيَةِ: «وَإِنْ عَلَيْكُمْ لَحَفِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ» الْأَنْفُضَارِ: ١٢.

وَكَمَا يَكُونُ الْعِلْمُ بِالْحِسْنَةِ وَالْعُقْلُ يَكُونُ بِالْوَحْيِ، وَالشَّرْطُ فِيهِ أَنْ لَا يُضَادَ الْعُقْلُ فِيمَا يُخْبِرُ عَنْهُ، لَا أَنْ يَسْتَقْلُ الْعُقْلُ بِإِذْرَاكِهِ وَإِلَّا كَانَ الْوَحْيُ لَغُواً وَعَبَّاً... وَالْعُقْلُ لَا يَسْتَوْعِبُ كُلَّ شَيْءٍ، بَلْ يَعْجَزُ عَنِ إِذْرَاكِ الْكَثِيرِ مِنَ الْحَقَّاَنِقِ.

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ مَصْدَرُ الْوِجْدَنِ وَالْعِلْمِ وَالْحَيَاةِ، وَقَدْ أَخْبَرَ عَنِ الْحَافِظِينَ الْكَاتِبِينَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَالْعُقْلُ لَا يَأْبَى وَلَا يَغْرِضُ، فَوَجْبُ التَّصْدِيقِ.

وَكُلُّ مَا يَتَصَوَّرُهُ الْإِنْسَانُ عَنِ الْجِنِّ، وَالْمَلَائِكَةُ فَهُوَ حَدِيثُ، وَتَخْمِينُ لَأَنَّهُ غَيْبٌ، حَيْثُ لَا مَكَانٌ لِهَذَا الْمَوْضُوعِ الشَّائِكِ فِي الْعُقْلِ، وَلَا فِي الْحِسْنَةِ... أَجْلُ، نَحْنُ كَمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ، وَبِكِتابِهِ، وَبِالْأَئِمَّةِ، وَسُنْنَهُ يَجُبُ عَلَيْنَا أَنْ نَعْتَقِدَ بِوُجُودِ الْجِنِّ، وَالْمَلَائِكَةِ، أَمَّا أَيْنَ مَكَانُهُمْ؟ وَمَا هُوَ حَقِيقَتُهُمْ، وَهِيَنَّهُمْ، وَمَهِنَّهُمْ؟ فَلَا يَجُبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَعْرِفَ، أَوْ يَسْأَلَ عَنِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، لَأَنَّهُ لَا يَمْتُ إِلَى الْحَيَاةِ، وَأُصُولِ الْعَقَائِدِ يَسْبِبُ.

وَلَا شَكَ أَنَّ عَنِ الْجِنِّ حَدِيثٌ عَنِ الْغَيْبِ، وَأَيْضًا لَا شَكَ أَنَّ الإِيمَانَ بِالْغَيْبِ يَتَبَعُ مِنَ الْقَلْبِ، وَلَا يُمْكِنُ إِقَامَةُ الدَّلِيلِ عَلَيْهِ مِنَ الْحِسْنَةِ سَلْبًا، وَلَا إِيجَابًا، أَمَّا الْعُقْلُ فَإِنَّهُ لَا يَأْبَى الْغَيْبَ مَا دَامَ مُمْكِنًا فِي ذَاتِهِ، وَإِنْ أَشْتَدَ عُرْفًا، وَعَادَةً، «يُنَصَّرَفُ».

القصد والغاية من النّظام الكوني . إنّه نظام وجد صدفة ، نعم صدفة ، ووُجد بهذا الشّكل من النّظام الدّقيق المُحكَم المُتناسق صدفة^(١) .

لَا يأبى عَقْلُ الدُّكْتُورِ «العلمي» أَنْ يُؤْمِنَ بِالصَّدْفَةِ فِي كُلِّ النَّظَامِ الدَّقِيقِ الشَّامِلِ الَّذِي يُسَيِّطِرُ عَلَى كُلِّ ظَواهرِ الطَّبِيعَةِ وَيَأبى عَقْلُهُ التَّصْدِيقُ بِالْوَحْيِ وَبِالْحَقَائِقِ الْغَيْبِيَّةِ الْآتِيَّةِ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ^(٢) .

نَعُودُ إِلَى النَّظَرَةِ الْغَائِيَّةِ^(٣) . إِنَّ النَّظَامَ الدَّقِيقَ الْمُحكَمَ الَّذِي يُسَيِّطِرُ عَلَى الْكَوْنِ

(١) أَيْنَ مَكَانُ الصَّدْفَةِ ، وَالْعَبْثُ؟ هَلْ هُوَ فِي هَذَا النَّظَامِ الْمُحكَمِ الْدَّقِيقِ الَّذِي يَخْضُعُ لِهِ الْكَوْنُ وَلَا يَتَعَدَّهُ بِحَالٍ؟ أَوْ هُوَ فِي التَّقْدِيرِ الْكَمِيِّ ، وَالْكَيْفِيِّ ، وَالزَّمَنِيِّ لِكُلِّ كَانِ؟ أَوْ هُوَ فِي التَّعَاوُنِ بَيْنَ الْكَائِنَاتِ عَلَى الْبَيْنَاءِ ، وَالتَّعْمِيرِ؟ أَبَدًا لَا تَفْسِيرٌ لِذَلِكَ إِلَّا الْوُجُودُ الْقَدِيرُ الْحَكِيمُ ، وَأَنَّهُ الْمَصْدَرُ الْأُولُّ لِكُلِّ شَيْءٍ يُبَحَّادُ ، وَيَمْدَدُ ، وَلَوْلَاهُ لَا شَيْءٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ .

بِكَلِمةِ أَصْحَحِ مَا كَانَ لِلْعِلْمِ عَيْنُ ، وَلَا أَثْرٌ... وَنَسْأَلُ: مِنْ أَيْنَ جَاءَتْ هَذِهِ الْقَوَافِينِ ، وَالْخَصَانِصِ ، مِنْ الطَّبِيعَةِ الْعَمَيَّاءِ ، أَوْ مِنْ الصَّدْفَةِ؟ وَإِذَا كَانَتْ لَا تُفَسِّرُ بِالصَّدْفَةِ أَفْعَالُنَا فَكَيْفَ تُفَسِّرُ بِهَا عَظَمَةُ الْكَوْنِ ، وَنَظَامُهُ؟ وَإِذَنْ فَلَا مَجِيئُ عَنِ الْإِيمَانِ بِالْقُوَّةِ الْعَلِيَّةِ الْحَكِيمَةِ . «يَتَصَرَّفُ» .

(٢) وَنَصَّ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ بِالْوَحْيِ أَصْلُ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ: «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يَنْفَعُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أَوْلَكِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأَوْلَكِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» . الْبَقْرَةُ: ٥ - ٣ .

وَأَوْحَى سُبْحَانَهُ إِلَى تَبَيَّنِ الْكَرِيمِ الْكَثِيرِ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ: «ذَلِكَ مِنْ أَمْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهُ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَنِيهِمْ إِذْ يَلْقَوْنَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرِيمَ وَمَا كُنْتَ لَدَنِيهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ» . الْجِنُّ: ٢٦ - ٢٧ . «عَلَمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مِنْ أَرْضَنِي مِنْ رَسُولِ فَإِنَّهُ وَيَسِّلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَضِيَّا». الْأَلْعَزْرَانُ: ٤٤ . وَكَذَا النَّبِيُّ لَا يُظْهِرُ عَلَى هَذَا الْغَيْبِ أَحَدًا إِلَّا مِنْ أَرْضَنِي اللهُ، وَرَسُولُهُ مِنْ وَلِيٍّ ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ يُظْهِرُ عَلَيْهِ عَلَى مَا أَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ غَيْبٍ .

(٣) نَخْنُ لَا نَشَكُ فِي أَنَّ الْأَعْضَاءَ لَا تُدْرِكُ شَيْئًا... وَلَكِنَ كُلِّ نَظَامٍ مُسَنَّاقٍ ، وَمُسْتَمِرٍ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَعْدُثَ إِلَّا عَنْ قَصْدِ حَكِيمٍ ، وَكُلِّ قَصْدٍ لَأَكْبَدَ أَنْ يَهْدِي إِلَى غَايَةٍ ، وَيُسَمِّي هَذَا عِنْدَ الْفَلَاسِفَةِ «بِقَاعُونَ الْغَائِيَّةِ» .

يُكْشف عَنِ الْقَصْدِ وَالْغَايَةِ الَّتِي تَقْرُبُ إِلَى الْكَوْنِ نَحْوَ النَّمُوِّ وَالتَّكَامُلِ . إِنَّ الْمُؤْلَفَ قَدْ نَفَى هَذِهِ النَّظَرَةَ بِكَلَامِ خَطَابِيِّ عَنِ الْعِلْمِ وَعَدَمِ إِدْرَاكِهِ لِلْغَايَةِ وَالْقَصْدِ مَعَ قَائِمَةِ بِأَسْمَاءِ عُلَمَاءِ الطَّبِيعَةِ وَالرِّياضِيَّاتِ كَمَا فِي صَفَحَةِ ٣٨ - ٣٩ .

وَقَدْ فَاتَ الدُّكُتورُ أَنَّهُ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَ النَّظَرَةِ الغَائِيَّةِ وَبَيْنَ الْعِلْمِ . إِنَّ وَظِيفَةَ الْعِلْمِ وَظِيفَةَ وَصْفِيَّةِ، الْعِلْمُ لَا يُفَسِّرُ وَلَا يُفَلِّسُ، الْعِلْمُ يُحَلَّلُ وَيَصْفَ فَقَطُّ، أَمَّا التَّفْسِيرُ، أَمَّا إِدْرَاكُ الْمَعْنَى الْكَامِنِ وَرَاءِ الظَّاهِرَةِ الطَّبِيعِيَّةِ، فَهُوَ مِنْ شَأنِ الْفَلْسَفَةِ، مِنْ شَأنِ الْعَقْلِ الْمُفَكَّرِ الْوَاعِيِّ، وَلَيَسْ مِنْ شَأنِ أَنَّا بِسَبِيلِ الْإِخْتِبَارِ وَأَفْرَانِ الصَّهْرِ . إِنَّ الْعِلْمَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُحَلِّلَ التَّفَاحَةَ إِلَى عَنَاصِرِهَا الْأَسَاسِيَّةِ، وَيَصْفُهَا، وَلَكِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ لَنَا أَنَّهَا جَمِيلَةٌ أَوْ غَيْرَ جَمِيلَةٍ، لِذِيَّذَةٍ أَوْ غَيْرِ لِذِيَّذَةٍ، فَذَلِكَ شَأنٌ يَتَعَلَّقُ بِقِوَى إِدْرَاكِيَّةِ لَدِيِّ الْإِنْسَانِ لَا عِلْقاَةَ لِلْعِلْمِ التَّجْرِيِّيِّ بِهَا .

* * *

تَدْخُلُ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ فِي عَمَلِ الطَّبِيعَةِ :

أَعْتَرَضُ الْمُؤْلَفَ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ :

«وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلْنَلَةِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا الْنُطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَمًا فَكَسَوْنَا الْعِظَمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا إِلَّا خَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَلِيقَينَ »^(١) .

أَعْتَرَضُ بِأَنَّ مَا تَدَلَّ عَلَيْهِ الْآيَاتِ مِنْ تَدْخُلِ الإِرَادَةِ الْإِلَهِيَّةِ فِي عَمَلِيَّةِ تَكُونِ

⇒ وَمِنِ الْبَدَاهَةِ أَنَّ الْأَعْضَاءَ وَسِيَّلَةٌ لِأَغَيَاةِ . وَإِذَنَ فَالْعَالَمُ الْقَادِدُ الْحَكِيمُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْأَعْضَاءَ، وَسَوَاهُمَا، وَجَعَلَهُمَا وَسَائِلًا إِلَى مَصْلَحَةِ الْإِنْسَانِ، وَأَغْرَاضِهِ . «بَتَصْرَفَ» .

(١) الْمُؤْمِنُونَ : ١٢ - ١٤ .

الجَنِين يُنَافِي مَا يُقرّره عِلْمُ الْأَجْنَةِ.

وَنَقُولُ لِلْمُؤْلَفِ إِنَّا بَيْنَا عِنْدَ الْحَدِيثِ عَنِ الْمَسْأَلَةِ الْإِلَهِيَّةِ أَنَّ إِيمَانَنَا بِاللهِ عِلْمٌ أُولَى لِلْكَوْنِ لَا يَعْنِي أَنَّا نَنْفِي الْعِلْلَ الْطَّبِيعِيَّةَ مِنَ التَّأْثِيرِ، كَيْفَ ذَلِكَ وَنَحْنُ نُشَاهِدُ بِحَسْنَانَا وَنُدْرِكُ بِعَقْولَنَا تَدَخُلَ الْعِلْلَ الْطَّبِيعِيَّةَ وَعَمَلَهَا؟ وَإِنَّمَا يَعْنِي أَنَّ الْعِلْلَ الْمُتَصَاعِدَةَ لَا بُدَّ أَنَّ تَشَهِي إِلَى عِلْمٍ أُولَى هِيَ اللهُ تَعَالَى.

وَنَزِيدُ البَيَانَ هُنَا فَنَقُولُ :

إِنَّ الظَّاهِرَةَ تَارَةً تَكُونُ خَارِقَةً لِلْطَّبِيعَةِ «مُعْجَزَةً» وَأُخْرَى تَكُونُ طَبِيعَةً. حِينَ تَكُونُ الظَّاهِرَةَ خَارِقَةً لِلْطَّبِيعَةِ فَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ تَكُونُ نَتْيَاجَةً لِلتَّدَخُلِ الْإِلَهِيِّ الْمُبَاشِرِ . وَأَمَّا حِينَ تَكُونُ الظَّاهِرَةَ طَبِيعَةً فَهِيَ تَشَبَّهُ بِصُورَةِ مُبَاشِرَةِ أَسْبَابِهَا الطَّبِيعَةِ ، وَمِنْ ذَلِكَ نَمُو الْجَنِينِ فِي الرِّحْمِ ، فَإِنَّهُ تَابِعٌ لِأَسْبَابِهِ الطَّبِيعَةِ الْمُبَاشِرَةِ ، وَإِسْنَادِ عَمَلِيَّةِ الْخَلْقِ إِلَى اللهِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ ، إِنَّمَا هُوَ بِإِعْتِبارِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الْعِلْمُ الْأُولَى وَالنَّهَايَةُ فِي سِلْسِلَةِ الْعِلْلَ الْمُتَصَاعِدَةِ ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلْقُ الْأَسْبَابِ وَجَعَلَ الْعِلْلَ وَفِقَاءَ لِهَذَا النَّظَامِ الَّذِي يَحْكُمُ الْكَوْنَ كُلَّهُ.

* * *

تَزوِيرٌ وَتَنَاقُضٌ :

يُهَاجمُ الْمُؤْلَفُ فِي صَفَحَةِ (٤٣ - ٤٢) الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَرْفَضُونَ نَظَرِيَّةَ دَارُونَ ، وَنَظَرِيَّةَ الْحُرَّيَّاتِ الْعَامَّةِ فِي التَّارِيخِ كَمَا بَشَّرَتْ بِهَا الثُّوَرَةُ الْفَرَنْسِيَّةُ ، وَنَظَرِيَّةَ (فِرْوِيد) وَالْمَازِكِسِيَّةِ ، وَيُهَاجمُهُمْ لِأَنَّهُمْ يَرْفَضُونَ الْعِلْمَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَدْعَوْنَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَنْسَجِمُ مَعَ الْعِلْمِ .

وَنَقُولُ لِلْمُؤْلَفِ : أَنَّا قَدْ بَيْنَا مَدِيَّ «عِلْمِيَّةً» نَظَرِيَّةَ دَارُونَ آنفًا فَهِيَ لَيْسَتِ عِلْمًا

بل ظن واحتمال لا يُعني عن الحق شيئاً.

ونقول للمؤلف الماركسي : هل تقر عقیدتك المازكسيّة نظرية الحريات كما بشرت بها الثورة الفرنسية أو أن المازكسيّة تستغل الحريات إلى أن يستولي اتباعها على السلطة فتخنق كل الحريات . هل يباح لMuslim أن يهاجم المازكسيّة في دولة شيوعية كما هاجمت أنت الإسلام والمسيحية في كتابك موضوع البحث . هل تُوجد حريات في المجتمع الشيوعي ^(١)؟ .

ونقول للمؤلف الماركسي : هل تعترف المازكسيّة بنظرية (فرويد) التي قلت عنها في صفحة : (٤٣) «أنها من أهم النتائج التي توصلت إليها البحوث العلمية في مجال الدراسات النفسيّة» . نقول له : هل تقر المازكسيّة نظرية (فرويد) في أن المحرّك الأساسي للإنسان هو الغريزة الجنسيّة ، وتخلّي المازكسيّة عن مبدئها الأساسي في أن العامل الاقتصادي هو العامل الوحيد في حركة الفرد

(١) الحرية أمر طبيعي ، لأن العقيدة وممارسة الدين لا تكون ، ولن تكون إلا في ظل الحرية التامة ، وهي الحق لكل إنسان فإذا أعتدى وأساء استعمالها تحمل وحده التبعات ، والمسؤولية .

والمتألقون في عصرنا لا يحصلون كثرة ، ومنهم الذين حولوا أقوات الخلايق إلى أسلحة الهلاك ، والموت بالجملة ، وهم يستترون بكلمات الدفاع عن الحرية وصيانة السلم ، والمدنية ، ويصنعون سفن الفضاء للتّجسس على الشعوب ويقولون : هي لتنقعة الإنسان وسعادته . ولقضاء شهور العسل في القمر والزهرة ، وأيضاً يقتلون الأحرار باسم القصاص من العناصر التي يسمونها «هدامة» ، ويغتذون على الشعوب دفاعاً عن العدود الأمينة ! ولكن الحقيقة تخرق بقوتها الأسور ، وتندور في الآفاق معلنة عن نفسها ، ويسمعها ويزاها القريب والبعيد .

أبداً ، لا وسيلة إلى الحياة الطيبة للذكور ، والإناث إلا العدل الصالح . ومن البداية أن العدل الصالح لا يكون ، ولن يكون مع الدكتاتورية ، والضغط على الحرية ، ولا مع طغيان الرأسمالية ، وشركاتها الإختيارية . انظر ، محمد رسول الحرية لعبد الرحمن الشرقاوي .

وَالْمُجْتَمِع ؟ .

أَنَّ الْمَازِكِسِيَّةَ تَرْفَضُ نَظَرِيَّةَ (فِرْوِيد) فَلِمَاذَا لَا يَجُوزُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَرْفَضَهَا ؟ أَوْ إِنَّهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَارْكُسِيِّيِّيْنَ تَكُونُ سَخَافَةً وَبِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُسْلِمِ تَصِيرُ عِلْمًا وَأَمَّا مَدْى مَا فِي الْمَازِكِسِيَّةِ مِنْ «عِلْم» فَتَرْجُوا أَنْ تُتَاحَ لَنَا فُرْصَةُ الْحَدِيثِ عَنْهُ مَعَ الْمُؤْلِفِ فِي الْفَصْلِ الْآخِرِ مِنْ كِتَابِهِ .

* * *

التُّوفِيقُ التُّبَرِيريُّ :

فِي الصَّفَحَاتِ : (٤٥ - ٥١) أَنْتَدَ الْمُؤْلِفُ الْمُحَاوِلَاتَ الَّتِي تُبَذَلُ فِي الدُّولَ الْإِسْلَامِيَّةِ لِتَبَرِيرِ أَشْكَالِ الْحُكْمِ الْقَائِمَةِ فِي كُلِّ دَوْلَةٍ . وَنَحْنُ نَقُولُ لِلْمُؤْلِفِ : إِنَّ الْإِسْلَامَ كِدِينٍ لَيْسَ مَسْؤُلًا عَنْ هَذِهِ الْمُحَاوِلَاتِ ، وَإِنَّمَا الْمَسْؤُلُ هُوَ الْحُكَّامُ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَرِّرُوا أَنفُسِهِمْ ، وَمَسْؤُلِيَّةُ الْمُبَرِّرِينَ .

وَقَدْ عَرَضَنَا لِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي قِسْمٍ مِنْ حَدِيشَنَا مَعَ الْمُؤْلِفِ ، وَتَبَهَّنَا عَلَى تَنَاقُضِ الْمُؤْلِفِ مَعَ نَفْسِهِ بَيْنَ مَا ذَكَرَهُ هُنَا وَبَيْنَ مَا ذَكَرَهُ عَنْ هَذَا الْمَوْضُوعِ فِي صَفَحَةِ (٢٣ - ٢٤) .

التُّوفِيقُ التَّعْسُفِيُّ :

فِي الصَّفَحَاتِ : (٥١ - ٥٧) نَدَدَ الْمُؤْلِفُ بِقَسْوَةِ وَسُخْرِيَّةِ عَنِ الْمُحَاوِلَاتِ الرَّاهِيَّةِ إِلَى تَقْرِيرِ أَنَّ بَعْضَ الْمُكَشَّفَاتِ الْعِلْمِيَّةِ الْحَدِيثَةِ قَدْ وَرَدَتِ فِي الْقُرْآنِ . وَنَقُولُ لِلْمُؤْلِفِ : أَنَّ الْمَبْدَأَ الْعَامَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ هُوَ أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ كِتَابًا فِي الْعُلُومِ ، وَلِذَلِكَ لَيْسَ الْمَطلُوبُ مِنْهُ أَنْ يَتَضَمَّنَ مَبَادِيَءُ عُلُومِ الطَّبِيعَةِ وَغَيْرَهَا ، وَإِنَّمَا هُوَ كِتَابٌ هُدَى وَنُورٌ ، يُقَوِّمُ السُّلُوكَ الْإِنْسَانِيَّ وَيَهْدِيهِ سَوَاءً

السبيل.

ولكن هذا المبدأ لا ينفي أبداً أنَّ في القرآن آيات كثيرة تتضمن إشارات واضحة جداً إلى حقائق علمية كشف العلم عنها بصورة نهائية. أنَّ الآيات التي أتحدث عنها لم تُسوق للتَّعبير عن الحقيقة العلمية بصورة مُباشرة، وإنما سبقت للتَّعبير عن أغراض أخرى تتعلق بالإنسان وسلوكيه، وقدرة الله الكلية ولكنها في طيات ذلك تُؤمِّي إلى الحقيقة العلمية. والملاحظة الأمينة المحايدة الوعية تكشف عن ذلك بوضوح. ولو كان المقام يتسع لذكر بعض الأمثلة لذكرتها.

إنَّ السخرية التي يلجأ إليها المؤلف لنفي الآراء التي لا تُعجبه لا تقوى على دفع هذه الحقيقة. لسنا مع أولئك المُتحمسين الذين يريدون أن يجعلوا من القرآن موسعة علمية، ولكننا أيضاً لا نوافق المؤلف على نفيه القاطع^(١).

التوفيق على الطريقة اللبنانيّة:

في الصفحات: (٦٩ - ٥٧) أستعرض المؤلف المحاولات المبذولة لإنشاء حوار إسلامي مسيحي في لبنان والعالم، وأعتبرها ظاهرة من ظواهر التفكير المحاول في أذهان المسؤولين عن شؤون الفكر الديني عامة وأهتماماتهم». ونقول: لسنا مع الأب (يواكيم مبارك) وغيره ممن يرون أنَّ يحصرُوا الحوار في «المقابلة اللاهوتية البحث» فذلك لا يجدي ولا يفيد.

المفروض أنه يوجد إسلام ويوجد مسيحية، وإنهما ديانان مختلفان فلا معنى

(١) أعظم صفة للقرآن عند الغربيين تميزه عن كتب الأديان الأخرى - أنه لا يتعارض مع العقل، والعلم، ولا يدعوا إلى الجمود، وأن تعاليمه تعكس إرادة الملائكة.

للمطالبة بوحدتها في كل شيء، وإلا لكانا ديناً واحداً. إن الحوار ينبغي أن يستهدف أكتشاف المبادئ الكبرى التي تجمعها، المبادئ الكبرى في السلوك وفي احترام الإنسان، وفي تيسير حركة التقدم الإنساني، والتعايش بين الأمم والجماعات الثقافية والدينية المختلفة.

إن الإسلام منذ ظهوره مُنفتح على المسيحية والمسيحيين، وتاريخه خلال العصور أعظم شاهد على افتتاحه، والمسيحية من خلال تطور الكنيسة تحاول الإنفتاح على الإسلام، ونأمل أن يترجم هذا الإنفتاح إلى دعم جهود العالمين الإسلامي والعربي بصورة واضحة وصريحة في المسألة الفلسطينية^(١).

تناقض:

بعد أن حارب المؤلف الدين من كل الوجوه، ونفي أنسسه على جميع المستويات، أبداً من أكبر قضاياه «وجود الله» إلى أبسط قضية دينية، بعد كل هذا عاد في صفة: (٧٨) إلى القول بأنه «لأ يريد نسخ الشعور الديني في تجارب الإنسان من الوجود».

ونتساءل: كيف لا يعترف بوجود الله، ويرفض وجود عالم غيبي، ومع ذلك

(١) لاحظ بزختنا عن الحوار الإسلامي المسيحي الذي نشر بعد كتابة هذه المطاراتات في جريدة السفير البالغة في حلقتين الأولى في العدد ١٧٠٨ (الأثنين ١٤ ربيع الأول ١٣٩٦ هـ = ١٩٧٦/٣/١٥ م) بعنوان (تأملات في صيغة الحوار الإسلامي المسيحي - أزمة الحضارة ومشروع جديد للحوار، والثانية في العدد ١٧٠٩ (الثلاثاء ١٦ ١٩٧٦/٣/١٦) بعنوان (تأملات في صيغة الحوار الإسلامي المسيحي - آفاق جديدة لعلاقات الحوار بين الديانات). (منه).

يُريد بقاء الشُّعور الديني، من أين يأتي الشُّعور الديني إذا لم يكن ثمة إله؟ . وهذا التناقض شبيه بما ذكره في أول كتابه في صفحة : (١٧) حيث فرق بين ظاهرتين للدين :

الأول - كونه «ظاهرة روحية نقية و خالصة على نحو ما نجدها في حياة قلة ضئيلة من الناس»، والدين بهذه الاعتبار ليس موضوعاً لنقد المؤلف.

الثاني - كون الدين «قوة هائلة تدخل في صميم حياتنا، وتؤثر في جوهر بنياننا الفكري والنفسي»، وهو بهذه الاعتبار موضوع لنقد المؤلف.

نَسَاءَلُ أَوَّلًا: لماذا أَعْفَى الدِّين بِالاعتبار الأَوَّل مِنْ نَقْدِه، هل ينسجم فِكْرُ المؤلف - وَهُوَ الماركسي اللينيني - مَعَ الظَّاهِرَةِ الَّتِي يُمْثِلُهَا هُوَ لَأَهْلِ الْقَدِيسُونَ وَالْمُتَصَوِّفُونَ وَبَعْضِ الْفَلَاسِفَةِ؟، وهل تُسِيرُ الْحَيَاةُ الرُّوحِيَّةُ لِهُوَ لَأَهْلِ الْذِينَ أَعْفَاهُمُ الْمُؤَلَّفُ مِنْ نَقْدِه إِلَّا عَلَى أَسَاسِ الْمَفْهُومِ الْإِلَهِيِّ وَالرُّوحِيِّ لِلْكَوْنِ؟ وَهُوَ مَفْهُومُ يَرْفَضُهُ الْمُؤَلَّفُ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا.

وَنَسَاءَلُ ثَانِيًّا: هل الدِّين بِالاعتبار الثاني الذي جَعَلَهُ الْمُؤَلَّفُ مَوْضُوعًا لنَقْدِه إِلَّا نَتْيَاجَ لِكُونِه ظَاهِرَةً رُوحِيَّةً؟ وهل هو بِاعتباره ظَاهِرَةً رُوحِيَّةً تَبَدُّو فِي حَيَاةِ قَلَّةِ ضَئِيلَةٍ إِلَّا السَّبِيلُ الْفَاعِلُ فِي الْحَيَاةِ الْإِجْتِمَاعِيَّةِ، وَالْفِكْرِيَّةِ لِجَمَاهِيرِ الْمُعْتَنِقِينَ لِلَّدَّيْنِ؟.

أَلَيْسَتْ هَذِهِ الْقَلَّةُ الضَّئِيلَةُ مِنَ النَّاسِ الَّتِي أَعْفَاهَا الْمُؤَلَّفُ مِنْ نَقْدِه هِيَ الَّتِي أَغْنَتَ الدِّينَ بِأَفْكَارِهَا وَتَأْمُلَاتِهَا، وَتَقْبِلَ الْمُجَتَمِعَ الْمُتَدَدِينَ هَذِهِ الْأَفْكَارُ وَالتَّأْمُلَاتُ فَجَعَلَهَا خَمِيرَةً لِثَقَافَتِهِ وَرُوحًا لِحَضَارَتِهِ.

أَنَّ هَذِهِ الْمُلَاحِظَةَ، وَأَمْثَالُهَا كَثِيرٌ، تَكْشِفُ لَنَا عَنْ مَدْى تَنَاقُصَاتِ الْمُؤَلَّفِ .

وَإِلَى الْلَّقَاءِ مَعَ قَصَّةِ الْمُؤَلَّفِ فِي قَصَّةِ إِبْلِيسِ .

قِصَّةُ إِبْلِيس

قصة إبليس

يجب أن يكون القرآن الكريم هو المادة الأساسية للبحث في قصة إبليس الإسلامية، لأن القرآن الكريم هو المصدر الأصيل الذي لا يرقى إليه الشك حول ملامح هذه القصة من وجهة النظر الإسلامية.

وعلى هذا فيجب أن يكون القرآن هو المادة الأساسية للمؤلف في بحثه الذي كتبه عن إبليس. ولا يجوز -في منطق المنهج العلمي- إعتماد مصادر أخرى غير موثوقة لهذه القصة، كما هو الشأن في كل بحث يتناول آية مسألة من مسائل المعرفة.

وإذن، فلليبحث في قصة إبليس صلة بعلم التفسير، وعلم الفقه، وعلم أصول الفقه: صلته بعلم التفسير من حيث أنه يتناول نصاً قرآنياً، وصلتها بعلم الفقه من حيث أنه يتناول -في النص القرآني- تكليفاً شرعياً بالسجود، تعلق بمخلوق معين هو إبليس، وصلته بعلم أصول الفقه من حيث أنه (بحث المؤلف) يحتاج إلى معرفة بالمصطلحات الخاصة بعلم الفقه والأدلة الشرعية لیستطاع التوصل إلى فهم صحيح للنص.

ومن الواضح أن على من يتناول بحثاً يتصل بعلم من العلوم أو بجملة من العلوم أن يكون على معرفة وافية بالمصطلحات التي تستخدمها هذه العلوم في

بيان مسائلها، وحل مشكلاتها.
ومن المؤسف أنَّ المؤلَّف غير خَبِير بالمضطلحات الخاصة بموضوع بحثه، وهَذَا مَا أدى به إلى الخطأ في فهمه لقصة إِبْلِيس ومحتواها الديني.

* * *

يُقُول المؤلَّف في صفحة (٨٣) : «أَنَّه يَدْرُس قِصَّة إِبْلِيس فِي إِطَار التَّفَكِير المثيُولوجي - الديني الناتج عن خيال الإنسان الأسطوري وملائكته الخرافية». ومن حق المؤلَّف أن يُعتبر قصَّة إِبْلِيس من المثيُولوجيا بعد أن كان لا يُؤمن بالله. ولكن ليس من حق المؤلَّف أن يصدر أحكاماً نهائية في مدلولات القصَّة وَهُوَ غير خَبِير بالمضطلحات الأصولية الفقهية التي وضعها الفقهاء والأصوليون للتمييز بين أنواع الحكم الشرعي والأمر الإلهي.
وليس من حقه أن يُحَوِّر القصَّة ويُمطّلِّطها ليجعل منها نموذجاً للأسطورة «العربية»، وليكسب لنفسه بطولة لا يستحقها في أنَّه كَشَفَ الجانب المأساوي من قصَّة إِبْلِيس - بينما الحقيقة أنَّه لم يكتشف شيئاً على الإطلاق، وإنما أضيق مفهوم الأسطورة بحداثة لا علاقة لها بالأسطورة والمنطق الأسطوري على الإطلاق.

وعليَّاً أنْ نُقدِّم بعض الملاحظات لنكشف مدى الخطأ الذي وقع فيه المؤلَّف من جهة، ولنتوصل إلى الفهم الصَّحيح لقصة إِبْلِيس من جهة أخرى.

مصادر المؤلَّف:

بالإضافة إلى النُّصوص القرآنية، استعان المؤلَّف في تكوين آرائه الخاصة

عن قصة إيليس الإسلامية بـ: *الحالج في كتاب الطوسيين* «طاسين الأزل - الأول - والإلتباس»^(١)، والمقدسي في كتاب «تفليس إيليس»^(٢)، وأبي حيّان التوحيدى، وبالأحاديث المسمّاة «الأحاديث القدسيّة» واعتماده في هذا المصدر على كتاب: «الإتحافات السنّية في الأحاديث القدسيّة».

هذه هي المصادر الأساسية التي أستند إليها المؤلف في تكوين آرائه الخاصة عن قصة إيليس الإسلامية، وأهمها عنده كتاب الطوسيين، وتفليس إيليس، ويمكن أن نضع القرآن - المصدر الأساسي الرئيسي - في مؤخرة مصادر المؤلف لأنّه لم يعط نصوصه الإهتمام نفسه الذي أعطاه للحالج والمقدسي.

وتشمل مصادر أخرى: ابن الجوزي في كتابه «تلييس إيليس»، والعقاد في كتابه «إيليس»، والطبرى في تفسيره، وهي - عند المؤلف كما يظهر من بحثه - مصادر ثانوية لا قيمة لها في تكوين آراء المؤلف وأستنتاجاته الأساسية، وتحليله لقصة إيليس الإسلامية.

ومصادر الأساسية للمؤلف - باستثناء القرآن - لا يمكن أن نوافق على اعتبارها مراجع يجوز الإعتماد عليها في فهم النص القرآني الذي هو المصدر الأساسي الوحيد لقصة إيليس الإسلامية.

فإن النصوص الصوفية وغيرها مما اعتمد عليه المؤلف لا تُعبر عن النّظرية الإسلامية الصافية البسيطة، فهي:

«أولاً»: تقع في خطأ عدم التمييز بين الأمر التشريعي والأمر التكويوني «كما

(١) انظر، الفهرست لابن النديم: ٢٤٢، سير أعلام النبلاء: ٣٥٣/١٤، هدية العارفين: ٣٠٥/١.

(٢) انظر، الأعلام: ٣٥٥/٣، كشف الظنون: ٤٦٣/١.

سَبُّبَيْنَهُ فِي الْفِقْرَةِ التَّالِثَةِ».

«وَثَانِيًّا» : أَنَّهَا تُعَبِّرُ عَنْ أَفْكَارٍ وَتَصْوِيرَاتٍ مُتَأثِّرةً بِعَقَائِدٍ غَرِيبَةٍ عَنِ الْإِسْلَامِ مُشَتَّمَدَةٌ مِنِ الْإِفْلَاطُونِيَّةِ الْحَدِيثَةِ وَغَيْرِهَا . وَعَلَى أَيِّ حَالٍ فَهِيَ ذَاتٌ مَنَابِعَ غَيْرِ إِسْلَامِيَّةِ .

وَأَمَّا الْأَحَادِيثُ الْمُسَمَّةُ «الْأَحَادِيثُ الْقُدُسِيَّةُ» فَأَغْلَبُهَا غَيْرُ إِسْلَامِيٍّ ، وَإِنَّمَا تَسَرُّبُ إِلَى التَّرَاثِ الْإِسْلَامِيِّ مِنْ مَصَادِرِ هِنْدِيَّةٍ ، وَفَارَسِيَّةٍ ، وَبِيُونَانِيَّةٍ ، وَإِسْرَائِيلِيَّةٍ وَنَصَرَانِيَّةٍ ، وَلِذَلِكَ لَا يُمْكِنُ أَعْتَبَارُهَا مُعبَّرَةً عَنْ وجْهَةِ النَّظَرِ الْإِسْلَامِيَّةِ الصَّافِيَّةِ . إِنَّ الَّذِي يُعَبِّرُ عَنِ النَّظَرِ الْإِسْلَامِيَّةِ - بَعْدِ الْقُرْآنِ - هُوَ السُّنْنَةُ النَّبُوَّيَّةُ الصَّحِيحَةُ الَّتِي تُثَبِّتُ لِلدَّرَاسَةِ النَّقْدِيَّةِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالسَّنْدِ وَالْمَتنِ ، وَالشُّكْلِ وَالْمَضْمُونِ ، أَيِّ لِمَانَضْطَلَحَ عَلَيْهِ بِالنَّقْدِ الْخَارِجِيِّ وَالنَّقْدِ الدَّاخِلِيِّ .

وَالْعَجِيبُ مِنِ الْمُؤَلَّفِ ، وَهُوَ يَدْعُونِي فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ تَقْدِيسُ الْعِلْمِ ، وَيَشْحُنُ كِتَابَهُ بِالْعَبَاراتِ الَّتِي يَنْعِي فِيهَا عَلَى مُخَالَفِيهِ فِي الرَّأْيِ أَنَّهُمْ لَا يَتَبَعُونَ «الْمَنْهَاجَ الْعِلْمِيِّ» فِي كَلَامِهِمْ - مِنْ الْعَجِيبِ أَنَّهُ هُوَ بِالِذَّاتِ يَتُرُكُ أَبْسِطُ مُقْتَضَياتِ الْمَنْهَاجِ ، وَهُوَ التَّأْكِيدُ مِنِ الْمَصَادِرِ الَّتِي يَعْتمِدُ عَلَيْهَا .

مَثَلًاً : مِنِ الصَّحِيحِ أَنْ نَعْتَبِرُ كِتَابَ الطَّوَاسِينَ مُعَبَّرًا عَنْ وجْهَةِ نَظَرِ الْحَلَاجِ بِالِذَّاتِ فِي قِصَّةِ إِبْلِيسِ ، وَذَلِكَ فِيمَا إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَكْتُبَ عَنْ شَخْصِيَّةِ الْحَلَاجِ وَآرَائِهِ ، وَأَمَّا أَنْ نَعْتَبِرُ آرَاءَ الْحَلَاجِ هِيَ آرَاءُ الْإِسْلَامِ ، وَفَهِمُ الْحَلَاجُ هُوَ وجْهَةُ النَّظَرِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، فَهَذَا خَطَأً كَبِيرًا يُدْرِكُهُ حَتَّى الْطَّلَابُ الَّذِينَ يَحْضُرُونَ أُطْرُوفَةَ الْلِّيْسَانِسِ حِينَ يَرْشَدُهُمُ أُسْتَاذُهُمُ الْمُشْرِفُ إِلَى نَوْعِيَّةِ الْمَصَادِرِ الَّتِي تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ مَادَةً لِلدَّرَاسَةِ الْمَنْوِيِّ إِنْجَازَهَا .

الحرية الداخلية:

إن البحث الذي أراده المؤلف حول قصة إبليس يبيّن على نظرية الجبر، وهي فكرة باطلة، وغير إسلامية.

في الإسلام: المخلوق العاقل حر، وهو الذي يقرر حريته وإختياره التام موقفه من الأشياء والأحداث. وإرادة الله تأتي في مرحلة متأخرة عن اختيار العبد. إن الفعل الإنساني يتم إنجازه نتيجة لاختيار المخلوق وحريته الداخلية مضافاً إليها -في مرحلة تالية- إرادة الله، وذلك وفقاً للمعادلة التالية:

$$\text{إرادة الإنسان} + \text{إرادة الله} = \text{الفعل}.$$

فالعقل مخلوق لا إرادة الله، ولكن ليس ابتداء، وإنما بعد أن يريد الإنسان ويقرره بتمام حريته، فهو -الفعل- نتيجة لعامل الحرية، يتلوه تدخل الإرادة الإلهية في خلق الموقف الذي يقرر الإنسان اتخاذه.

هذا تبسيط لنظرية أهل البيت عليهم السلام في مسألة حرية الإنسان وعلاقتها بالإرادة الإلهية، وذلك في النص الوارد عنهم: «لأ جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين»^(١)، فالملحوظ ليس مجبراً، لأننا بوجданنا ندرك ما نتمنى به من حرية داخلية مطلقة، والمخلوق ليس مفوضاً لا دخل لإرادة الله في خلق أفعاله، وفي

(١) انظر، الكافي: ١٦٠/١ ح ١٣، الإعتقادات: ٢٩، الأختجاج: ٢٥٣ و ١٩٨/٢، فقه الرضا: ٣٤٨، الوافي: ٥٢٥/١، تحف العقول: ٣٤٤ و ٣٤٦، الهدایة للشيخ الصدوق: ١٩، رسائل المرتضى: ١٢٥/١، عيون أخبار الرضا: ١١٤/٢ ح ١٧، روضة الوعاظين: ٣٨، مختصر بصائر الدرجات: ١٢٨، تصحیح آفتکارات الإمامیة: ٤٦، کنز العمال: ١٥٦٧ ح ٢٤٩/١، تاريخ آل زرارة: ١١٤/١، تاريخ دمشق: ١٨٢/٥١، كشف الغمة: ١٠٢/٣.

تَسْيِيرُ الْكَوْنِ، بَلْ إِرَادَةُ اللهِ حَاضِرَةً دَائِمًا، وَلَكِنْ فِي مَرْحَلَةٍ لَا حِقَّهُ عَلَى قَرَارِ الْعَبْدِ الَّذِي يَتَّخِذُهُ.

عَلَى هَذَا الضَّوءِ^(١) :

(١) الإِسْلَامُ دِينُ التَّوْحِيدِ، وَالْتَّوْحِيدُ هُوَ الْأَسَاسُ الَّذِي يَنْتَلِقُ مِنْهُ الْمُسْلِمُ فِي بَنَاءِ عِقِيدَتِهِ، وَبِدِونِهِ لَا يَكُونُ مُسْلِمًا. وَلِذَا كَانَ أَبْنَابَابِيَّهُ تَوَاقِعًا إِلَى دَفَعِ وَدَحْضِ التُّهْمَةِ الْقَائِلَةِ بِأَنَّ أَحَادِيثَ الْإِيمَانِيَّةَ مُتَضَارِبةٌ مَعَ التَّوْحِيدِ، وَلِذَا يَقُولُ فِي مُسْتَهْلِكِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ «إِنَّ الَّذِي دَعَانِي إِلَى تَأْلِيفِ كِتَابِي هَذَا أَنِّي وَجَدْتُ قَوْمًا مِنَ الْمُخَالِفِينَ يَتَّسِبُونَ عَصَابَتِنَا إِلَى القَوْلِ بِالتَّشْبِيهِ، وَالْجَبَرِ لِمَا وَجَدُوا فِي كُتُبِهِمْ مِنَ الْأَخْبَارِ الَّتِي جَهَلُوا تَفْسِيرَهَا وَلَمْ يَعْرِفُوا مَعَانِيهَا وَوَضَعُوهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا». ثُمَّ يَتَابِعُ كَلَامَهُ فَيَقُولُ: بِأَنَّ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ يَجُبُ أَنْ تُؤْوَلُ وَتُفَسَّرَ بِنَفْسِ التَّوْجِهِ السَّلِيمِ فِي تَأْوِيلِ الْفَرَائِنِ الْوَارِدَةِ حَوْلَ تَفْسِيرِ الْآيَاتِ الْقُرَآنِيَّةِ.

أَنْظُرُ، الْكَافِيُّ: ١/١٦٠ ح ١٣، الْأَعْتِقَادَاتُ: ٢٩، الْإِحْتِجاجُ: ٢٩/٢ و ٢٥٣، فِقْهُ الرَّضا: ٣٤٨، الْوَافِيُّ: ١/٥٣٥، تُحَفَّ الْعُقُولُ: ٣٤٤ و ٣٤٦، الْهَدَايَا لِلشَّيْخِ الصَّدُوقِ: ١٩، رَسَائلُ الْمُرْتَضِيِّ: ١/١٣٥، عَيْنُ أَخْبَارِ الرَّضا: ٢٤٤ و ٣٤٦، رَوْضَةُ الْوَاعِظَيْنِ: ٣٨، مُختَصَرُ بِصَانِرِ الدَّرَجَاتِ: ١٢٨، تَصْحِيحُ الْأَعْتِقَادَاتِ الْإِيمَانِيَّةِ: ٤٦، كَنزُ الْعَمَالِ: ١/٣٤٩ ح ١٥٦٧، تَارِيخُ آلِ زُرَارَةِ: ١١٤/١، تَارِيخُ دِمْشِقٍ: ٥١/١٨٢، كَشْفُ الْغُمَمَةِ: ٣/٢٠، كِتَابُ الْهَدَايَا لِابْنِ بَابِيَّهِ: ٥، مَجْمُوعَةُ فِي فُنُونِ مِنْ عِلْمِ الْكَلَامِ (مَخْطُوطٌ)، أَقْنَادُ الْبَشَرِ مِنَ الْجَبَرِ وَالْقَدْرِ، إِلَى رَسَائلِ الشَّرِيفِ مُرَاجِعَةُ أَخْمَدِ الْحُسَيْنِيِّ: ١٠٦، بُلُوغُ الْأَرْبَ وَكَنُوزُ الذَّهَبِ فِي مَعْرِفَةِ الْمَذْهَبِ: ٤٥٢، كِتَابُ التَّوْحِيدِ لِلشَّيْخِ الصَّدُوقِ: ١٧.

وَمَعْنَى الْجَبَرِ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا أَثْرَ لَهُ إِطْلَاقًا فِي أَفْعَالِهِ، وَإِنَّمَا هِيَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ تَمَامًا كَجَرَيَانِ الدَّمِ فِي عَرُوقَهِ، وَخُروجِ النَّفْسِ مِنْ أَنْفُهِ.

وَمَعْنَى التَّفْويِضُ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْعَبْدَ وَنَهَا، وَأَعْطَاهُ الْقُدْرَةَ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ، ثُمَّ فَوَضَّعَ إِلَيْهِ أَمْرَ هَذِهِ الْقُدْرَةِ يَفْعَلُ بِهَا مَا شَاءَ، وَقَطَعَ سُبْحَانَهُ كُلَّ عِلَاقَةٍ بِيَنْهِ وَبَيَّنَ هَذِهِ الْقُدْرَةَ بِحَيْثُ أَصْبَحَ اللَّهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ قُدْرَةً الْعَبْدَ بِعِيْدًا عَنْهَا تَمَامًا كَالْبَانِيُّ الَّذِي بَاعَ سِلْعَتَهُ لِلْمُشْتَريِّ يَفْعَلُ بِهَا مَا يُرِيدُ بِلَا مُزَاحِمٍ وَمُعَارِضٍ.

وَمَعْنَى «أَمْرٌ بَيْنَ الْجَبَرِ وَالْتَّفْويِضِ» إِنَّ اللَّهَ بَعْدَ أَنْ أَمَرَ الْعَبْدَ وَنَهَا مَنْحَةَ الْقُدْرَةِ وَلَمْ يَخْرُمْهُ إِيَّاهَا كَمَا زَعَمَ

أشتنتاج المؤلف في الصفحة : (١٠٥ - ١٠٦) وفي غير هذا الموضع من كتابه بأنَّ العباد من الناس والجن والملائكة مُجبرون مُسيرون، لا اختيار لهم، ولا يَمْعِثُون بأية حرية - هذا الإشتنتاج خطأ محض، ويُعبر عن وجهة نظر غير إسلاميَّه إطلاقاً. وأشتشهاد المؤلف بأية : «إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدْرٍ»^(١). أشتشهاد مضحك، فالقدر هنا ليس بالمعنى الذي فهمه المؤلف، وتعني الآية الكريمة أنَّ الأشياء (الكون كُله) مخلوق وفقاً لنظام معين ويسير نحو غاية معينة، وليس فوضى بلا هدف. ولا تعني الآية القدر في ماضٍ يطلع بعض علماء الكلام - أي مقابل الحرية .

وقد وقع المؤلف في هذا الخطأ نتيجة لعدم معرفته بالمصطلحات - كما

↳
الجبريون، ولكنَّه تعالى لم يعرض كُلية عن هذه القدرة ويقطع العلاقة بينه وبينها كما أدعى المفوضية، بل يقيس قدرة العبد في قبضة خالقه وتحت سلطته ينزعها من العبد متى شاء، والعبد لا يستطيع أن يرفض هذه القدرة، ويقول الله : لا أريدها، وأيضاً لا يستطيع إيقاؤها إذا أراد سبحانه أن ينزعها منه، وبهذا الإعتبار يكون العبد مسيراً لا مخيراً، وأيضاً بالقدرة التي منحها الله له يستطيع أن يفعل ويترك ويكون من هذه الجهة مخيراً لا مسيراً، ومعنى هذا أنَّ العبد مسيير من جهة، ومخير من جهة، هذا هو معنى بينَ بينَ، وأمر بينَ أمرين .

وللتوسيع تقدَّم هذا المثال : أَبُّ قويٌّ مسيطر على ولده أَعْطَاه مالاً، وَقَالَ لَهُ : أَتَجِزِّيهُ ، فَأَخْذَ الولد المال لأنَّه لا يستطيع رفضه بحال، وأيضاً لا يستطيع الاختفاظ به إذا أراد نزعه منه، ولكنَّ قادر على الإشجار به وفقاً لازادة أبيه، وأيضاً هو قادر أن يُجمِّد المال ولا يتاجر به، ومعنى هذا أنَّه مسيير في رفض المال وإيقائه، ومخير في التجارة وعدهما . وهكذا القدرة التي منحها الله للإنسان، أنها في الإنسان يفعل بها ويترك، ولكنَّها في الوقت نفسه في قبضة الله أيضاً تماماً كالمال الذي أُعطيه الوالد لولده، ومن أراد المزيد فليرجع إلى كتاب «فلسفة التوحيد والولاية». انظر، في ظلَّ الْهُجُّ البَلَاغَةُ شرح العلامة الشيخ محمد جواد مغنية : ٦/١١٧، بتحقيقنا، بتصرُّف».

سَتَعْرُفُ فِي فَقْرَةِ تَالِيَّةٍ - وَتَتِيْجَهُ لِأَعْتَمَادِهِ عَلَى مَصَادِرٍ لَا تُعْبَرُ عَنْ وجْهَةِ النَّظرِ الْقُرْآنِيَّةِ بِصُورَةٍ صَحِيحةٍ ، كَمَا عَرَفْتُ فِي الْفِقْرَةِ السَّابِقَةِ^(١) .

(١) إِنَّ مَسْأَلَةَ الْجَبَرِ وَالتَّفْوِيْضِ لَهِيَ مِنْ أَهْمَّ الْمَسَائِلِ النَّظَرِيَّةِ وَأَقْدَامِ الْمُعْتَقَدَاتِ الَّتِي وَقَعَتْ مَحَلًا لِمَعْرِكَةِ الْآرَاءِ وَضَلَّتْ لِشِدَّةِ غَمُوضِهَا الْعُقُولُ ، وَالْأَفْكَارُ ، وَهِيَ مِنْ أَهْمَّ الْأَسْبَابِ لِتَشَعُّبِ الْمَذَاهِبِ وَتَسْعُّدِ الْفِرَقِ ، وَالْمُوجَبُ لِتَكْفِيرِ أُمَّةٍ أَخْتَهَا رَغْمَ الرَّوَابِطِ الْدِينِيَّةِ الَّتِي تَرْبَطُهَا مِنْ جِهَةِ أُخْرَى ، وَقَدْ مَلَأَتْ جَانِبَيْهَا عَظِيمًا مِنْ كُتُبِ التَّأْلِيفِ وَالتَّصْنِيفِ ، وَنَالَتْ حَظًّا وَافِرًا مِنَ الْبَحْثِ ، وَالْتَّدْرِيسِ وَالْجَدَلِ عِنْدَ الْفَلَاسَفَةِ ، وَالسَّالِكِينَ مَسْلِكَهُمْ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَبَعْدَهُ ، فَقَنَ رَجَعَ إِلَى كُتُبِ الْحِكْمَةِ وَالْكَلَامِ وَالْأَخْلَاقِ ، وَأَصْوُلِ الْفِقْهِ يَجِدُ الْأَشْعَرِيُّ الْمُعْتَنِقُ لِعَقِيْدَةِ الْجَبَرِ ، وَالْمُعْتَرِلِيُّ الَّذِي يُدِينُ بِالْتَّفْوِيْضِ قَدْ أَتَى بِالكَثِيرِ مِنَ الْمُقَدَّمَاتِ الْبُرُورِيَّةِ وَالنَّظَرِيَّةِ الَّتِي تَسَلَّفُ مِنْهَا الْبَرَاهِينُ الْقَطْعِيَّةُ بِزَرْعِ الْمُسْتَدِلِ ، وَالْأَقِيْسَةُ الْعَقْلِيَّةُ ، وَالْأَدَلَّةُ السَّمْعِيَّةُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنْنَةِ ، ثُمَّ يَكْرَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى طَرِيقَةِ الْعُرْفِ وَسِيرَةِ الْعُقْلَاءِ ، فَيُضَرِّبُ الْأَمْثَالَ مِنْ مُعَالَمَةِ الْمَوَالِيِّ مَعَ عَبِيدِهِمْ وَيُؤْوِلُهَا حَسْبَ مَا يُوَافِقُ مَطْلُوبَهُ ، هَذَا ، وَهُوَ يَحْسَبُ أَنَّهُ قَدْ أَحْسَنَ صُنْعًا بِتَحْمِيْصِ الْحَقِّ وَالْإِهْتِدَاءِ بِنُورِهِ ، وَدَخَلَ الْبَاطِلَ وَالْخُرُوجَ مِنْ ظُلْمَتِهِ ، وَكَشَفَ الْأَسْرَارَ الْفَامِضَةَ الْدَّقِيقَةَ بِالْطُّرُقِ الصَّحِيحةِ وَالْأَدَلَّةِ الَّتِي لَمْ يَهْتَدِ إِلَيْهَا أَهْلُ الْعُقُولِ وَالْأَنْظَارِ .

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ مَا أَسْتَندَ إِلَيْهِ كُلُّ مِنَ الطَّاغَتَيْنِ لَوْ تَوَجَّهَتْ نَحْوُهُ الْعُقُولُ وَأَعْطَتْهُ خَقَّ الْإِمْعَانِ ، وَالْتَّأْمِلِ لِجَعْلَتِهِ هَبَاءً وَحَكَمَتْ عَلَيْهِ أَنَّهُ تَطْوِيلٌ بِلَا طَائِلٍ ، وَأَنَّهُ أَدَلُّ دَلِيلٍ عَلَى أَرْتَبَكَ الْمُسْتَدِلِ وَخَطْنَهِ حَيْثُ عَدَ الشُّبُهَةَ دَلِيلًا ، وَالْعَلِيلَ صَحِيحاً ، وَجَزِمَ أَنَّ الْهَدَفَ الَّذِي يَرْمِي إِلَيْهِ وَالْغَايَةَ الَّتِي يُخَاهِلُ إِثْبَاتَهَا إِنَّهُ هِيَ الْأَصْحَاحَ عَقِيْدَتِهِ الَّتِي غَرَسَتْ بِذَرَهَا فِي نَفْسِهِ يَدَ الْوَرَاثَةِ ، وَتَأَصَّلَتْ جُذُورُهَا فِي أَعْمَاقِ قَلْبِهِ بِتَكْرَارِ الْنَّظرِ وَطُولِ الْمُمارِسَةِ لِمَا سَطَرَ (الْكِرَامُ) الْكَاتِبُونَ مِنْ أَسْلَافِهِ ، وَزَيَّنَهَا لَهُ أَسَاتِذَتِهِ وَشَيْوُخِهِ بِبَرَكَةِ تَلَقِّيَّتِهِمْ إِيَّاهُ ، وَتَقْلِيَّدِهِ إِيَّاهُمْ وَشَعَبَتْ فُرُوعُهَا بِمُعَاشَرَةِ قَوْمِهِ ، وَإِلَقَةِ صُحبَتِهِ الَّذِينَ يَقْدِسُونَ هَذِهِ الْعَقِيْدَةَ ، وَبَرِونَهَا أَصْلًا مِنْ أَصْوُلِ دِيْنِهِمُ الَّذِي يُوجِبُ عَلَيْهِمْ رِعَايَتِهَا وَالتَّعْبُدُ بِهَا ، وَيَتَحَمَّلُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يُصْحِحَ عَقِيْدَتِهِ بِكُلِّ طَرِيقٍ وَلَوْ كَانَ فَاسِدًا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَالْوَاقِعِ ، وَيُبَطِّلُ مَا يَتَنَافِيَهَا وَلَوْ كَانَ حَقًّا ، فَيَسْتَهِدُ بِهِ بُورَدُ الْأَدَلَّةِ وَيَكْرَ عَلَى حُجَّةِ خَصْمَهُ فَيُعَارِضُهَا بِالْمِثْلِ أَوْ يَطْعَنُ فِي صُغرِيَّ قِيَاسِهِ أَوْ كُبُرَاهُ يَسْتَشَهِدُ بِالْأَخْبَارِ النَّبُوَيَّةِ (الرَّاءُ الدُّلُّ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْطَّرِيقَةِ كَالشَّاهِرِ سَيِّدِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَأَهْلِهَا مَجُوسُ هَذِهِ الْأَمْمَةِ) ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكِ .

إِنَّ الْمَسَأَلَةَ عَقْلِيَّةٌ وَلَيْسَ لِلْسَّمْعِ أَقْلَ مَسَاسٍ فِيهَا ، فَلَا يَصْحُ التَّمَسُكُ بِظَوَاهِرِ الْكِتَابِ وَالسُّنْنَةِ فِي مِثْلِهَا

إثباتاً أو نفيّاً، فإنَّ المُتعين أولاً النَّظر إلى حُكم العُقُول وتشخيصه عما عدَاه على نحو لا يقع فيه الإشتباه والرَّيْب، ثُمَّ النَّظر إلى اللُّفْظ الثَّابِت عنِ الْحَكِيمِ، فَإِنْ كَانَ مُوافِقاً بظاهرِه لِحُكمِ العُقُولِ كَانَ مُقرَراً لهُ، وإنَّهُ وجَب تأويلاً بما يوافق العُقُولِ، كما هُوَ المعْرُوفُ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ وَضَرورَاتِهِ، وَمِنْ هُنَا تَعْرُفُ مَحْلَ الخطأ في قولِ الْقَائِلِينَ أَنَّ الْأَحْكَامَ الْقُلْبِيَّةَ ساقِطَةٌ عَنِ الْإِعْتِبَارِ، إِنَّ المُتعين حَضَرَ الْمَدَارِكُ، وَالْأَدَلةُ بِالسَّمْعِ فَقَطَ مُسْتَدِلِّينَ عَلَى ذَلِكَ بِحُكْمِ الْعُقُولِ بِصَحةِ الْجَبَرِ وَالتَّقْوِيَّضِ مَعًا، مَعَ أَنَّ تَنَافِيَهُمَا مِنِ الْبَدِيهَاتِ.

فَمِنْ حُكْمِهِ بِصَحةِ الْأُمُورِ الْمُضَادَةِ يَسْتَكْشِفُ سُقُوطُهِ عَنِ الْإِعْتِبَارِ وَعَدَمِ جُوازِ الْإِعْتمَادِ عَلَيْهِ.

وَالْحَقُّ أَنَّ أَرْبَابَ هَذِهِ الْعِقِيدَةِ هُمُ السَّاقِطُونَ عَنِ الْإِعْتِبَارِ لِأَعْقُولِ الَّذِي يَكُونُ الْإِنْسَانُ بِهِ إِنْسَاناً يَمْتَازُ عَنِ سَائِرِ الْحَيَاَتِ، فَإِنَّ الْحُكْمَ يَعْدَمُ إِجْتِمَاعُ الْمُسْتَافَعِينَ الَّذِينَ لَا جَامِعٌ لَّيْتَهُمَا، وَلَا وَحدَةٌ تَرْبِطُهُمَا مِنَ الْمَعْلُومَاتِ الْبَدِيهَيَّةِ، وَالْمُرْتَكَزَاتِ الْفِطْرَيَّةِ، وَبَعْدَ أَنْ كَانَ الْجَبَرُ وَالتَّقْوِيَّضُ مُتَعَانِدَيْنَ ذَاتَيْنَ فَكَيْفَ يُشْكِنُ صُدُورُ الْحُكْمِ مِنَ الْعُقُولِ بِصَحَّتِهِمَا مَعًا، وَجَرَمَهُ بِتَحْقِيقِ كُلِّ مِنْهُمَا، وَهُلْ هُوَ إِلَّا نَظِيرُ الْقَطْعِ بِالْوُجُودِ الْعَدْمِ فِي مَحْلٍ وَاحِدٍ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يُرِيكُ فِيهِ، وَإِنَّمَا الْكَلَامُ فِي أَنَّ الْجَبَرَ وَالتَّقْوِيَّضَ، هَلْ هُمَا ضَدَّانَ لِأَثَالِثِ لَهُمَا يَعْنِي أَنَّ الْوَاقِعَ لَا يَخْلُو مِنْ أَحدهُمَا، فَكَمَا أَمْتَشَعُ الْعُقُولُ عَنِ الْحُكْمِ بِصَحَّتِهِمَا كَذَلِكَ لَا يَحْكُمُ بِيَطْلَانِ كُلِّ مِنْهُمَا، بَلْ لَا تَجِيدُهُمَا أَخْدُوهُمَا وَطَرَحُ الْآخَرِ، إِنَّمَا الْجَبَرُ وَإِنَّمَا التَّقْوِيَّضُ نَظِيرُ الْحَرْكَةِ وَالسُّكُونِ، فَإِنَّ أَرْتَفَاعَهُمَا عَنِ الْجِسْمِ مُحَالٌ كِجَنْتَاعَهُمَا، أَوْ أَنَّ هُنَاكَ وَاسْطَةٌ فِي الْبَيْنِ فَلَا مَانِعٌ مِنْ قَبْلِ الْعُقُولِ بِشَبُوتِ أَمْرِ ثَالِثٍ، وَإِنَّمَا الْمُسْتَحِيلُ فِي نَظَرِهِ هُوَ الْحُكْمُ بِصَحةِ الْجَبَرِ وَالتَّقْوِيَّضِ مَعًا لَا يُبَطِّلُهُمَا، كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي السَّوَادِ وَالْبَيْاضِ، فَإِنَّهُمَا لَا يَشْغَلَاَنَ مَعًا حَيْزًا وَاحِدًا فِي آنِ وَاحِدٍ، وَلَكِنَّ لَا بَأْسَ بِإِرْتَفَاعِهِمَا وَكَوْنِ الْمَحْلِ مَشْغُولاً بِلَوْنِ ثَالِثٍ، وَهَذِهِ التَّأْحِيَّةُ هِيَ الَّتِي تَهْمَمُ أَكْثَرَ مِنْ جِهَةِ تَسْلُقِ بِهِذَا الْمَوْضُوعِ.

فَنَقُولُ: إِنَّ أَئِمَّةَ الْهُدَى: قَدْ كَشَفُوا النَّاعِنَ وَجْهَ الْحَقِّ وَأَهْتَدَيْنَا بِكَلَامِهِمْ إِلَى الْحَقِيقَةِ الَّتِي يَسْتَصْوِبُهَا الْعُقُولُ، وَهُوَ حَاكِمُ بِفَسَادِ الْجَبَرِ وَالتَّقْوِيَّضِ بِالْمَعْنَى الَّذِي تَذَكَّرُ لَهَا تَيْنِ الْلُّفْظَيْنِ، وَصَحَّةُ أَمْرِيَّتِيْنَ الْأَمْرَيْنِ.

أَمَّا الْجَبَرُ الَّذِي يَنْفِيِ الْعُقُولَ فَهُوَ حَمَلُ الْعَبْدِ عَلَى الْفِيْغَلِ وَالْتَّرْكِ بِالْقَسْرِ وَالْغَلْبَةِ عَلَى وَجْهِ لَا يَكُونُ لِلْعَبْدِ قُدْرَةَ التَّشْلِيقِ وَلَا قُوَّةَ الْإِمْتَاعِ، وَالْتَّحْصُنُ فَإِيجَادِ فِيْغَلِ الْعَبْدِ فِيهِمْ كَإِيجَادِ الشَّمْرَةِ فِي الشَّجَرَةِ، وَالْجَرِيَانِ فِي الْمَاءِ، وَلَا يَرِدُ هَذَا القَوْلُ حَذْفَ لَفْظِ الطَّاعَةِ وَالْعُصَيَانِ وَالْمَشِيَّةِ، وَكُلَّ كَلْمَةٍ تُشَعِّرُ بِالْإِخْتِيَارِ أَوْ يَتَوَقَّفُ مَعْنَاهَا عَلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ الْلُّغَاتِ فَإِنَّهُ لَا طَاعَةَ بِإِكْرَاهٍ وَلَا مَشِيَّةَ مَعِ إِجْمَاعٍ، وَمَنْ ذَهَبَ

⇒ هذا المذهب أراد أن يثبت الله تعالى القدرة فأثبت له الظلم والسوء والكذب «وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ». آل عمران: ١٨٢.

وأما التفويض الباطل فهو أن الله تعالى: (أوجَدَ العبادَ وَأَقْدَرَهُمْ وَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَعْتَالِهِمْ صُنْعًا) وعلى هذا المسلك يتبعني أن يرضى الله تعالى بكل ما يفعله عبده ولا يؤخذ منه بشيء، مما يفعل، وقد حاول القائل به إثبات العدل الله فعزله عن سلطانه وشاركه في خلقه - «يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةً غُلْتُ أَيْدِيهِمْ» المائدة: ٦٤. - وزعماً يكون لصحة هذا القول وجه، وهو أن العباد قد إجتمعوا بأسرها وتجهزت وأتفقت يداً واحدةً وتظاهرت على خالقها وأظهرت التمرد، والعصيان وطلبوا منه الاستقلال الشام ففوض إليهم الأمر وأجر لهم على ميشيتهم بعد أن عجز عن تطويهم.

وإذا كان العقل حاكماً بقداسه هذا الإفراد، وذلك التفريط شعراً القول الفضل وهو صحة الأمر بين الأمرين، ولا تقصد منه أن فعل العبد مستند إلى قدرته وقدرة الله تعالى، وأنهما قد تعاونا معاً على إيجاده، فإن ذلك ليس بأقل محدوداً من القول بالجبر، وهل يحسن العقاب من الباري تعالى على معصية كان هو أحد الفاعلين، وأقوى الشركين، وإنما تعني بالأمر بين الأمرين أن الله تعالى أقدر الخلق على أعمالهم وتمكنهم من أفعالهم، فهم يملكون الإمكانية، لكن هو الممتلك، ثم أمرهم بالخير، ونهياهم عن الشر، ووعدهم بالثواب على الأول، والعقاب على الثاني، فإذا قتل العبد الخير والطاعة فينسب هذا الفعل إلى الله تعالى، لأن العبد فعله بالقدرة التي ملكها من خالقه، وأنه قد رضي الله وأمره به، وينسب أيضاً إلى العبد لأنه قد اختار الخير مع قدرته على الشر، وأما إذا اختار فعل الشر وأتي به العبد فإنه وإن فعله بالقدرة من الله تعالى إلا أنه مع ذلك لا ينسب الشر إلى الله، بل هو مستند إلى العبد وحده والله الحجة عليه، حيث أنه لم يرض بفعل الشر، بل نهاه عنه، فالخير من الله تعالى لريضاه به وإقدار العبد عليه، حيث أقدره على الخير والله الحجة لو فعل العبد الشر، لعدم الرضى.

وإنما بإعطاء القدرة على المعصية والشر مع عدم الرضى بهما حذر من الإلحاد، فإن المعصية إذا لم تكن مقدورة للعبد وكانت الطاعة تصدر منه رغم اعنة لها استحق مدخلاً ولا ثواباً، فإن الفضل يظهر بالامتحان، فلا جبر على المعصية لأن الله كما أقدرها عليها فقد أقدرها على الطاعة، وترك العصيان، ولا تفويض لأن الله تعالى لم يترك الأمر إلى مشيئة العبد وإختياره، حيث نهاه عن الشر ورجره عنه، هذا هو المقتصود من الأمر بين الأمرين الذين عابوا الشيعة به وأخذوههم عليه، والذي يدل ذلك على صوابه وأنه

⇒

الأمر التَّكْويني والأمر التَّشريعي :
إنَّ الْأَمْرَ الْإِلَهِي يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنْ : أَمْرٌ تَكْويني ، وَأَمْرٌ تَشْرِيعي .

الإِرَادَةُ التَّكْوينِيَّةُ = الْأَمْرُ التَّكْويني :
إنَّ الْأَمْرَ التَّكْويني يَتَعَلَّقُ بِالْأَفْعَالِ وَالْأَشْيَاءِ الْمَنْسُوبَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِصُورَةٍ مُبَاشِرَةٍ . هَذَا هُوَ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ فِي الْقُرْآنِ فِي جُمْلَةِ مَوَاضِعٍ : «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»^(١) .

وَالإِرَادَةُ التَّكْوينِيَّةُ قَدْ تَعَلَّقُ بِوْجُودِ شَيْءٍ ، وَقَدْ تَعَلَّقُ بِوْجُودِ شَيْءٍ مَا (بِمَعْنَى أَنَّهُ يُرَادُ عَدَمُه) وَقَدْ يَكُونُ شَيْءٌ لَا تَعَلَّقُ بِهِ الإِرَادَةُ التَّكْوينِيَّةُ مِنْ حَيْثُ وُجُودُهِ وَلَا مِنْ حَيْثُ عَدَمِهِ .

وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نَفْهَمَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ إِذَا لَاحَظَنَا مَوَاقِفَنَا نَحْنُ مِنَ الْأَشْيَاءِ وَالْأَحْدَاثِ (وَهَذَا مُجَرَّد مِثَالٌ لِتَوْضِيحِ الْفِكْرَةِ) فَثَمَّةُ أَشْيَاءٌ نُرِيدُهَا ، فَنَسْعِي فِي سَبِيلِ تَحْقيقِهَا وَإِيْجَادِهَا . وَثَمَّةُ أَشْيَاءٌ لَا نُرِيدُهَا (نُرِيدُ عَدَمَهَا) فَنُكَافِحُ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ ، وَنَسْدِدُ

هُوَ الْمُتَعَيْنُ فِي نَظَرِ الْعُقْلِ دُونَ سُوَاهُ مُضَافًا إِلَى مَا يَيْنَاهُ أَنَّ الْإِيمَانَ الرَّازِيَّ ، وَهُوَ أَحَدُ الْأَقْطَابِ الْمُسْتَضْرِبِينَ لِمَذَهَبِ الْجَبَرِ فَإِنَّهُ رَغْمَ ذِكْرِهِ مَسْأَلَةُ الْجَبَرِ فِي تَفْسِيرِهِ مَا يَقْرَبُ عَنْ عِشْرِينَ مَرَّةً . وَفِي كُلِّ مِنْهَا يَقِيمُ الْأَدْلَةُ وَالْبَرَاهِينُ عَلَى صَحَّةِ الْجَبَرِ وَبَطْلَانِ غَيْرِهِ قَدْ أَعْتَرَفَ فِي أَحَدِ الْمَقَامَاتِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ بِقَسَادِ الْجَبَرِ وَالتَّفْوِيْضِ ، وَصَحَّةُ الْأَمْرِ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ قَالَ فِي تَفْسِيرِهِ : (إِنَّ القَوْلَ بِأَنَّ الْعَبْدَ لَيْسَ لَهُ قُدْرَةً وَلَا إِخْتِيَارًا جَبَرٌ مَحْضٌ ، وَالْقَوْلُ بِأَنَّ الْعَبْدَ مُسْتَقْلٌ بِأَفْعَالِهِ قَدْرٌ مَحْضٌ ، وَهُمَا مَذْمُومَانِ وَالْعَدْلُ أَنْ يَقَالَ ، إِنَّ الْعَبْدَ يَفْعَلُ الْفِعْلَ وَلَكِنْ بِوَاسْطَةِ قُدْرَةٍ وَدَاعِيَةٍ يَخْلُقُهَا اللَّهُ فِيهِ) . أَنْظُرُ ، الشِّيَعَةُ فِي الْمِيزَانِ مُحَمَّدٌ جَوَادٌ مُعْنَيَّةٌ : ٥٦١ ، بِتَحْقِيقِنَا ، تَفْسِيرُ الْفَخْرِ الرَّازِيِّ : ٢٥٥ / ٥ .

عَلَيْهَا جَمِيعَ مَنَافِذِ الْوِجُودِ بِحَسْبِ مَا نَسْتَطِيعُ . وَالْفَرْقُ بَيْنَ إِرَادَتِنَا وَإِرَادَةِ اللَّهِ هُوَ أَنَّ إِرَادَتِنَا كَثِيرًا مَا تَحْفَقُ فِي تَحْقِيقِ رَغْبَاتِنَا ، وَإِرَادَةُ اللَّهِ تَسْتَحْقَقُ دَائِمًا ، وَأَنَّ شَمَّةَ رَغْبَاتِنَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْنَا تَحْقِيقَهَا ، وَلَا يَسْتَحِيلُ عَلَى إِرَادَةِ اللَّهِ شَيْءٌ .

عَلَى هَذَا الضَّوءِ :

آ - إِذَا أَرَادَ اللَّهُ وَجُودَ شَيْءٍ تَكُونِيَّنَا فَلَا يَبْدَأُ أَنْ يُوجَدُ ذَلِكُ الشَّيْءُ .

ب - إِذَا لَمْ يَرِدَ اللَّهُ وَجُودَ شَيْءٍ تَكُونِيَّنَا (أَرَادَ عَدَمَهُ) فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُوجَدُ ذَلِكُ الشَّيْءُ ، لِأَنَّهُ يَكُونُ مُسْتَحِيلًا .

وَهَذَا الْمَوْرِدُانِ هُمَا مَجَالِ عَمَلِ الْإِرَادَةِ التَّكْوِينِيَّةِ الْمُبَاشِرَةِ الَّتِي لَا تَخْلُفُ عَنِ الْمُرَادِ ، وَيَقْنُو مَوْرِدُ ثَالِثِ لِلْإِرَادَةِ التَّكْوِينِيَّةِ تَعْمَلُ فِيهِ بِصُورَةِ غَيْرِ مُبَاشِرَةِ ، وَإِنَّمَا يَتَبعُ إِرَادَةَ الْعَبْدِ . وَهَذَا الْمَوْرِدُ يَتَضَعُّ لَنَا عِنْدَ بَيَانِ الْأَمْرِ التَّشْرِيعِيِّ :

الْإِرَادَةُ التَّشْرِيعِيَّةُ = الْأَمْرُ التَّشْرِيعِيُّ :

إِنَّ الْأَمْرَ التَّشْرِيعِيَّ (أَوِ النَّهْيِ التَّشْرِيعِيَّ) هُمَا الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ الْمُتَعَلِّقَانِ بِأَفْعَالِ الْعِبَادِ (الْإِنْسَانِ وَالْمَلَائِكَةِ ، الْجِنِّ ، وَمِنْهُمْ إِبْلِيسُ) وَفِعْلِ الْعَبْدِ (أَوْ تَرْكِهِ) مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ الْعَبْدُ حَقِيقَةً ، فَهُوَ الَّذِي يَفْعُلُ ، وَهُوَ الَّذِي يَتَرْكُ ، وَيَتَمْتَعُ بِالْحُرْيَّةِ الْمُطْلَقَةِ فِي إِطَاعَةِ الْأَمْرِ الْإِلَهِيِّ وَالنَّهْيِ الْإِلَهِيِّ وَعَصِيَانِهِمَا . وَلَكِنَّ الْعَبْدَ عَاجِزٌ عَنِ خَلْقِ أَفْعَالِهِ بِنَفْسِهِ ، فَهُوَ يُمَارِسُ حُرْيَتِهِ بِمَعْوِنَةِ الْإِرَادَةِ الْإِلَهِيَّةِ ، فَإِذَا قَرَرَ الْعَبْدُ مَوْقِفًا مُعَيْنًا مِنْ شَيْءٍ (وَالْعَبْدُ يُمَارِسُ حُرْيَتِهِ بِمَطْلَقَةِ فِي اتِّخَادِ قَرَارِهِ بِدُونِ تَدْخُلِ لِلْإِرَادَةِ الْإِلَهِيَّةِ) حِينَئِذٍ - وَبَعْدَ أَنْ يَتَخَذَ الْعَبْدُ قَرَارَهِ يَأْتِي دَوْرُ الْإِرَادَةِ الْإِلَهِيَّةِ فِي تَحْقِيقِ قَرَارِ الْعَبْدِ بِإِعْانَتِهِ عَلَى جَعْلِ قَرَارِهِ النَّظَرِيِّ نَافِذًا فِي الْوَاقِعِ . وَبِهَذَا يَتَأَكَّدُ مَبْدَأُ الْحُرْيَّةِ ، إِذْ

بدون تحقيق إرادة العبد تبقى حرّيته نظرية لا قيمة لها.

وقد بینا هذه الحقيقة في مطلع هذا البحث عند حديثنا عن الحرية الداخلية أنَّ الله كلف العباد، وأمرهم بالطاعة، واعطاهم الحرية، وجعلهم مسؤولين عن كيفية ممارستهم لحرّيتهم، فإذا قرروا الطاعة فهم أحرار في اتخاذ هذا القرار، وإذا قرروا المغصية فهم أحرار في اتخاذ هذا القرار، ويتحملون مسؤوليته، ولأنَّ تتحقق لهم حرّيتهم الكاملة تتدخل الإرادة الإلهية في تنفيذ قراراتهم التي اتخذوها^(١).

على هذا الضوء نصل إلى النتائج التالية:

- ١ - الإرادة التكوينية (يسمى بها المؤلف «المسيئة») مجال عملها عالم الأشياء.
- ٢ - الإرادة التشريعية (الأمر التشريعي) مجاله أفعال العباد، ولا دخل للإرادة التكوينية فيه إلا بالنحو الذي بيناه، وهو كما قلنا لا يتعارض مع مبدأ الحرية، بل يؤكد مبدأ الحرية، ويجعله واقعاً عملياً معاشاً.

(١) قال الإمام علي عليه السلام في الخطبة (١٦٠): (أمره قضاء وحكمته). المراد بأمره تعالى إرادة التشريعية، والتكمينية، والأولى أمره تعالى ونهيه، والثانية قوله للشيء: كُن فيكون، ومعنى قضاء التشريع إبرامه، وجوب طاعته، وتنفيذ بلا اعتراض، أو تعديل، والمراد بحكمته سبحانه أن القبح ينتهي في حقه: «ربنا ما خلقت هذا بطلاء». آل عمران: ١٩١. (ورضاهأمان ورحمة). وأقرب السبل إلى الله رضوانه رحمة، والأمان من غضبه، وعذابه - العمل الصالح العام، قال سبحانه: «والعمل الصالح ينفعه» فاطر: ١٠... أبداً ليست البطولات، ولا الانتصارات، ولا العبريات - بشيء عند الله إلا إذا ترك الإنسان شيئاً جديداً، ومفيداً لأخيه الإنسان (يفضي بعلم) أي الشيء الذي يقضي به هو حق، وخير، لأنَّه يعلم حقيقتهما، ومواردهما (ويتفق بعلم) ولا يخشى من العواقب إذا أدب، وعذب. انظر على سبيل المثال: الكافي: ١٥١/١ ح ٤، أجود التقريرات للسيد الخوئي: ٩٢/١، تفسير الميزان: ٣١٢/١٦، فضل آل البيت للمقرئي: ٨٩.

٣ - لِأَنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْإِنْسَانَ حُرًّا، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَأْمُرَهُ بِشَيْءٍ تَشْرِيعًا، وَيُرِيدُ مِنْهُ خِلَافَهُ تَكْوِينًا، بَلْ إِذَا أَمْرَهُ بِشَيْءٍ تَشْرِيعًا يَتَرُكُ لَهُ حُرْيَةُ اتَّخَادِ قَرَارَهُ، وَيَنْفَذُ لَهُ قَرَارَهُ الَّذِي اتَّخَذَهُ.

وَمِنْ هُنَّا يَتَضَعَّ مَدْى الْخَطَا الَّذِي وَقَعَ فِيهِ الْمُؤْلِفُ حِينَ قَالَ فِي صَفَحَةٍ (٨٩) : «...لَقَدْ شَاءَ اللَّهُ وَجُودُ أَشْيَاءٍ كَثِيرَةٍ غَيْرَ أَنَّهُ أَمَرَ عِبَادَهُ بِالْإِبْتِعَادِ عَنْهَا، كَمَا أَنَّهُ أَمَرَهُمْ بِأَشْيَاءٍ وَلَكِنَّهُ أَرَادَهُمْ أَنْ يُحَقِّقُوا أَشْيَاءً أُخْرَى».

* * *

عَلَى ضَوءِ هَذِهِ الْمُلَاحَظَاتِ نَسْرِحُ بِإِيمَاجِنَرِيَّةِ إِبْلِيسِ مِنْ وجْهَةِ النَّظرِ الْإِسْلَامِيَّةِ مُسْتَهْدِينَ فِي ذَلِكَ بِالْتَّصُّصِ الْقُرْآنِيِّ، وَبَعْدَ ذَلِكَ نُوضِّحُ أَخْطَاءَ الْمُؤْلِفِ فِي آرَائِهِ وَأَحْكَامِهِ الَّتِي أَطْلَقَهَا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِقَصَّةِ إِبْلِيسِ :

قصة إبليس القرآنية

كان إبليس مع الملائكة : ولكته لم يكن من نوع الملائكة - بل كان من الجن . قال الله تعالى :

«وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ أَسْجُدُوا لِلنَّاسِ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ»^(١) .

وعلى ذلك فهو يتكون من عنصر ناري هو العنصر الذي يتكون منه الجن . قال تعالى :

«خَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَنَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَارِ وَخَلَقَ الْجَنَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ»^(٢) .

«وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَنَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَاءٍ مَسْنُونٍ وَالْجَنَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلٍ مِنْ نَارِ السَّمُومِ»^(٣) .

ويبدو من التأمل في مجموع ما ورد في شأن إبليس من آيات القرآن أنه كان مقرباً إلى الله كالملائكة ، ولم يمنعه كونه من عنصر ناري غير ملائكي أن يضل عن طريق الطاعة لله إلى أعلى مراتب القرب والقداسة .

(١) الكهف : ٥٠ .

(٢) الرحمن : ١٤ - ١٥ .

(٣) الحجر : ٢٦ - ٢٧ .

ولَقَدْ كَانَ مِنَ الْمُمْكِنَ أَنْ يَسْتَمِرَ الْأَمْرُ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ إِلَى النَّهايَةِ. إِلَّا أَنَّ خَلَقَ الْإِنْسَانَ أَدْخَلَ عُنْصِرًا جَدِيدًا، فَقَدْ وَضَعَ الْمَلَائِكَةَ، وَإِبْلِيسَ مَعَهُمْ، فِي تَجْرِيَةٍ مِنْ تَجَارِبِ الطَّاعَةِ جَدِيدَةٍ عَلَيْهِمْ: لَقَدْ أَمْرُوا جَمِيعًا بِالسُّجُودِ لِأَدَمَ.

قَالَ تَعَالَى :

«وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَاءٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ»^(١).

«إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ»^(٢).

وَقَدْ أَطَاعَ الْمَلَائِكَةَ هَذَا الْأَمْرُ الْإِلَهِي فَسَجَدُوا، وَلَكِنْ إِبْلِيسَ رَفَضَ السُّجُودَ: «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةَ أَسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ»^(٣).

«وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةَ أَسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَأَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكُفَّارِينَ»^(٤).

وَفِي بَعْضٍ آخَرٍ مِنَ الْآيَاتِ يَقُولُ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ إِبْلِيسِ :

«قَالَ يَتَأْبِلِيسُ مَا لَكَ أَلَا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدُ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ

(١) الحجر : ٢٨ - ٢٩.

(٢) ص : ٧١ - ٧٢.

(٣) الأعراف : ١١.

(٤) البقرة : ٣٤.

من صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَاءٍ مَّسْنُونٍ»^(١).

«وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِلنَّارِ إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ إِنِّي أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقَتْ طِينًا»^(٢).

وفي بعض ثالث من الآيات تبرز «الآنا» عند إبليس في مقابل الذات الإلهية: «قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَا تَسْجُدُ إِذْ أَمْرَتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ»^(٣).

«فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِيِّينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ»^(٤).

موقفان:

وإذن، فشمة موقفان لا يُبليس نتجًا عن هذه التجربة، وكلاهما سلبيان: أحدهما: موقفه من آدم، وهو موقف إحتقار؛ لأنّه لا حظ أن آدم -في نظره- من عنصر منحط من: «طين، صَلْصَلٍ، مِنْ حَمَاءٍ مَّسْنُونٍ».

وثانيهما: موقفه من الله تعالى، وهو موقف التكبير، فقد رفض إمتثال الأمر

(١) الحجر: ٢٢ - ٢٣.

(٢) الأسراء: ٦١.

(٣) الأعراف: ١٢.

(٤) ص: ٧٣ - ٧٦.

الإلهي تكبرأ منه : «لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ... أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ»^(١).

(١) قال الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة : الخطبة (١) : (وأشادى الله سبحانه الملاذات ودعاته لذينهم، وعهد وصيبيه إليهم، في الإذعان بالسجدة له، والخنوع لشகرمته . فقال سبحانه «أشجدوا لأدم فسجدوا إلا إبليس» البقرة : ٢٤ . أعزرته الحمية، وغلبت عليه الشفوة، وتعزز بخلقته النار، وأشتوهن خلق الصالصال، فأعطاه الله النظرة استحقاقاً للسخطة، وأشتماماً للبلية، وإنجازاً للعدة، فقال : «قال إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم» . الحجر : ٣٧ - ٣٨ .

ثم أشken سبحانه آدم داراً أزعد فيها عيشة، وآمن فيها مخلته، وحدّر إبليس، وعداؤته، فأغتره عدوه تقاسة عليه بدار المقام، ومرافقه الأبرار، فباء العيقوبي يشكه، والعريمة يوهنه، وأشتبدل بالجذل وجلأ، وبالاغترار ندماً . ثم بسط الله سبحانه له في توبته، ولقاء كلام رحيمه، ووعده المرد إلى جنته، وأهبطه إلى دار البلية، وتناسل الذرية).

أبداً ما صدرت آية بادرة من آدم في حق إبليس ... كيف وقد كان آدم في عالم الغيب حين أضمر له إبليس العداوة، والبغضاء؟ . بيت له الشوء، لا يشي إلا أنه عالم، وأيقن بأن الله سيفضله عليه، وجاءه هذا العلم من قوله تعالى : «فإذا سؤيته ونفحت فيه من روجى فقعا له وستخدبن» . سورة ص : ٧٢ - ٧١ .

(وتعزز بخلقته النار، وأشتوهن خلق الصالصال). يشير إلى قول إبليس : «أنا خير منه - أي من آدم - خلقتني من نار وخلقته من طين». الأعراف : ١٢ . ومنذ القديماكتشف الإنسان أن في النار أحياه تتکيف بطبعها مع النار.

قال المجلسي : «قال بعضهم : أن كرمة النار تكون مملوءة من الروحانيات» . انظر، بحار الأنوار : ٦/٣٠ . تماماً كقطرة الماء . وقال الجدد من أهل الإختصاص : أن نوعاً من الأحياء يعيش في الهواء السام، وأبار البترول.

(فأعطاه الله النظرة استحقاقاً للسخطة). طلب إبليس من الله أن يمهله، ويبيقه حياماً ما دام على وجه الأرض إنسان، ليتولى غواية البشر أبناء آدم، وعدوه الأكبر، طلب الإمداد له، وهو يعلم أن ذلك يعود عليه بالشر، والوبال، ومع هذا أصر، وآثر أن يتتحمل كل شيء من أجل التشكيل بآدم وذرته، والإنتقام منهم .. فاختار الله تعالى لأنيس ما اختار هو لنفسه، وأستحق غضب الله، وعذابه بسوء ما اختار : «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ وَفِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ وَجَهَنَّمَ يَضْلِلُهَا مَذْمُومًا

الحرية وشبّهه الأغواء:

وهذا الموقفان قد أتّخذهما إبليس بحرّيته، ولم تتدخل الإرادة الإلهية التّكوينية في حمله على اتخاذ موقف أتّخذه.

يدلنا على ذلك - مضافاً إلى المبدأ العالمي قدمناه في مطلع هذا الحديث - يدلنا على ذلك أيضاً أنَّ إبليس علل موقفه السُّلبي من السُّجود بأنه خير من آدم، فهو لأنَّه خير من آدم - في زعمه - يمكن عاطفة الاحتقار له، من هنا تكبر على الله إمتناع أمره القاضي بالسُّجود لآدم.

قد يقال هنا إستناداً إلى النص القرآني : أنَّ إبليس كان مسيراً في موقفه ، وأنَّه لم يتّخذ قرار الرَّفض بحرّيته . والنَّص القرآني هو قوله تعالى :

«قَالَ رَبِّي مَا أَغْوَيْتَنِي لَأَزَّيْنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا غُوَيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ»^(١).

⇒
مذكوراً . الآيات : ١٨ .

وقال الإمام عليه السلام : «ما أبلي أحداً يمثل الإنماء له». انظر، شرح نهج البلاغة لمحمد عبده : ٢٧/٤ .
الحكمة (١١٦).

(وأشتماماً للبلية). أي أنه تعالى أمهل إبليس ليتّلي به عباده، وظهور سرائرهم بأفعالهم التي يشّحّون بها الثواب ، والعقاب (وإنجازاً للعدة). أي الوعد ، وأختلف الشارحون في تفسير هذا الوعد ، فمن قائل : أنه الوعد بالإنهال . وهذا أشتباه ، لأنَّ الله سبحانه ما وعده بشيء ، قبل قوله : «قال إبّك من المنظرين». الأعراف : ١٥ . وسائل آخر : أنه جزاء ، ومكافأة لا إبليس على عبادته السابقة ... وهذا حدس لا مُستند... والذى تفهمه من سياق الكلام . وقوله : «أشتماماً للبلية». أنَّ المراد بالوعد هنا ما سبق في تقديره تعالى أن يبتلي العباد بالفتنة . ليعلم أيهم أحسن عملاً ، والشيطان فتنه ما في ذلك ريب . قال تعالى : «لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ وَالْفَاسِدَةُ فُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظُّلْمِينَ لَفِي شِيقَاقٍ بَعِيدٍ». الحج : ٥٢ . انظر ، في ظلال نهج البلاغة شرح العلامة الشيخ محمد جواد مغنية : ١١٩/١ ، بتحقيقنا . «يتصرّف» .

(١) الحجر : ٣٩ .

وَقَوْلَهُ تَعَالَى :

«قَالَ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ»^(١).

إِنَّ هَذَا الْوَهْمَ نَاشِيءٌ مِنْ تَصْوِيرِ أَنَّ الْمُرَادَ الْغَوَايَةَ بِعُصِيَانِ الْأَمْرِ بِالسُّجُودِ، فَيَكُونُ أَمْتَنَاعٌ إِبْلِيسَ مِنِ السُّجُودِ مُسْتَنْدًا إِلَى إِغْوَاءِ اللَّهِ لَهُ. وَلَكِنَّ هَذَا الْخَطَا، فَإِنَّ الْمَعْنَى فِي الْآيَتَيْنِ بِـ«أَغْوَيْتَنِي» لَيْسَ الْأَمْتَنَاعُ عَنِ طَاعَةِ الْأَمْرِ بِالسُّجُودِ كَمَا تَوَهَّمَ الْمُؤْلِفُ فِي صَفْحَةِ «١٠٧» وَغَيْرُهَا إِذْ لَا تُوجَدُ عِلْاقَةٌ سَبَبِيَّةٌ بَيْنَ مَعْصِيَةِ مَخْلُوقٍ وَمَعْصِيَةِ مَخْلُوقٍ آخَرَ، فَلَا عِلْاقَةٌ سَبَبِيَّةٌ بَيْنَ رَفْضِ إِبْلِيسَ لِلسُّجُودِ وَبَيْنَ صَدُورِ الْمَعَاصِي لِلأَوَامِرِ الْإِلَهِيَّةِ مِنْ أَفْرَادِ النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ. وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِـ«أَغْوَيْتَنِي» الْغَوَايَةُ (الْهَلَاكَ وَالْخَيْرَةَ وَالْبُعْدَ النَّاتِجَةَ عَنِ عُصِيَانِ الْأَمْرِ بِالسُّجُودِ). فَقَرَارُ رَفْضِ إِطَاعَةِ الْأَمْرِ بِالسُّجُودِ أَتَخَذَهُ إِبْلِيسَ بِحُرْيَّةٍ، وَقَدْ نَتَّجَ عَنِ هَذَا الْقَرَارِ إِبْعادُ اللَّهِ لَهُ، وَطَرْدَهُ مِنْ مَنْزِلَتِهِ الَّتِي كَانَ فِيهَا :

«قَالَ فَأَخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ الْلَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّي فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبَعْثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّي بِمَا أَغْوَيْتَنِي»^(٢).

«قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَكَبَّرَ فِيهَا فَأَخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الْصَّاغِرِينَ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبَعْثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ قَالَ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي»^(٣).

فَالْغَوَايَةُ هُنَا إِهْبَاطُهُ عَنِ مَنْزِلَتِهِ، وَإِخْرَاجُهُ عَنِ مُجْتَمِعِ الْمَلَائِكَةِ، وَوَصْمَهُ بِالصَّغَارِ.

(١) الأَغْرَافُ : ١٦.

(٢) الْجَعْدُ : ٣٩ - ٣٥.

(٣) الأَغْرَافُ : ١٣ - ١٦.

هَذِهِ النَّتَائِجُ الَّتِي تَرَبَّتْ رَأْسَهُ أَنْ مِنْ قَرَارِ عَدَمِ السُّجُودِ الَّذِي أَتَخَذَ بِحُرْيَّةِ هِيَ الْغَوَايَةِ، فَهِيَ نَتْيَاجَةُ لِقَرَارِ إِبْلِيسِ الَّذِي أَتَخَذَ بِحُرْيَّةِ وَعَلَيْهِ أَنْ يَتَحَمَّلَ مَسْؤُلِيَّةَ مَا يَتْسُجُ عَنْ قَرَارِهِ مِنْ نَتَائِجٍ.

وَالْتَّحْلِيلُ اللُّغُويُّ لِلْآيَةِ يُعْطِي أَيْضًا النَّتَيْجَةَ الَّتِي ذَكَرَنَا هَا: «فِيمَا أَغْوَيْتَنِي»، فَإِنَّ الْبَاءَ لِلصَّبَبَيَّةِ، وَ«مَا» مَصْدَرَيَّةً، وَمَعْنَى الْجُمْلَةِ: (بِسَبِبِ إِغْوَائِكَ لِي سَأَغُوِي عِبَادَكَ)، فَإِنَّهُ لَمَّا حَلَّتْ عَلَيْهِ الْلَّعْنَةُ، وَطُرِدَ عَنْ مَنْزِلَتِهِ غَدَّا شَرِيرًا، وَكَوْنُهُ شَرِيرًا سَبَبَ لِنَشْرِهِ الشَّرَ بَيْنَ النَّاسِ. وَلَكِنْ هَذِهِ النَّتَيْجَةُ: جَعَلَهُ شَرِيرًا نَتَجَتْ عَنْ إِخْتِيَارِهِ الْحَرَّ، وَهُوَ رَفِضَ السُّجُودَ، وَمَعْصِيَةُ الْأَمْرِ الْإِلَهِيِّ.

هَذَا هُوَ مَعْنَى الْإِغْوَاءِ فِي الْآيَتَيْنِ. وَإِذَنْ فَإِبْلِيسُ لَمْ يَكُنْ مُسَيِّرًا فِي مَوْقِفِهِ الَّذِي أَتَخَذَهُ، وَإِنَّمَا تَصَرَّفَ بِحُرْيَّةِ مُطْلَقَةٍ. وَإِذَنْ فَإِبْلِيسُ لَيْسَ «بَطَلًا مَأْسَاوِيًّا» كَمَا يُرِيدُ الْمُؤْلِفُ أَنْ يُصَوِّرَهُ، وَإِنَّمَا هُوَ مُتَكَبِّرٌ سَخِيفٌ قَادَهُ تَكَبُّرُهُ الْأَجْوَفُ إِلَى عَاقِبَةٍ وَخِيمَةٍ.

* * *

بِسَبِبِ وَضْعِهِ الْجَدِيدِ غَدَّا إِبْلِيسُ قُوَّةً شَرِيرَةً فِي الْعَالَمِ الْإِنْسَانِيِّ:

١ - «قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَأَخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّنْفِينَ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبَعَّثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ قَالَ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَا تَبْيَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَكِيرِينَ»^(١).

٢ - «قَالَ فَأَخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ الْلَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ

فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبَعَّثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّ
بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَزِينَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ
الْمُخْلَصِينَ»^(١).

٣ - «قَالَ فَبِعِزْتِكَ لَا يُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ»^(٢).

٤ - «قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَمْتَ عَلَيَّ لَيْنَ أَخْرَتْنَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا حَتَّى
ذُرِّيَّتَهُ وَإِلَّا قَلِيلًا»^(٣).

تعلّمنا هذه الآيات كيف أنَّ إِبْلِيسَ غَدَّا عَامِلاً شَرِّيرًا في العالم الإنساني، ومن
خلال الصراع مع إِغوائه وإِضلاله يُمارس الإنسان حرية الإِختيار بين الحق
والباطل وبين الهدى والضلال.

ولم يتُرُكُ الإنسان مَعْزُولاً أمام قوَّةِ الشَّرِ الجديدة التي نشأت بسبب موقف
إِبْلِيسِ . وإنما عَزَّزَ مَوْقِفَ الإنسان في مقابل قوَّةِ الشَّرِ: عَزَّزَ بِالْفِطْرَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ
الَّتِي فُطِرَ عَلَيْهَا وَالَّتِي بِهَا يُدْرِكُ وَبِهَا يُمَيِّزُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَهَذِهِ الْفِطْرَةُ قوَّةٌ
داخليَّةٌ تُعيِّنُ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَخْتَارُ طَرِيقَ الْحَقِّ عَلَى التَّمْيِيزِ وَعَلَى إِدْرَاكِ الْمَوَاقِفِ
الصَّالِحةِ . وَعَزَّزَ بِعَامِلَ خَارِجيَّ هُوَ قِوَى خَيْرَهَا اللَّهُ تَعَالَى لَشَعَرَهَا لِشَعَرَ مَوْقِفِ
الْإِنْسَانِ أَمَامَ إِغْرَاءَاتِ الشَّرِ وَتُشْبِهِ ، وَقَدْ عَبَرَ اللَّهُ عَنْهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :
«إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ أَسْتَقْمُوا تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمُلَائِكَةُ لَا تَخَافُوا
وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أُولَئِكُمْ فِي الْحَيَاةِ

(١) العجر: ٤٠ - ٣٤.

(٢) ص: ٨٢ - ٨٣.

(٣) الأسراء: ٦٢.

الدُّنْيَا^(١).

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَفَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ يَمْنَحُ الْمَعْوَنَةَ، وَالتَّسْدِيدَ، وَالهُدَايَةَ، وَالتَّوْفِيقَ لِمَنْ يُؤْثِرُ الْإِسْتَقَامَةَ وَالصَّلَاحَ. قَالَ تَعَالَى :

﴿وَالَّذِينَ جَاهُوا فِينَا لَنَهَدِيَنَّهُمْ سُبْلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢).

* * *

بَقِيَ عَلَيْنَا - قَبْلَ إِنْهَاءِ هَذَا الْمُوجِزِ عَنْ قِصَّةِ إِبْلِيسِ الْقُرْآنِيَّةِ - أَنْ نَبْحَثَ عَنْ أُمُورٍ :

الْأَوَّلُ : إِنَّ إِبْلِيسَ أَمْرَ بِالسُّجُودِ فَلِمَنِ السُّجُودُ؟ .

وَالثَّانِي : أَنَّ مَعْنَى السُّجُودِ مَا هُوَ؟ .

وَالثَّالِثُ : عَنْ مَغْرِبِ السُّجُودِ مَا هُوَ؟ .

الأول - لِمَنِ السُّجُودُ؟ :

إِنَّ الْآيَاتِ الَّتِي وَرَدَ فِيهَا أَمْرُ الْمَلَائِكَةِ وَإِبْلِيسِ بِالسُّجُودِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ (آيَةٌ ٣٤)، وَسُورَةِ الْأَعْرَافِ (آيَةٌ ١٠)، وَسُورَةِ الْإِسْرَاءِ (آيَةٌ ٦١)، وَسُورَةِ الْكَهْفِ (آيَةٌ ٥١)، وَسُورَةِ طَهِ (آيَةٌ ١١٦)، وَرَدَ فِيهَا الْأَمْرُ بِالسُّجُودِ لِأَدَمَ، فَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ يَرَدُ هَذَا النَّصُّ : «قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ أَسْجُدُوا لِأَدَمَ». وَلَكِنَ الْأَمْرُ بِالسُّجُودِ وَرَدَ فِي سُورَةِ صَ (آيَةٌ ٧١ - ٧٢) بِالصُّورَةِ التَّالِيَةِ : «إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ» وَفِي سُورَةِ الْحِجْرِ (آيَةٌ ٢٨ - ٢٩) : «إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ

(١) فُصِّلَتْ : ٣١ - ٣٠.

(٢) الْفَنَكَبُوتْ : ٦٩.

من روحى فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ». والظاهر أنَّ المراد بالبشر في الآيتين الأخيرتين هو آدم. والتغيير عنْهُ بالبشر في الآيتين ربما يكون المراد منه الإشارة إلى معنى سنته عليه فيما بعد. وهنَا يواجهنا سؤال: هل السجود كان لأَدَمَ بما هُوَ شخص أو أنَّ السجود للنوع الإنساني؟ وآدَمَ رمز للنوع؟ يبدُّو أنَّ الهدف من السجود كان تعظيم النوع الإنساني كُلِّهِ، ولإظهار فضل الخليقة الإنسانية على الخلائق الأخرى، ولم يكن آدَم إِلَّا رمزاً ومثالاً للنوع الإنساني.

تدلنا على ذلك الآية الحادية عشرة من سورة الأعراف: «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ أَسْجُدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ».

فإنَّ الخطاب: «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَرْنَاكُمْ» لجميع النوع الإنساني، ومن بعد هذا الخطاب جاء قوله تعالى: «ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ أَسْجُدُوا» فالسجود لأَدَمَ بما هُوَ مُمثل للنوع الذي خلقه الله وصوَرَه.

وهذا المعنى - وهو أنَّ السجود ليس لأَدَمَ باعتباره شخصاً، وإنما السجود للنوع الإنساني وآدَمَ رمز مُمثل لهذا النوع - هذا المعنى يظهر بصورة جلية في الآيات المتعلقة بالموضوع في سورة البقرة (٣٠ - ٣٤) ففي الآيات بين الله أنَّه سيجعل في الأرض خليفة، ومن المعلوم أنَّ خلافة الله في الأرض ليست مختصة بآدَم، وإنما هي ثابتة لجميع أفراد النوع الإنساني. وبعد أن بين الله في تلك الآيات هذه الحقيقة - الخلافة في الأرض - أمر الملائكة بالسجود لأَدَم،

فالسجود لآدم باعتبار الخلافة، ولما لم يكن هذا الإعتبار مختصاً به، بل هو شامل لجميع ذرّيته، فالسجود إذن لجميع ذرّية آدم أي للنوع الإنساني كله، لأنَّ مقياس عظمة هذا النوع وكرامته وَهُوَ خلافة الله في الأرض موجود في جميع الأفراد.

الثاني - معنى السجود:

العبادة هي أن يجعل الإنسان نفسه في مقام العبودية لله تعالى، وحقيقة العبودية هي التسليم المطلق والإسلام الكامل لإرادته تعالى. فالعبد هو الذي يجعل نفسه في مقام الطاعة المطلقة والإنقياد التام لأوامر الله ونواهيه. ويُعبر عن العبادة بأشكال شتى من جملتها الحركات الجسدية، ومن جملة الحركات الجسدية السجود.

فالسجود في بعض الحالات يكون تعبيراً جسدياً عن العبادة، كالسجود في الصلاة الإسلامية - وهو في هذه الحالة وضع الجبهة على الأرض تذللاً وتخشع الله تعالى.

ويمكن أن يكون السجود تعبيراً عن الاحترام، والتعظيم فقط، وحينئذ يتجرد من معنى العبادة، ومثال ذلك ما ورد في قصة يوسف: «ورفع أبوئمه على العرش وخرأوا له سجداً»^(١).

فإنَّ يعقوب وأبناءه لم يسجدوا ليوسف سجود عبادة، كيف ويعقوب نبي؟، بل سجدوا شكرًا لله، وتعظيمًا، وتكريماً ليوسف على منزلته التي بلغها في مصر.

وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ السُّجُودُ تَعْبِيرًا عَنِ السُّخْرِيَّةِ وَالْإِسْتَهْزَاءِ بِالْمَسْجُودِ لَهُ .
وَإِذْنَ فَالسُّجُودُ بِمَا هُوَ حَرْكَةٌ جَسْدِيَّةٌ مُعَيَّنةٌ لَا يُلَازِمُ مَعْنَى الْعِبَادَةِ دَائِمًا ، بَلْ قَدْ
يُفَارِقُهُ كَمَا رَأَيْنَا . فَيُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ عِبَادَةً وَيُمْكِنُ أَنْ لَا تَكُونَ عِبَادَةً ، وَذَلِكَ
بِحَسْبِ الْمَعْنَى الَّذِي تَضَمَّنَهُ وَتَرَمَّزُ إِلَيْهِ .

إِلَّا أَنَّهُ يَتَبَغِي التَّثْبِيَّةُ عَلَى أَنَّ السُّجُودَ فِي الذُّوقِ الْإِسْلَامِيِّ الْمُسْتَفَادُ مِنَ الْكِتَابِ
وَالسُّنْنَةِ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى بَنَاحَةُ الْعِبَادَةِ ، وَلَا يَجُوزُ السُّجُودُ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى :
بِقَصْدِ التَّعْظِيمِ وَالتَّكْرِيمِ إِلَّا بِأَمْرِ إِلَهِي خَاصٍ .

وَهُنَا نَصُلُ إِلَى بَحْثِ مُشْكُلَةِ سُجُودِ الْمَلَائِكَةِ لِآدَمَ .

فَسُجُودُ الْمَلَائِكَةِ لِآدَمَ بِاعتِبَارِهِ مُمْثَلًا لِلنَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ ثُمَّ وَفَقًا لِأَمْرِ إِلَهِي
خَاصٍ ، وَهُوَ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ يَنْطُويُ عَلَى جِهَتَيْنِ :

الْأُولَى : أَنَّهُ عِبَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ حِيثُ كُونِهِ طَاعَةٌ لِأَمْرِهِ بِالسُّجُودِ .

وَالثَّانِيَةُ : أَنَّهُ تَعْظِيمٌ لِلنَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ - لَا عِبَادَةً - وَإِقْرَارٌ بِسِيَادَتِهِ وَأَفْضَلِيَّتِهِ مِنْ
حِيثُ إِخْتِيَارِ اللَّهِ لَهُ لِلخِلَافَةِ فِي الْأَرْضِ .

* * *

بِهَذَا الْبَيَانِ يَتَضَعَّ لَنَا خَطَا الْمُؤَلَّفُ فِي الصَّفَحَةِ (٩٠ ، وَغَيْرِهَا) حِينَ يُكَرَّرُ فِي
أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ مَا يُفِيدُ أَنَّ السُّجُودَ لَا يَكُونُ إِلَّا عِبَادَةً ، وَأَنَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَسْجُدْ ، لِأَنَّهُ
لَمْ يَرِدْ أَنْ يَشْرُكَ بِعِبَادَتِهِ اللَّهُ أَحَدًا ، وَسَنُعَالِجُ هَذِهِ النُّقْطَةِ فِي مَوْضُوعٍ آخَرَ أَيْضًا .

الثُّالِثُ - مَغْزِيُّ السُّجُودِ :

إِنَّ الْغَايَةَ مِنْ أَمْرِ الْمَلَائِكَةِ وَإِبْلِيسِ بِالسُّجُودِ لِلْحَقِيقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ مُمْثَلَةً فِي آدَمَ

هي إظهار أنَّ جمِيع الْقُوَى الكَوْنِيَّة مُسْخَرَة لِأَجْلِ الْإِنْسَان وَتَقْدِيمَه، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَلَائِكَة أَشْبَابُ إِلَهِيَّة وَأَعْوَانُ الْإِنْسَان عَلَى تَقْدِيمِه الرُّوحِيُّ وَالْمَادِيُّ، وَسَعادَتِه الْأُخْرَوِيَّة وَالْدُّنْيَاوِيَّة. وَذَلِكَ لِأَجْلِ تَأْكِيدِ مَعْنَى خِلَافَتِه فِي الْأَرْض.

وَمِنْ هُنَا فَرَفَضَ إِيلِيسُ لِلسُّجُود - وَهَذِهِ هيِ الْغَايَة مِنِ السُّجُود - تَعبِيرٌ مِنْهُ عَنْ رَفْضِهِ الْاعْتِرَافُ بِالْمَنْزَلَةِ الَّتِي أَعْطَاهَا اللَّهُ لِلْإِنْسَان، وَرَفْضُهِ لِأَنَّ يَجْعَلْ نَفْسَهُ حَيْثُ أَرَادَهُ اللَّهُ أَنْ يَكُونُ : عَامِلًا فِي سَبِيلِ تَقْدِيمِ الْإِنْسَان وَسَعادَتِه الرُّوحِيَّة وَالْمَادِيَّة .
وَقَدْ أَدْرَكَ إِيلِيسُ الْمَنْزَلَةِ الْعَالِيَّةِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ لِلْإِنْسَان، وَأَدْرَكَ أَنَّ الْأَمْرَ بِالسُّجُود نَتِيَّجَةً لِذَلِكَ، فَرَفَضَ الْاعْتِرَافُ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ، وَبَدَلًا مِنْ أَنَّ يَجْعَلْ نَفْسَهُ عَامِلًا فِي سَبِيلِ تَقْدِيمِ الْإِنْسَان جَعَلْ نَفْسَهُ - عَلَى الضِّدِّ مِنْ ذَلِكَ - عَامِلًا فِي سَبِيلِ تَأْخِيرِ الْإِنْسَان وَشَتَّاتِه قَالَ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ إِيلِيسِ يُوضَّحُ مَوْقِفُه : «قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَمْتَ عَلَيْنِ أَخْرَتِنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا حُتَّكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا» (١).

* * *

بَعْدَ هَذَا الْإِسْتِعْرَاضِ السَّرِيع لِأَبْعَادِ مَسَالَةِ إِيلِيسِ مِنْ وجْهَةِ النَّظرِ الْإِسْلَامِيَّةِ تَعُودُ إِلَى الْمُؤَلَّفِ، فَنَقْفَ مَعْهُ عَلَى بَعْضِ الْأَخْطَاءِ الَّتِي تَوَرَّطَ فِيهَا فِي فَهْمِهِ لِهَذِهِ الْقِصَّةِ وَذَلِكَ نَتِيَّجَةً لِعدَمِ إِطْلَاعِهِ عَلَى الْمُصْطَلَحَاتِ وَعَدَمِ مُعَاوَاتِهِ لِلْمَصَادِرِ الْأَسَاسِيَّةِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تُعْتَمِدَ فِي هَذِهِ الدَّرَاسَةِ .

* * *

قَالَ الْمُؤَلَّفُ (فِي صَفْحَةٍ ٨٩) :

«وَتَبْدُو قِصَّةُ إِبْلِيسِ كَمَا وَرَدَتْ فِي الْآيَاتِ (الْقُرْآنِيَّةِ) بِسِيَطَةٍ فِي ظَاهِرِهَا. لَقَدْ أَمْرَهُ اللَّهُ أَنْ يَقْعُدَ سَاجِدًا لِلنَّاسِ فَرَفِضَ، وَكَانَ مَا كَانَ مِنْ شَأْنِهِ. غَيْرَ أَنَّا لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَجَاهَوْزَ هَذِهِ النَّظَرَةَ السَّطْحِيَّةَ إِلَى مُشْكُلَةِ إِبْلِيسِ لِرَجَعَنَا إِلَى فِكْرَةِ هَامَةٍ قَالَ بِهَا بَعْضُ الْعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَهِيَ التَّسْمِيَّةُ بَيْنَ الْأَمْرِ الْإِلَهِيِّ وَبَيْنَ الْمَشِيشَةِ، وَالْإِرَادَةِ الْإِلَهِيَّةِ، فَالْأَمْرُ بِطَبَيْعَةِ الْحَالِ أَمَّا أَنْ يُطَاعُ وَيُنَفَّذُ وَأَمَّا أَنْ يُعَصَى وَلِلْمَأْمُورِ الْخِيَارُ فِي ذَلِكَ. أَمَّا الْمَشِيشَةُ الْإِلَهِيَّةُ فَلَا تَنْطِقُ عَلَيْهَا مِثْلُ هَذِهِ الْأَعْتَبَارَاتِ لِأَنَّهَا بِطَبَيْعَتِهَا لَا تُرَدُّ... لَقَدْ شَاءَ اللَّهُ وَجُودُ أَشْيَاءٍ كَثِيرَةٍ غَيْرَ أَنَّهُ أَمْرٌ عِبَادَهُ بِالْأَبْتِيعَادِ عَنْهَا، كَمَا أَنَّهُ أَمْرٌ لَهُمْ بِأَشْيَاءٍ وَلَكِنَّهُ أَرَادُهُمْ أَنْ يُحَقِّقُوا أَشْيَاءً أُخْرَى، لِذَلِكَ بِإِسْتِطَاعَتِنَا القَوْلُ بِأَنَّ اللَّهَ أَمْرَ إِبْلِيسِ بِالسُّجُودِ لِلنَّاسِ، وَلَكِنَّهُ شَاءَ لَهُ أَنْ يَعْصِي الْأَمْرَ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لِإِبْلِيسِ أَنْ يَقْعُدَ سَاجِدًا لَوْقَعَ سَاجِدًا لِتَوْهٍ، إِذْ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ لِلْعَبْدِ عَلَى رَدِّ الْمَشِيشَةِ الْإِلَهِيَّةِ».

هَذَا النَّصُّ هُوَ الْعَمُودُ الْفَقِيرُ فِي نَظَرِيَّةِ الْمُؤَلِّفِ عَنْ قِصَّةِ إِبْلِيسِ مِنْ وجْهَهُ النَّظَرِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَسَيَسْتَضَعُ لَنَا مَدِئِ خَطَا الْمُؤَلِّفُ فِي فَهْمِهِ لِهَذِهِ الْقِصَّةِ، وَسَيَسْتَضَعُ لَنَا أَنَّ نَتِيَّجَةَ إِنْكَشَافِ خَطَاهُ هُوَ تَسَاقُطُ جَمِيعِ النَّتَائِجِ الَّتِي رَتَبَهَا عَلَى هَذَا الْأَسَاسِ:

- ١ - يَعْتَرِفُ الْمُؤَلِّفُ بِأَنَّ قِصَّةَ إِبْلِيسِ - مِنْ خِلَالِ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ - تَبْدُو

واضحة وبسيطة، ولا تشكل أي مأساة، ولئن فِيَها أي تعقيد ولا غموض. ولكن بما أنَّ المؤلَّف يُريد أنْ يحصل عَلَى «بطولة فكريَّة» فهو يستعين بـ«بعض العلماء المسلمين» ليتَّنَظِّر إلى القِصَّة مِن زاوية أخرى وَنَسَأَلَ المؤلَّف: أَوَّلًا: مَن هُم هؤلاء العلماء المسلمين (الاَكْبَدَ أَنَّ الْحَلاجَ مِنْهُمْ !!)؟.

ثَانِيًّا: مَاذَا يَقُولُ هؤلاء العلماء المسلمين؟.

أَنَّهُ لَمْ يَتَبَيَّنَ لَنَا قَوْلَهُمْ لَنَرَى مَا إِذَا كَانَ قَدْ فَهُمْ نَصُوصُهُمْ إِذَا كَانُوا مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ حَقًّا.

وَ ثَالِثًا: فَلَنَفْتَرِضْ أَنَّهُ يُوجَدُ عُلَمَاءُ مُسْلِمُونَ أَخْطَأُوا فِي الْفَهْمِ، فَخَلَطُوا بَيْنَ مَجَالِ عَمَلِ الإِرَادَةِ التَّشْرِيعِيَّةِ، وَمَجَالِ عَمَلِ الإِرَادَةِ التَّكْوِينِيَّةِ، فَهَلْ مِنَ الْعِلْمِ وَهَلْ مِنَ الْمَنْهَجِ الْعِلْمِيِّ أَنْ تَصْدِرْ أَحْكَامًا حَاسِمةً اعْتَمَادًا عَلَى قَوْلِ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ فَهُمْ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ، مَعَ اعْتِرَافِنَا بِأَنَّ الْقِصَّةَ فِي مَصْدِرِهَا الْأَسَاسِيِّ (الْقُرْآن) تَبَدُّو وَاضحة وبسيطة، لَيْسَ فِيهَا أَيْ عُنْصُرٌ مَأْسَاوِيٌّ. وَلَكِنْ ... عَفْوًا، لَقَدْ غَفَلْتُ عَنْ أَنَّ المؤلَّف يُريد أنْ يحصل عَلَى «بطولة فكريَّة» بِإِكْتِشافِهِ لِعُنْصُرِ الْمَأْسَاةِ فِي قِصَّةِ إِيلِيسِ، وَسَتَفُوتُهُ هَذِهِ الْفُرْصَةُ لَوْ أَنَّهُ سَلَكَ فِي بَحْثِهِ مَسْلِكَ الْعُلَمَاءِ الْأَمْنَاءِ لِلْمَنْهَجِ الْعِلْمِيِّ، فَلَنَتَرَكَ الْمَنْهَجَ الْعِلْمِيِّ، وَلَنُلْفَقَ، وَلَنَصْرِفَ النُّصُوصَ عَنْ دَلَالَاتِهَا، وَلَنَسْتَعِنَ بِمَصَادِرِ أَجْنبِيَّةٍ عَنْ طِبِيعَةِ بَحْثِنَا، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ نَحْصُلْ - بِهَذِهِ الْأَسَالِيبِ - عَلَى بُطُولَةِ فِكْرِيَّةٍ.

٢ - أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْمُرْ عِبَادَهُ بِأَشْيَاءِ أَرَادَ عَدَمَ وَجُودَهَا، وَلَمْ يَنْهِ عَنْ أَشْيَاءِ أَرَادَ وَجُودَهَا. وَهَذَا الْفَهْمُ مِنَ المؤلَّفِ فَهُمْ خَاطِئُونَ نَتِيجةً لِخَلَطِهِ بَيْنَ مَجَالِ الإِرَادَةِ التَّشْرِيعِيَّةِ وَمَجَالِ الإِرَادَةِ التَّكْوِينِيَّةِ. أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ عِبَادَهُ وَنَهَاهُمْ وَأَعْطَاهُمْ حُرْيَّةً

الإخْتِيَار، وَحَقَّ لَهُمْ أَقْصَى الْحُرْيَةِ حِينَ يَسِّرُ لَهُمْ أَنْ يُحْقِّقُوا إِرَادَتَهُمْ وَيَنْتَقِلُوا بِهَا مِنَ الْمَجَالِ النَّظَريِّ الْمَحْضِ إِلَى مَرْحَلَةِ التَّنْفِذِ فِي عَالَمِ الْوَاقِعِ، أَمَّا الْأَشْيَاءُ الَّتِي يُرِيدُهَا اللَّهُ بِالْإِرَادَةِ التَّكْوِينِيَّةِ فَهِيَ لَيْسَتْ أَفْعَالُ الْعِبَادِ كَمَا رَأَيْنَا.

وَإِذْنَ، فَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ إِبْلِيسَ بِالسُّجُودِ لِأَدَمَ بِالْأَمْرِ التَّشْرِيعِيِّ، وَتَرَكَ لَهُ الْحُرْيَةِ إِخْتِيَارَ قَرَارِهِ بِإِطَاعَةِ هَذَا الْأَمْرِ أَوْ عَصِيَانِهِ، وَحِينَما أَخْتَارَ إِبْلِيسَ الْمَعْصِيَةَ وَعَدَمَ السُّجُودِ مَارَسَ حُرْيَتَهُ الْمُطْلَقَةَ، وَتَرَتَبَ عَلَى ذَلِكَ نَتْيَاجَةَ الْمَعْصِيَةِ، وَهِيَ الطَّرْدُ وَاللَّعْنَةُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْحُرْيَةَ تُلَازِمُهَا الْمَسْؤُلِيَّةِ.

٣ - لَقَدْ رَتَّبَ الْمُؤْلِفُ فِي الصَّفَحةِ (٩٠ وَمَا بَعْدُهَا) ثَلَاثَ نَتَائِجٍ عَلَى تَحْلِيلِهِ السَّابِقِ الَّذِي بَيَّنَاهُ وَجْهَ الْخَطَايَا فِيهِ:

النَّتْيَاجُ الْأُولَى: أَنَّ إِبْلِيسَ وَإِنْ خَالَفَ الْأَمْرَ الْإِلَهِيِّ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ مُسْتَجْمِعًا مَعَ الْمَشِيَّةِ الْإِلَهِيَّةِ.

وَنَقُولُ: هَذَا خَطَا، فَقَدْ بَيَّنَاهُ أَنَّ الْمَشِيَّةَ (الْإِرَادَةِ التَّكْوِينِيَّةِ) لَا دَخْلَ لَهَا فِي أَفْعَالِ الْعِبَادِ، وَإِنَّمَا أَمَرَ اللَّهُ إِبْلِيسَ بِالسُّجُودِ، وَتَرَكَ لَهُ الْحُرْيَةِ الْإِخْتِيَارِ، وَقَدْ أَخْتَارَ الْعُضْيَانَ.

النَّتْيَاجُ الثَّانِيَّةُ: أَنَّ إِبْلِيسَ لَوْ وَقَعَ سَاجِدًا لِأَدَمَ لِخَرْجِهِ عَنْ حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ (...). إِذْ أَنَّ السُّجُودَ لِغَيْرِ اللَّهِ لَا يَجُوزُ عَلَى الْإِطْلَاقِ لِأَنَّهُ شَرِكَ بِهِ (...). نَسْتَشْتَجِعُ إذَنَ أَنَّ مَوْقِفَ إِبْلِيسَ يُمَثَّلُ «الْإِصْرَارَ الْمُطْلَقَ عَلَى التَّوْحِيدِ».

هَذَا خَطَا: لَمَّا بَيَّنَاهُ مِنْ أَنَّ الْخُرُوجَ عَنْ حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ بِالسُّجُودِ لِغَيْرِ اللَّهِ إِنَّمَا يَكُونُ لَوْ كَانَ السُّجُودُ لِغَيْرِ اللَّهِ بِنَحْوِ الْعِبَادَةِ، وَأَمَّا إِذَا كَانَ بِنَحْوِ التَّعْظِيمِ وَالتَّكْرِيمِ فَلَا يَعْدُ عِبَادَةً، وَمَنْ ثُمَّ فَلَا يَكُونُ خُرُوجًا عَنْ حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ، وَقَدْ أَطَاعَ

الملائكة الأمر الإلهي بالسجود فلم يخرجوا عن حقيقة التوحيد، بل أكدوا إخلاصهم في التوحيد بخضوعهم للأمر الإلهي^(١)، أما إيليس فقد واجه الأمر الإلهي بالكربلاء، وإظهار «الأننا» كما بينا وتبين فيما يأتي . موقف إيليس لا يمثل «الأصرار المطلقة على التوحيد». وإنما يمثل خلق التكبر والكفر بأجلن صوره، وأحط معانيه . ولو كان موقف إيليس ناجماً عن إصراره على التوحيد لعجل موقفه بالتزام خط التوحيد المطلق، ولكنه لم يعجل موقفه بذلك، وإنما عللها بأنه خير من آدم لأن آدم من طين أو من صلصال، و«قال أرئتك هذا الذي كرمت على لين آخرتن إلى يوم القيمة لا حتنك ذريته إلا قليلا»^(٢).

تناقض :

ومن تناقضات المؤلف أنه يقول في هذه الفقرة عن إيليس أنه مثل الأصرار المطلقة على التوحيد، بينما يصرّح في الفقرة التي بعدها أن إيليس برر موقفه - لا بالتوحيد - وإنما بالعنصرية، وإنه خلق من نار بينما خلق آدم من طين.

النتيجة الثالثة : ذكر المؤلف حجتين إشتند إليها إيليس في رفض السجود.
الأولى : أن إيليس مخلوق من عنصر أعلى في مرتبة الكمال من عنصر آدم.

(١) أن كلمة التوحيد تنزيه للخالق عن الشرٍّيك، وللمخلوق عن العبودية لغير الله . وصدق من قال: أن كلمة التوحيد ليست حروفاً، ولكن منهاج حياة، وشريعة قلب... ومن هنا قال رسول الله ﷺ: «خير ما جئت به أنا، وأ忝يون من قبلـيـ كـلـمـةـ لـأـ إـلـهـ إـلـاـ اللـهـ» . انظر، تحفة الأخذ للمباركفوري: ١٠٧/٩ . قريب من هذا، شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ١٩٠/٦ ، البحر الرائق: ٥٩٢/٢ ، كتاب الموطأ: ٢١٥/١ .

٢٢، إغاثة الطالبيين: ١٩/١ ، فتح العزيز لعبدالكريم الرافعي: ٣٥٩/٧ ، المجموع: ٩٤/٨ .

(٢) أشرأء: ٦٢ .

الثانية: أنَّ آدَمَ وَذَرِيْتَهُ سَيَعِيشُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًاً.

وَالْمُؤْلَفُ مُخْطَيٌّ فِي تَحْلِيلِهِ الْمَذْكُورِ.

أَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْحُجَّةِ الْأُولَى تَقُولُ لِلْمُؤْلَفِ: أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْإِسْلَامِ - وَلَا فِي أَيِّ دِينٍ آخَرِ فِيمَا أَعْلَمُ - سُلْطَمَ تَقْيِيمِي لِلنَّاصِرِ وَالْأَجْسَامِ يَجْعَلُ أَحَدَهَا أَفْضَلَ مِنَ الْآخَرِ، وَلَيْسَ لَدَيْنَا فِي الْإِسْلَامِ نُصُوصٌ تُوحِي بِذَلِكَ فَضْلًا عَنْ أَنْ تَدْلِلَ عَلَيْهِ. لَيْسَتِ النَّارُ أَفْضَلُ مِنَ الطِّينِ، وَلَا الطِّينُ أَحَطٌ مِنَ النَّارِ، وَلَا لَأَيِّ عُنْصَرٍ فَضْلٌ عَلَى أَيِّ عُنْصَرٍ آخَرٍ. وَلَكِنَّ مَا الْعَمَلُ إِذَا كَانَ الْمُؤْلَفُ يَتَعَسَّفُ لِيَخْتَلِقُ خَيَالَاتٍ تَجْعَلُ فِكْرَتَهُ مُنْسَجِمَةً.

وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْحُجَّةِ الثَّالِثَةِ: فَإِنَّ الْاعْتِرَاضَ هُوَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَإِبْلِيسَ كَمَا بَيِّنَاهُ لَيْسَ مِنْهُمْ، فَقَدْ قَالُوا عِنْدَمَا عَلَمُوا بِخَلْقِ آدَمَ وَخِلَافَتِهِ فِي الْأَرْضِ، وَسِيَادَتِهِ عَلَيْهِمْ: «أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ»^(١)، وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ لَهُمُ السَّرِّ فِي تَفْضِيلِ النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ:

«وَعَلِمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِيُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَتَأَدَّمُ أَنْبِيُّهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَاهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبَدُّونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ»^(٢).

ثُمَّ أَنَّهُ كَانَ عَلَى إِبْلِيسِ أَنْ يُطِيعَ الْأَمْرَ الْإِلَهِيِّ كَمَا أَطَاعَهُ الْمَلَائِكَةَ بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ اللَّهُ لَهُمْ، فَكَانَ عُصِيَّانِهِ أَسْتَكْبَارًا مُوجِبًا لِلعقابِ.

(١) البقرة: ٢٩.

(٢) البقرة: ٣٠ - ٣٢.

قال المؤلف في الصفحة: (٩٢).

«لذلك سئر فيما بعد أن أمر السجود لم يكن أمر متشيئة، وإنما كان أمر ابتلاء».

هنا يكشف المؤلف - كما في كثير من كتابه - عن عدم وضوح المفاهيم لدّيه. إنّ أمر الابتلاء (الأمر الامتحاني) قسم من الأمر التشريعي وهو أمر صوري المقصود منه في الحقيقة تربية الإرادة الإنسانية على الإذعان المطلق لإرادة الله. وكشف حقيقة العبد لمجتمعه، ومزدى ثباته على الطاعة وتحمله لكل شيء في سبيلها. (ومن نماذج هذا الأمر الامتحاني أمر إبراهيم بذبح ولده). هذا هو الأمر الامتحاني أو أمر الابتلاء كما يسميه المؤلف.

يُبيّنَما نلاحظ أنّ الأمر بالسجود لآدم ليس أمراً ابتلائياً صورياً وإنما هو أمر حقيقي المطلوب تنفيذه وجعله حقيقة معاشرة، ولو كان أمراً ابتلائياً لما تم سجود الملائكة لآدم، ولا يكتفى منهم بإظهار استعدادهم للسجود كما أكتفى من إبراهيم بإظهار عزمه تنفيذ أمر الذبح.

ولم يختص إبليس - دون الملائكة - بأمر مستقل حتى يقال أنه وحده أمر بأمر ابتلائي، بل ثمة أمر واحد، توجه إلى الملائكة وإبليس معاً: أطاعه الملائكة، وعصاه إبليس.

* * *

على هذا الضوء:

خلاصة المؤلف التي ذكرها في الصفحة (٩٣ - ٩٢) غير صحيحة، أنّ قصة إبليس هي قصة كل مخلوق عاقل مدرك يوضع أمام الإختيار بين الخير والشر،

فيختار الشر والجريمة . وقد أتضح مما ذكرنا أيضاً أنَّ مُناقشة المؤلف للعقاد في الصفحة : (٩٤ - ٩٦) غير صحيحة أيضاً ، فإنَّها مبنية على المقدّمات والنّتائج التي بيّنا بطلانها سابقاً .

في (١٠٥ - ١٠٦) يصور المؤلف إيليس وهو مسوق إلى قدر محظوم لا فكاك منه ، ويستشهد على ذلك بحديث قدسي ، وكلام للحلاج ، وبآية «إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدْرٍ»^(١) وقد بيّنا رأينا في مستهل هذا الحديث في قيمة ما يُسمى بالأحاديث القدسية ، وكذلك في فهم الحلاج لقصة إيليس .

أما الآية فهي بعيدة جدًا عن الدلالة على مقصود المؤلف . أنَّ القدر في الآية من المقدار - وتعني النظام وعدم الفوضى والغيث ، ولا تعني الجبر ، وقد بحثنا هذا الموضوع في موضع سابق من هذا الحديث ، وبهذا أنَّ إرادة الله التكوينية لا دخل لها بأفعال العباد .

وكلام المؤلف في الصفحة : (١٠٧) عن المقارنة بين آدم وإيليس خطأ أيضاً ، فقد نهى الله آدم عن الأكل من الشجرة وتركه حراً ، وحين خالف آدم الأمر الإلهي وتلقى نتيجة مخالفته ثاب ، فكتاب الله عليه^(٢) . وكذلك الحال بالنسبة إلى إيليس

(١) القمر : ٤٩ .

(٢) تتفق الأديان السماوية على أنَّ آدم لم يستمع الله في نهيه عن الأكل من الشجرة ... وتوارد من ذكره هذه الخطية ، أو هذه المخالفة آراء مختلفة عن طبيعة الإنسان ، أو عن الجنس البشري بالنظر إلى أنَّ آدم أبو البشر هو الممثل لهذه الطبيعة ، أو لهذا الجنس ... فمن قائل : أنَّ الإنسان خير بطبعه .

وقائل : هو شرير وذنب ... وقال الماركسيون : لا يتصف الإنسان بخير ، أو شر ، لأنَّ صنيعة الطبيعة ، وخاضع لقانون التطور كغيره من الكائنات الحية . وليس هناك ما يمنع من أنَّ يتحول في المستقبل إلى

شيء آخر يبعد كلَّ البُعد عن مفهوم الإنسان الحالي، وإذن، لِئَسْ ثُمَّة طبيعة بشرية ثابتة كي نصفها بخير، أو شرّ.

أنظر، أخوات على السنة المحمدية للشيخ محمد أبو رية: ١٨٦ و ١٨٧، تفسير الميزان: ١٢٥/١، جامع البيانات: ١٥، تفسير القرطبي: ٢٩٥/١، ٣٢٢/١٥.

ووقفت المسيحية في العاجب المقابل حيث اعتبرت الإنسان مذنبًا، ومخطئاً بطبعه، وإنَّه لا خلاص له من الذنب، والخطيئة إلا بقُوَّة عظمى خارجة عن طبيعته وإرادته، وتولد من هذه الفكرة فكرة الفداء، أو القربان، وإنَّ الله قد تمثل في صورة إنسان، وأنَّه صلب، وعدُّب ليخلص البشر، ويُكفر عنهم سَيِّئاتِهم... ومن أجل هذا يطلق المسيحيون على السيد المسيح لقب «المخلص» ويعتبرون الخطيئة والفساد من صميم الدين، والعقيدة.

أنظر، تفسير الميزان: ٣١٩/٣.... وقد وصف أحدهم هذا الوضع بقوله: «لقد أصبح الدين عندنا - أي عند المسيحيين - مجسداً في الخطيئة». وقال آخر: أنَّ الكنيسة أخترعت فكرة الخطيئة، فكرة الخلاص منها بالفداء كي تقنع من تسعى إلى تحويلهم عن دينهم، تقنعهم بأنَّ الخلاص، والعلاج موجود في جيئها... وهو اعتناق المسيحية فقط لا غير.

ووجد المستعمرون، والصهاينة الشفيع، والمُبرر لطغيانهم، وعدوانهم على الإنسانية، وقيمهما، وجدوا هذا الشفيع عند الكنيسة التي تقول: أنَّ الخطيئة غريزة في طبيعة الإنسان، وجعلته... فإذا ما اعترض مُعترض على بعثتهم، وأثامهم قالوا: هذا من صنع الله، لأنَّه صنعوا... وكلَّ من ملك أستان، وما كافَ أحد إلا لعلة العجز، ومن أجل هذا ساندت قوى الشر، والعدوان الكنيسة بكلَّ ما تملك، بل وسخرت لهذه الغاية بعض العمامات التي تقلبت في البلاد، وأكثرت فيها الفساد. فمنذ عهدٍ قريب خطب معمم، ونشر في الصحف: أنَّ الآتيَاء كغيرِهم في الميول، والأهواء مُستندًا إلى ما ظهر في بعض الآيات، وما تتبَّه لأهدافه المأجورة إلا قليل.

ورُوي - ولا أستبعد هذه الرواية - إنَّ إرساليات التبشير المسيحي أغرت داراً للنشر بإعادة طبع، ونشر كتاب تشريع الآتيَاء للشريف المرتضى، وأشارت من صاحب الدار العديد من النسخ، ووزعتها بطريق، أو باخر... والقصد أنَّ يتتبَّع الناس لقوله تعالى: «وَغَصَّى آدَمُ زَبُّهُ وَفَغَوَى». سورة طه: ١٢١. وقوله: «لَيَغْفِرَ لِكَ اللَّهُ مَا تَقْدَمَ مِنْ ذَمَنِكَ وَمَا تَأْخُرَ وَيَبْعَثُكَ وَعَلَيْكَ وَيَهْدِكَ صِرَاطًا

«**مُسْتَقِيمًا**» الفتح : ٢. وَمَا إِلَى ذَلِكَ ..

أَمَّا تأوِيل الشَّرِيف بِخَلَافِ الْأُولَئِنِ، وَبَأْنَ الْأَمْرُ وَالنَّهِيُّ مِنْهُ تَعَالَى فِي هَذَا الْبَابِ هُمَا لِلإِرْشَادِ فَقَطُّ، أَمَّا هَذَا التَّأوِيلُ وَنَحْوُهُ فَيَسْعُلُهُ، وَيَقْتَنِعُ بِهِ الْخَاصَّةُ الْمُؤْمِنُونَ دُونَ الْعَامَّةِ الَّذِينَ لَا يَفْهَمُونَ مِنْ كَلِمةِ الْمَغْصِيَّةِ إِلَّا الْمَعْنَى الْحَقِيقِيُّ الْأَصِيلِ.

أَنْظُرْ، كِتَابُ عَصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ لِلشَّيْدِ الْمُرْتَضِيِّ، وَعَصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ لِلرَّازِيِّ، وَبِحَثَّا مُفصِّلًا فِي كِتَابِ حُجَّيَّةِ السُّنَّةِ لِلشَّيْخِ عَبْدِ الْغَنِيِّ عَبْدِ الْخَالِقِ بِعِنْوَانِ (الْمُقْدَمَةُ الثَّانِيَّةُ) فِي عَصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ : ٨٥ - ٢٢٩.

وَالخُلاصَةُ أَنَّ الْمَارْكِسِيَّةَ وَقَفَتْ فِي أَقْصِيِ الْيَسَارِ حِينَ نَفَتْ الطِّبِيعَةُ الْبَشَرِيَّةُ الشَّابِّةُ مِنَ الْأَسَاسِ، وَوَقَفَتْ الْمَسِيحِيَّةُ فِي أَقْصِيِ الْيَمِينِ حِينَ أَعْتَبَرَتِ الْخَطِيئَةَ طَبِيعَةً وَعَقِيدَةً، أَمَّا الْإِسْلَامُ فَقَدْ وَقَفَ مُوقِفًا وَسَطَّا يَبْيَنُ الْمَارْكِسِيَّةَ، وَالْمَسِيحِيَّةَ: وَلَمْ يَرْبِطْ الْعَقِيَّدَةُ بِهَذِهِ الْمَسَالَةِ مِنْ قَرِيبٍ، أَوْ يَعْدِلْ بِلَ أَشَارَ إِلَى طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ مِنْ بَابِ التَّعْرِيفِ، وَالْإِرْشَادِ إِلَى الْوَاقِعِ، وَأَنَّ كُلَّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ الصَّافِيَّةِ، أَقْتِبَاسًا مِنَ الْحَدِيثِ الْمَرْوِيِّ (كُلَّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ...).

أَنْظُرْ، صَحِيحُ مُسْلِمٍ : ٤/٤ ح ٢٠٤٧، صَحِيحُ أَبِنِ حَبَّانَ : ٧/٢ ح ٣٣٦، سُنْنُ التَّرْمِذِيِّ : ٤/٤ ح ٤٤٧، سُنْنُ أَبِي دَاؤِدَ : ٤/٤ ح ٤٧١٦، الْمُصَنَّفُ لِعَبْدِ الرَّزَاقِ : ٣/٣ ح ٥٣٣، ٦٦١، الْمُعْجَمُ الْأَوْسَطُ : ٤/٤ ح ٤٠٥٠، وَالترِيَّةُ هِيَ الَّتِي تُكَدِّرُهُ، وَتُلْوِنُهُ ... أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كُفَّارٌ». إِبْرَاهِيمٌ : ٣٤. وَنَحْوُهُ مِنَ الْآيَاتِ فَقَدْ أَجَابُوا عَنْهُ بِأَنَّ هَذَا الْحُكْمُ عَلَى الْإِنْسَانِ إِنَّمَا هُوَ بِالنَّظَرِ إِلَى بَعْضِ أَفْرَادِهِ، لَا بِالنَّظَرِ إِلَى طَبِيعَتِهِ، وَجِنْسِهِ .

أَنْظُرْ، التَّفْسِيرُ الْكَافِسُ : ٤/٤ : «إِنَّ الْإِشْلَامَ يَنْظُرُ إِلَى الْإِنْسَانَ مِنْ خِلَالِ عَقِيَّدَتِهِ، وَسُلُوكِهِ بِصَرْفِ النَّظَرِ عَنْ طَبِيعَتِهِ، وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ وَحْدَهُ يَحْكُمُ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ صَالِحٌ، أَوْ طَالِعٌ، طَيِّبٌ، أَوْ حَسِيبٌ». وَتَسْأَلُ: إِذَا كَانَ إِبْلِيسَ قَدْ تَوَلَّ غُوَایَةَ آدَمَ، فَمَنَ الَّذِي تَوَلَّ غُوَایَةَ إِبْلِيسَ؟

الْجَوابُ: الْحَسَدُ تَوَلَّ غُوَایَةَ إِبْلِيسَ، وَإِلَى ذَلِكَ أَشَارَ الْإِمَامُ بِالْحَدِيثِ بِقَوْلِهِ: «نَفَاسَةُ عَلَيْهِ». وَالْحَسَدُ لَا يَخْتَاجُ إِلَى مَنْ يَتَوَلَّهُ... حَتَّى الْأَطْفَالُ يَتَحَسَّدُونَ، وَيَتَغَيَّرُونَ... وَمِنْ هُنَا قَالَ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ بِالْحَدِيثِ: «وَإِذَا حَسَدَتْ فَلَا تَبْغِ». ا

أَنْظُرْ، تَفْسِيرُ الْقُرْطَبِيِّ : ١٦/٣٢٢، فَتْحُ الْبَارِيِّ : ١٠/٢١٣، التَّسْهِيدُ لِابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ : ٦/١٢٥، شَرْحُ الزَّرْقَانِيِّ : ٤/٢٢٨، تُحْفَةُ الْأَحْوَذِيِّ : ٦/٥٥، سُبْلُ السَّلَامِ : ٤/١٨٢. نَهَى عَنْ آثارِ الْحَسَدِ، وَإِظْهَارِهِ

«»

لَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ إِبْلِيسَ بِالسُّجُودِ لِأَنَّهُ رَرَكَهُ حُرًّا، فَعَصَى وَتَلَقَّى نَتِيجةً عُصِيَّانِهِ، وَلَمْ يُثْبِتْ وَإِنَّمَا أَصْرَرَ عَلَى مَوْقِفِهِ فَتَحْمَلُ مَسْؤُلِيَّةَ هَذَا الْمَوْقِفِ.

كبرياء إيليس :

وَفِي الصَّفَحةِ : (١٠٨ - ١١٠) عَالَجَ الْمُؤْلَفُ عَاطِفَةَ الْكِبْرِيَاءِ عِنْدَ إِبْلِيسِ بِاعتباره بطلًا مأساوياً . وَيُمِيزُ بَيْنَ نَوْعَيْنِ مِنَ الْكِبْرِيَاءِ : أَحَدُهُمَا : الْكِبْرِيَاءُ الَّتِي تَعْنِي التَّعْجُرُ .

وَثَانِيهِمَا : الْكِبْرِيَاءُ الْمَأْسَاوِيَّةُ . وَيَرَى الْمُؤْلَفُ أَنَّ كِبْرِيَاءَ إِبْلِيسِ مِنَ النَّوْعِ الثَّانِيِّ . أَمَّا نَحْنُ فَنَرَى أَنَّ كِبْرِيَاءَ إِبْلِيسِ مِنَ النَّوْعِ الْأَوَّلِ . يَتَضَعُّ ذَلِكَ حِينَ نُحلِّلُ عَاطِفَةَ الْكِبْرِيَاءِ . إِنَّ الْكِبْرِيَاءَ تَعْنِي رَفْضُ الْوَاقِعِ وَالتَّعَالَى عَلَيْهِ . وَلَكِنْ تَارَةً يَكُونُ حَقًا فَتَكُونُ الْكِبْرِيَاءُ عَجْرَفةً . وَأُخْرَى يَكُونُ الْوَاقِعَ فَاسِدًا وَظَالِمًا وَبَاطِلًا وَحِينَئِذٍ تَكُونُ الْكِبْرِيَاءُ بَطُولَةً ، وَتَكُونُ تَعْبِيرًا عَنِ الْكَرَامَةِ .

عَلَى هَذَا الضَّوءِ تَبَدُّلَنَا كِبْرِيَاءَ إِبْلِيسِ عَجْرَفةً لَا مُبَرِّرَ لَهَا . أَنَّهُ أَمَرَ بِالسُّجُودِ لِأَدَمَ مِنْ قِبْلِ السُّلْطَةِ الَّتِي لَهَا حَقُّ الْأَمْرِ وَهِيَ اللَّهُ، فَهَذَا إِذَنٌ وَاقِعٌ، وَهُوَ وَاقِعٌ حَقٌّ، فَإِنَّ آدَمَ جَعَلَهُ اللَّهُ خَلِيفَتَهُ فِي الْأَرْضِ وَسَخَّرَ جَمِيعَ الْقِوَى الْكَوْنِيَّةَ وَمِنْهَا الْمَلَائِكَةَ وَإِبْلِيسَ لِخِدْمَتِهِ وَمَعْوِنَتِهِ عَلَى بُلوغِ الْكَمَالِ فِي تَحْقِيقِ هَذِهِ الغَايَةِ، وَلَكِنَّ إِبْلِيسَ غُرُورًا مِنْهُ، رَفَضَ الْإِنْصِياعَ إِلَى هَذَا الْوَاقِعِ، وَلَمْ يَسْتَجِبْ لَهُ، فَكَانَ تَكْبِرُهُ عَجْرَفةً

← في قولٍ، أو فعلٍ، ولم يتبَعْهُ عن الحَسَدِ بالذَّاتِ . لأنَّه تَكْلِيفٌ بِغَيْرِ المَقْدُورِ . انظر ، ظلَالَ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ شَرْحَ الْعَلَامَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ جَوَادِ مُغَنِيَّةٍ : ١٢٥/١ ، بِتَحْقِيقِنَا . «بِتَصْرَفِ» .

سخيفة، بينما كان اعتراف آدم بواقعه فضيلة خلصته من الذنب والمعصية^(١).

(١) العبر في قصة آدم، إيليس:

١- إن كل من حقد على ذي فضل له، أو صاحب مكانة لمكانته، أو عادى إنساناً مجرداً المزاحمة، أو المشاركة في الرئاسة، والمهمة فهو على دين إيليس ومبدنه، ويُحشر يوم القيمة في زمرة.

٢- إن الطريق لمعرفة الدين، والخلق الكريم واحد فقط، وهو النبات على الحق عند الإبتلاء، والتمسك به مهما تكون النتائج، فلقد كان إيليس مضرب المثل في الخشوع، والعبادة، ثم أنهى أمره إلى ما أنهى حين أنهى الله، وأمره بالسجود لآدم... ومن يعبد الله ويخشى، لأن الله يسمع كلمات التدعي، والإطراء على خشوعه وتواضعه، فإذا مُحصّن بالباء أعرض عن الحق، وكفر - فهو من جنود إيليس وأتباعه.

٣- إن كثيراً من الناس يصررون على الباطل لا شيء إلا عناداً لخصمهم، ونكأة به، وهم يعلمون علم اليقين إن هذا الإضرار يعود عليهم بأسوا العواقب، وأوخرها، وهذا هو شأن إيليس بالذات، أصر على معصية الله، وهو يسمع تهديده ووعيده مباشرة، وبلا واسطة: «لأملاك جهنم منك ومهمن تبعك منهم أجمعين». سورة ص: ٨٥. وأقدم على عذاب جهنم، ولعنة الله، ولعنة الأعينين، وهان عليه كل شيء إلا الخشوع، والسجود لآدم، والتنازل عن كريمه.

إن الله سبحانه يتقبل التوبة من إيليس إذا تاب، وأخلص، وأيضاً إيليس على أنتم الاستعداد لأن يتوب، ويخلص، ولكن يشرط أن لا يأمر الله ثانية بالسجود لآدم، أو لغيره - على الأصح - والله سبحانه لا يتقبل التوبة إلا بهذه الشرط.

ومن دعي إلى خير، وقال: أشتُجِّيب لكل شيء إلا لهذا، لأن فيه إعزازاً لزيد، أو مساياً شخصيتي فهو على مبدأ إيليس ومقلد له، أراد ذلك أم لم يردد.

هذه بعض العبر، والعظات في قصة إيليس مع آدم، وعلينا أن نقرأ لها، ونكرر قراءتها بتتدبر، وإمعان، والعاقل من أنتظ بالغير، وأنتفع بالعبر.

(ثمَّ أشَكَنَ سُبْحَانَهُ آدَمَ دَارَاً أَزْغَدَ فِيهَا عَيْشَةَ). وكلَّ نَعِيمٍ دُونَ الْجَنَّةِ فَهُوَ مَخْقُورٌ، (وَحَذَرَهُ إِلِيَّسُ، وَعَدَاؤُهُ). «إِنَّ الشَّيْطَنَ لَكُمْ عَدُوٌ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًا». فاطر: ٦.

(فَأَغْنَرَهُ عَدُوُهُ). أي أن إيليس غرر بآدم. وقال الشيخ محمد عبده: أنهز إيليس من آدم غرة فاغواه، وكل من التفسيرين صحيح. والغرة - بكسر الغين - الغفلة (ففالة علىه بدار المقام). أي حسداً لآدم علىه

↳ **الخلود في الجنة (ومرافقه الأنوار). وهم الملائكة.**

(فَبَاعَ الْيَقِينَ بِشَكٍّ). أي نقض اليقين بالشك، والمُراد باليقين هنا علم آدم بالنهي عن الشجرة. والمُراد بالشك أن آدم بعد أن كان على يقين من أن النهي حتم والإزام - أحشل إن هذا النهي لغير الحتم، والإلزام، إيليس هو الذي أوحى إليه بهذا الإحتمال... هذا ما يدل عليه سياق الكلام، وظاهره، أو ما نفهمه تخفّض (والغريمة بوهنيه). أي ضعفه الذي أدى به إلى نقض اليقين بالشك، وهو تفسير لقوله تعالى: «ولقد عهدنا إلى آدم من قبْل فنسى ولم تجده وغَرْمًا». سورة طه: ١١٥.

(وأشنبدَ بالجذل) الفرح (وجلًا) الخوف (وبالاغترار ندماً). وهكذا عاقبة الشرفريط (ثم بسط الله سُبحانَهُ لَهُ فِي تَوْبَتِهِ). وفتح باب التوبة حتم، وسده ظلم ما دام الإنسان يطبعه غير مقصوم (ولقاء كلمة رحْمَتِهِ، ووعَدَهُ الْمَرَدُ إِلَى جَنَّتِهِ). ولكن جعل الطريق إليها محفوفاً بالمكاره: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَا يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ جَهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ الصُّنْبِرِينَ». آل عمران: ١٤٢. (وأهبطه إلى دار البلية، وتناسل الذريّة).

وعملية التناسل سهلة جداً، بل ولذِيذَة أيضًا، ولكن عاقبتها كارثة بخاصة في هذا العصر الذي نعيش فيه... ونُشير إلى هذه النكتة التي تخلط العد بالهزل، قالها فيلسوف طريف: أكل آدم من الشجرة عن قصد، وعمد، لأنَّه مل حياة الفراغ، والبطالة، وأثر المتابع، والآلام مع العد والعمل على الدعة، والرفاهية مع البطالة، والكسل... ولماذا العضلات والمقدرة على الأعمال ما دام الإنسان بلا عمل؟. وهل هو في حاجة إلى أكثر من معدة تمتلىء، وتهضم، ولسان يهدر، ويُشرِّر. انظر، ظلال نهج البلاغة شرح العلامة الشيخ محمد جواد مغنية: ١٢٢/١، بتحقيقنا. «يتصرف».

بَيْنَ قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَقِصَّةِ إِبْلِيسِ

في الصفحات: (٩٩ - ١٠٠ و ١٠٢ - ١٠٣ و ١١٢ وما بعدها) قارن المؤلف بين قصة إبراهيم في أمره بذبح ولده، وبين قصة إبليس في أمره بالسجود. وخرج من هذه المقارنة بأن قصتي إبليس وإبراهيم متشابهتان في أن كل واحدة منها مأساة، إلا أن العنصر المأساوي في قصة إبليس أبلغ وأعظم.

ونحن نرى أن المؤلف مخطيء في المقارنة، وبالتالي فهو مخطيء في الاستنتاج، لأنَّه ليس ثمة أيَّة علاقَةٌ بينَ قِصَّةِ إِبْرَاهِيمِ وَبَيْنَ قِصَّةِ إِبْلِيسِ، بل نلاحظ أنَّ يَتَّهُما جُملَةً مِن الفوارق:

الأول: أنَّ أَمْرَ إِبْرَاهِيمَ بذبح ولدِه إِسْمَاعِيلَ كَانَ أَمْرًاً امْتَحَانِيًّا (كَمَا آنْكَشَفَ فِيمَا بَعْدَ - «وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ»^(١) وَالْأَمْرُ الْإِمْتَحَانِيُّ يُرَادُ مِنْهُ - كَمَا ذَكَرْنَا آنَفًا - تَرْبِيةً إِرَادَةً إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَى الطَّاعَةِ الْمُطْلَقَةِ وَالْإِذْعَانِ التَّامِ لِلْإِرَادَةِ الْإِلَهِيَّةِ مِنْ جِهَةِ، وَإِظْهَارِ فضَلَّهُمَا لِلْمُجْتَمِعِ بِإِنْقِيادِهِمَا التَّامَ لِإِرَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ جِهَةِ أُخْرَى. وَأَمَّا أَمْرُ إِبْلِيسِ وَالْمَلَائِكَةِ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ فَكَانَ تَكْلِيفًا حَقِيقِيًّا يُرَادُ مِنْهُ تَحْقيقِ مَضْمُونِهِ فِي الْخَارِجِ، وَتَحْوِيلِهِ إِلَى عَمَلِ مَعَاشِ.

(١) الصَّافَاتُ: ١٠٧.

الثاني : أنَّ إِبْرَاهِيمَ حِينَ تَلَقَّى الْأَمْرَ الْإِلَهِي بِذِبْحِ وَلَدِهِ (وَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمْ أَنَّهُ أَمْرٌ أَمْتَحَانٍ بِطَبَيْعَةِ الْحَالِ) سُرَّ عَانَ مَا عَزَّمَ عَلَى تَنْفِيزِ هَذَا الْأَمْرِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي حَكَائِهِ حَالَ إِبْرَاهِيمَ فِي مَوْقِفِهِ ذَاكَ :

«فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَتَبَّعُنِي إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَتَأْبَتِ أَفْعُلُ مَا تُؤْمِنُ سَتَحْدِنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَ وَتَلَّهُ لِلْجَنِّينَ»^(١) .

أَمَّا إِبْلِيسَ فَحِينَ تَلَقَّى الْأَمْرَ الْإِلَهِي بِالسُّجُودِ، رَفَضَ إِطَاعَةَ هَذَا الْأَمْرِ، وَلَمْ يَرْفَضْ لِأَنَّهُ حَرِيصٌ عَلَى التَّوْحِيدِ الْمُطْلَقِ - كَمَا يُكَرِّرُ الْمُؤْلَفُ الَّذِي بَيَّنَ خَطَا نَظَرِيهِ هَذِهِ :

أَوَّلًا : لِأَنَّ السُّجُودَ الْمَأْمُورَ بِهِ لَا يُنَافِي التَّوْحِيدَ، وَلَذِكَّرَ بَقِيَ الْمَلَائِكَةَ مُوحِدِينَ بَعْدَ أَنْ سَجَدُوا .

وَثَانِيًّا : لِأَنَّ إِبْلِيسَ لَمْ يُعَلَّمْ مَوْقِفَهُ السَّلِيْ بِهَذِهِ الْعِلْمَةِ، وَإِنَّمَا عَلَّمَ مَوْقِفَهُ بِالْعُنْصُرِيَّةِ، وَالْتَّكْبُرِ، وَاحْتِقارِ آدَمَ .

الثَّالِثُ : أَنَّ عَاقِبَةَ أَنْقِيادِ إِبْرَاهِيمَ لِتَنْفِيزِ الْأَمْرِ الْإِلَهِي هِيَ الْكَرَامَةُ وَالسَّعَادَةُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :

«فَلَمَّا أَسْلَمَ وَتَلَّهُ لِلْجَنِّينَ وَنَذَرَنِهِ أَنْ يَتَابِعَهُمْ قَدْ صَدَقْتَ أَرْرُءِيَّا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُ أَبْلَأْتُمُ الْمُبِينَ وَفَدَيْنِهِ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَمْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا

الْمُؤْمِنِينَ^(١).

هَذِهِ هِيَ عَاقِبَةُ إِبْرَاهِيمَ. أَمَّا عَاقِبَةُ إِبْلِيسِ فَكَانَتْ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ : لَعْنَةُ، وَطَرَدًاً وَرَجْمًا.

وَإِخْتِلَافُ النَّتِيجَتَيْنِ لَيْسَ إِلَّا لِإِخْتِلَافِ الْمَوْقِفَيْنِ : مَوْقِفُ إِبْرَاهِيمَ مَوْقِفُ الطَّاعَةِ، وَمَوْقِفُ إِبْلِيسِ مَوْقِفُ الْجُحُودِ وَالْطُّغْيَانِ.

إِذْنَ لَا عِلْقَةَ بَيْنَ قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي هِيَ قِصَّةُ الْقَدَاسَةِ وَالطَّاعَةِ الْمُطْلَقَةِ، وَبَيْنَ قِصَّةِ إِبْلِيسِ الَّتِي هِيَ قِصَّةُ الْجُحُودِ، وَالْعُضْيَانِ، وَالْجَرِيمَةِ^(٢).

(١) الصَّافَاتُ : ١٠٣ - ١١١.

(٢) أَنَّ الدَّلِيلَ الَّذِي يَحْتَاجُ بِهِ سُبْحَانَهُ عَلَى الْجَاحِدِينَ بِوْجُودِهِ، وَوُجُوبِ الْإِيمَانِ بِهِ هُوَ نَفْسُ الدَّلِيلِ الَّذِي يَسْتَدِلُّونَ بِهِ عَلَى وُجُودِ الْأَشْيَاءِ، وَالتَّصْدِيقِ بِهَا فِي حَيَاتِهِمُ الْيَوْمِيَّةِ، وَأَعْنَى الْجَاحِدِينَ - أَنَّهُمْ إِذَا رَأَوُا بِأَعْيُنِهِمْ كِتَابًا، مَثَلًا، تَجْزِمُ، وَتَحْكُمُ عَقُولُهُمْ بِوْجُودِ الْمُؤْلَفِ، فَيُؤْمِنُونَ، وَيُصَدِّقُونَ، وَإِذَا سَمِعُوا بِآذَانِهِمْ كَلَامًا مِنْ وَزَاءِ حِجَابٍ آمَنُوا بِوْجُودِ الْمُتَكَلِّمِ؟ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ لِلْجَاحِدِينَ : لَقَدْ رَأَيْتُمْ بِأَعْيُنِكُمُ الْكَوْنَ، وَمَا فِيهِ مِنْ نَظَامٍ، وَأَحْكَامٍ، كَمَا رَأَيْتُمُ الْكِتَابَ، وَسَمِعْتُمُ الْمُتَكَلِّمَ، وَعَقُولُكُمْ فِي وَاقِعَهَا، وَطَبِيعَتُهَا تَحْكُمُ بِوْجُودِ الْمُكَوَّنِ بَعْدَ أَنْ رَأَيْتُمُ الْعَيْنَ الْكَوْنَ، بَلْ الدَّلِيلُ هُنَا أَوْضَحُ، وَأَقْوَى. وَإِذْنَ مَا هُوَ الْمُسْوَغُ لِلْجُحُودِ، وَالْإِنْكَارِ؟ وَكَيْفَ أَعْتَدْتُمُ عَلَى مَنْطِقِ الْحِسَنِ، وَالْعُقْلِ فِي إِثْبَاتِ مَا أَثْبَتُمُوهُ، وَلَمْ تَعْتَدُوا عَلَى هَذَا الْمَنْطِقِ نَفْسَهُ فِي إِثْبَاتِ الْخَالِقِ، وَالتَّصْدِيقِ بِهِ؟ وَمَا هُوَ الْمُبَرَّرُ لِهَذَا التَّنَاقْضِ، وَفَصْلُ الشَّيْءِ عَنْ نَفْسِهِ؟ فَإِنْ كَانَ مَنْطِقُ الْحِسَنِ، وَالْعُقْلُ حُجَّةٌ فِي إِثْبَاتِ الشَّيْءِ، وَالتَّصْدِيقُ بِهِ فَهُوَ حُجَّةٌ فِي كُلِّ مَوْرِدٍ حَتَّى فِي دَلَالَةِ الْكَوْنِ عَلَى الْمُكَوَّنِ، بَلْ هُوَ هُنَا أَدَلُّ، وَأَقْوَى. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا الْمَنْطِقُ حُجَّةٌ فِي إِثْبَاتِهِ تَعَالَى عَلَى الرَّغْمِ مِنْ رُؤْيَا الْكَوْنِ، وَنَظَامِهِ - فَلَا يَكُونُ حُجَّةً أَيْضًا فِي أَيِّ شَيْءٍ مِنِ الْأَشْيَاءِ، وَالْقَوْلُ بِالْفَصْلِ، وَالْتَّجْزِيَّةِ جَهَالَةٌ، وَضَلَالَةٌ... وَهَذَا الرَّدُّ، وَالْإِلَزَامُ يَقْرَبُ بِهِ قَلْبَ الْجَاحِدِ، وَيَطْمَئِنُ إِلَيْهِ، وَإِنْ أَنْكَرَهُ بِلِسَانِهِ . تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُهُ الْجَاحِدُونَ لَهُ عَلُوًّا كَبِيرًا.

لَقَدْ يَحْدُثُ أَخْيَرًا أَنْ يَكْتُفِي الْمَرءُ - وَهُوَ يُؤْدِي وَاجِبَاتِهِ الْأَسَاسِيَّةَ، وَيَطْرَحُ الذَّنْبَ الْفَاحِشَةَ - بِهَذَا الْمُسْتَوَى الْمُتَوَاضِعِ لِلرَّجُلِ الطَّيِّبِ، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ بَدَأَ - دُونَ شَكٍّ - بِتَشْبِيهِ مَثَلَهُ الْأَعْلَى عِنْدَ دَرَجَةِ ↵

وَإِلَى اللَّقَاءِ مَعَ الْمُؤْلِفِ فِي الْحَدِيثِ عَنْ «الْمَكْرُ الْإِلهِيِّ».

↔ مُتوسطة، هي أقصى ما يبلغه الجُهد المُعتدل، وهو خطأ يختلط به «الهدف» و«العمل». إنَّ اعتدال العمل لا يُبغي أنْ يتأتى، ولا يمكن أنْ يتألَّ، إلَّا على أساس رَيَّةٍ شَهَدَتْ أَغلى قيمة، وأسمى درجات الكمال. وأي حد يهبط عن هذا المستوى ستكون له بالضرورة إنعكاساته على الإرادة، التوقف، والتناقض، والكافف.

المَكْرُ الْأَلْهَى

المَكْرُ الْإِلَهِي

حاوَلَ الْمُؤَلَّفُ فِي الصَّفَحَاتِ : (١١٩ - ١٢٨) «إِيجَادُ تَعْلِيلٍ دِينِيٍّ مَقْبُولٍ» لِمَا فَهَمَهُ - خَطَأً - مِنْ قِصَّةِ إِبْلِيسِ . وَبَعْدَ أَنْ أَشْتَرِضَ فِي الصَّفَحَاتِ : (١١٩ - ١٢٠) مَا سَمِّاهُ «الْمُفَارِقَاتِ» فِي قِصَّةِ إِبْلِيسِ ، وَعِلَاقَتِهِ بِاللهِ ، قَالَ : «أَعْتَقَدُ أَنَّ الصُّفَةَ الْإِلَهِيَّةَ الَّتِي نَبْحُثُ عَنْهَا لِلْإِجَابَةِ عَلَى هَذِهِ الْأَسْئَلَةِ هِيَ صِفَةُ الْمَكْرِ» .

ثُمَّ عَرَضَ بَعْضُ الْآيَاتِ الَّتِي وَرَدَ فِيهَا لِفَظُ الْمَكْرِ ، وَالْإِسْتَهْزَاءِ ، وَالْإِمْلَاءِ ، وَالخَدِيعَةِ . وَأَسْتَخلَصُ مِنْهَا أَنَّ اللَّهَ يَمْكُرُ بِعِبَادِهِ وَ«لَمْ يَكُنْ أَمْرُ الْإِبْتِلَاءِ إِذْنَ سَوِيِّ أَدَاءِ الْمَكْرِ الْإِلَهِيِّ» ، غَایَتِهَا تَفْيِيدُ أَحْكَامِ الْمَشِيشَةِ ، وَتَبْرِيرُهَا أَمَامَ مَخْلُوقَاتِهِ ، فَتَصْبِحُ بِذَلِكَ مَقْبُولَةً فِي أَعْيُنِهِمْ (...). وَلَكِنَّ الْمَكْرَ الْإِلَهِيَّ يَتَدَخَّلُ لِيَجْعَلِ الْأُمُورَ تَبَدُّلُ لِلْعِبَادِ فِي غَيْرِ مَا هِيَ عَلَيْهِ ، أَيِّ لِيَجْعَلِ الْمَشِيشَةَ وَكَانَ لَهَا غَایَاتٍ وَمُبْرَزَاتٍ وَأَسْبَابًا (...). رَدَّدَنَا مَرَارًا أَنَّ اللَّهَ هُوَ صَانِعُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ (...). وَلَكِنَّ مِنْ مَكْرِهِ أَرَادَ لِلْعِبَادِ أَنْ يَعْتَقِدُوا غَيْرَ ذَلِكَ ...»^(١).

وَقَدْ عَزَّزَ الْمُؤَلَّفُ هَذِهِ الْأَحْكَامِ الْإِغْتِبَاطِيَّةِ الَّتِي لَا أَسَاسٌ لَهَا مِنَ الصَّحَّةِ إِطْلَاقًا بِالْإِسْتَهْدَادِ بِالنَّصُوصِ الصُّوفِيَّةِ وَمَا يُسْمَى بِالْأَحَادِيثِ الْقُدُسَيَّةِ ، وَقَدْ نَبَهَنَا فِيمَا

(١) أَنْظُرْ ، الصَّفَحَاتِ : (١٢٣ - ١٢٥) . (مِنْهُ بَيْنُ).

سبق علىَّ أنَّ هذِه الشَّواهد عَدِيمَة القيمة مِنْ حِيثِ كُونَهَا مَصْدَرًا لِفَهْمِ القِصَّةِ الْقُرْآنِيَّةِ. يَبْدُو اللَّهُ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ خِلَالِ أَسْتَنَاجَاتِ الْمُؤْلَفِ بَعْدَ «أَكْتَشَافَة» لِلْمَكْرُ الْإِلَهِي - يَبْدُو اللَّهُ كَائِنًا شَرِيرًا، مُخَادِعًا، عَابِرًا، لَا عَبَرًا. يَبْدُو اللَّهُ وَكَانَهُ أَحَدُ آلهَةِ الْيُونَانِ الْقَدِيمَةِ فِي أَنَّ فِيهِ كَثِيرًا مِنْ تَقَائِصِ الْبَشَرِ، وَلَيْسَ فِيهِ الْكَثِيرُ مِنْ كَمَالَتِهِمْ. وَالْمُؤْلَفُ مُخْطَىءٌ فِي بَحْثِهِ، وَفِي فَهْمِهِ لِمَا أَسْمَاهُ «الْمَكْرُ الْإِلَهِي»، وَفِي أَسْتَنَاجَاتِهِ أَخِيرًا بَطِيعَةِ الْحَالِ. وَلَكِنَّ مِنْ أَيِّنَ جَاءَ الْخَطَأُ؟.

لَقَدْ قُلْتُ أَكْثَرُ مِنْ مَرَّةٍ فِي الْحَلْقَاتِ الْمُتَقدِّمَةِ مِنْ هَذَا الْبَحْثِ أَنَّ الْمُؤْلَفَ جَاهِلٌ بِمَوْضُوعِ نَقْدِهِ، وَهُوَ الدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ، وَأَضِيفُ هُنَا إِلَى مَا تَقَدَّمَ أَنَّ الْمُؤْلَفَ غَيْرَ مُتَمَكِّنٍ - بِصُورَةِ بَاعِثَةٍ عَلَى الْأَسْفِ - مِنْ لُغَةِ الْقُرْآنِ وَأَسَالِيَّبِهِ الْبَلَاغِيَّةِ.

هُوَ غَيْرُ مُتَمَكِّنٍ مِنِ الْلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَدَلِيلِي عَلَى ذَلِكَ كَثِيرَةُ الْأَخْطَاءِ الَّتِي يَقْعُدُ فِيهَا بِإِسْتِمرَارٍ. وَلَوْ كَانَ الْمُؤْلَفُ يَكْتُبُ بِلُغَةِ غَيْرِ لُغَتِهِ لَمَا أُغْتَفِرْ لَهُ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ يَكْتُبُ فِي مَوْضُوعٍ مِنْ أَخْطَرِ مَوْضُوعَاتِ الْفِكْرِ الْإِنْسَانِيِّ، فَكَيْفَ وَهُوَ يَكْتُبُ بِلُغَتِهِ هُوُ، لُغَةُ بَزَلَدِهِ وَقَوْمِهِ، وَيَسْتَأْوِلُ بِكِتَابَتِهِ نَقْدُ نُصُوصِ مَكْتُوبَةِ بِالْلُّغَةِ نَفْسِهَا.

عَنِّي أيَّ شَيْءٍ يَكْسِفُ هَذَا؟ أَنَّهُ يَكْسِفُ عَنَّ أَنَّ عَقْلَ الْمُؤْلَفِ قدْ تَكَوَّنَ فِي مَنَاخٍ غَيْرِ عَرَبِيٍّ، وَيُبَرِّرُ لَنَا القَوْلَ بِأَنَّ الْمُؤْلَفَ لَيْسَ مُؤْهلاً لِلْكِتَابَةِ عَنِ نَقْدِ الْفِكْرِ الْدِّينِيِّ الْإِسْلَامِيِّ.

وَهُوَ غَيْرُ مُتَمَكِّنٍ مِنِ لُغَةِ الْقُرْآنِ وَأَسَالِيَّبِهِ الْبَلَاغِيَّةِ، وَدَلِيلِي عَلَى ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنِ الشَّوَاهِدِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي مَرَّتْ عَلَيَّ فِي كِتَابِهِ، وَدَلِيلِي الْكَبِيرُ عَلَى ذَلِكَ بَحْثَهُ عَنِ الْمَكْرِ الْإِلَهِيِّ، مَوْضُوعٌ حَدِيثَنَا الْآنُ. إِنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ كَلَامًا بَسِيطًا عَادِيًّا لِيُمَكِّنُ

تَنَاؤلِهِ، وَفَهْمِهِ بِبَسَاطَةٍ وَكَانَتْ تَشَدُّدَ مَعَ بَعْضِنَا، أَوْ كَانَتْ نَقْرَأُ جَرِيدَةً. إِنَّ الْقُرْآنَ عِنْدَ الْمُؤْمِنِ بِهِ وَحْيٌ إِلَهِيٌّ مُعْجِزٌ فِي بِلَاغَتِهِ، وَعِنْدَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِ بِهِ كَلَامٌ يُعْتَبَرُ نَمُوذْجًا أَعْلَى لِلْبِلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَلِذَلِكَ فَلَابَدَ - لِأَجْلِ فَهْمِهِ بِشَكْلٍ صَحِيحٍ - مِنِ الْإِحْاطَةِ التَّامَّةِ بِقَوَاعِدِ الْبِلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَأَسَالِيبِ الْبَيَانِ الْعَرَبِيِّ. إِنَّ أَيِّ أَسْتَاذَ لِلْأَدَبِ لَا يَجْرُؤُ عَلَى تَنَاؤلِ نَصِّ أَدَبِي عَادِيٍّ بِالنَّقْدِ مَا لَمْ يَتَّخِذْ لَهُ أَهْبَتَهُ، وَيَسْتَعِدُ لَهُ بِمَا يُلْزِمُهُ مِنْ مَعْرِفَةٍ، فَكَيْفَ بِالْمُؤْلِفِ وَهُوَ يَتَنَاؤلُ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ دُونَ أَنْ يَمْلِكَ الْأَدَاءَ الَّتِي تَجْعَلُهُ قَادِرًا عَلَى فَهْمِهَا بِصُورَةٍ صَحِيقَةٍ.

وَثُمَّةِ شَيْءٍ أَسَاسِيٍّ آخَرٍ يَجْبُ أَنْ يَتَحَلَّ بِهِ الْبَاحِثُ - نَاقِدًا كَانَ أَوْ غَيْرَ نَاقِدٍ - عِنْدَمَا يَتَنَاؤلُ نَصًا مِنِ النُّصُوصِ، وَهُوَ الْأَمَانَةُ الْفِكْرِيَّةُ: يَجْبُ أَنْ يَعْرِضَ النَّصَ بِتَمَامِهِ لِيُحِيطَ بِجَمِيعِ عَنَّاصِرِهِ، وَيَفْهَمَ جَمِيعَ عِلَاقَاتِهِ الدَّاخِلِيَّةِ، وَبِذَلِكَ يَسْتَطِعُ أَنْ يُكَوِّنَ عَنْهُ فِكْرَةً صَحِيقَةً أَوْ مُقارِبةً. أَمَّا أَنْ يَبْتَرِ النَّصُّ، وَيَخْتَارُ مِنْهُ الْمَقْطَعَ الَّذِي يُؤْيِدُ هَوَاهُ، فَهَذَا لَيْسَ مِنِ الْأَمَانَةِ الْفِكْرِيَّةِ فِي شَيْءٍ. أَنَّهُ أَحَقُّ أَنْ يُسَمَّى تَزوِيرًا فِكْرِيًّا. وَسَنَرَى فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ الْأَمَانَةَ الْفِكْرِيَّةَ كَانَتْ عُنْصَرًا مَفْقُودًا عِنْدَ الْمُؤْلِفِ - رُبَّمَا بِسَبِبِ عَدَمِ تَمَكُّنِهِ مِنْ لُغَةِ الْقُرْآنِ، وَأَسَالِيبِهِ الْبِلَاغِيَّةِ - فَإِنَّهُ فِي نَفْلِهِ لِلآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي جَعَلَهَا شَوَاهِدَ عَلَى «أَكْتَشَافِهِ» لِلْمَكْرُ الِّيَاهِيِّ، لَمْ يَنْقُلِ النُّصُوصَ كَامِلَةً، وَإِنَّمَا وَقَعَ إِخْتِيَارُهُ مِنْهَا عَلَى مَقَاطِعِ مُعَيَّنَةٍ تَوَهَّمُ أَنَّهَا تُؤْيِدُ هَوَاهُ وَنَظَريَّتَهُ، وَعَزَّلَهَا عَنِ عِلَاقَاتِهَا بِغَيْرِهَا مِنِ الْمَقَاطِعِ الْأُخْرَى فِي النَّصِ الَّذِي تَنَاؤلُ الْوَاقِعَةَ.

* * *

لَقَدْ وَرَدَتْ مُشَتَّقَاتِ مَادَّةِ (م . ك . ر) فِي سِتٍّ وَعِشْرِينَ آيَةً مِنِ الْقُرْآنِ،

وذلك في السور التالية:

«آل عمران. الأنعام. الأعراف. الأنفال. يؤنس. يوسف. الرعد. إبراهيم. النحل. النمل. المؤمن. نوح. فاطر. سباء».

ومُستنقات هذه المادة ليست مُضافة إلى الله تعالى في جميع مواردها، وإنما هي مُضافة إلى الله بشكل أو باخر في سرت آيات فقط، وهي الآيات التالية:

- ١ - في شأن عيسى عليه السلام، وإرساله إلىبني إسرائيل، ودعوه لهم إلى الإيمان، وكفرهم به: «وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكَرِينَ»^(١).
- ٢ - في شأن أهل القرى: أبتداءً من الآية (٦٤ - ٥٩ الأعراف) ذكر الله طرفاً من قصّة نوح مع قومه، وكفرهم به وعقابهم.

وفي الآيات (٦٥ - ٧٢) ذكر الله طرفاً من قصّة النبي هود مع قومه عاد، وكفرهم به، وعقابهم.

وفي الآيات (٧٣ - ٧٩) ذكر الله قصّة النبي صالح مع قومه ثمود وكفرهم به. وفي الآيات (٨٠ - ٨٤) ذكر الله طرفاً من قصّة النبي لوط مع قومه وكفرهم به وعقابهم.

وفي الآيات (٩٣ - ٨٥) ذكر الله طرفاً من قصّة النبي شعيب مع قومه، وإنقسامهم بين الكفر والإيمان، وعقاب الكافرين منهم.

وفي الآيات (٩٤ - ٩٥) ذكر الله قاعدة عامة في الرسول والأنبياء مع أقوامهم، وزكيف يربى الله الإنسان ليعي ويؤمن، ثم بعد هذا البيان عن أهل القرى، قال الله تعالى:

«وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرْبَىَءَ امْنَوْا وَأَتَقَوْا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَتِ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخْذَنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرْبَىَءَ أَنْ يَأْتِيهِمْ بِأَسْنَا
بَيْتًا وَهُمْ نَازِعُونَ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرْبَىَءَ أَنْ يَأْتِيهِمْ بِأَسْنَا ضُحَىٰ وَهُمْ يَلْعَبُونَ
أَفَأَمِنُوا مَكْرَرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمُنُ مَكْرَرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَسِيرُونَ»^(١).

٣- فِي قَوْمٍ شَمُودٍ وَنَبِيِّهِمْ صَالِحٌ، وَدَعَوْتَهُ لَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ وَكُفْرُهُمْ بِهِ وَتَآمِرُهُمْ
عَلَى قَتْلِهِ :

«وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَنْقِيَّةُ مَكْرِهِمْ
أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ»^(٢).

٤- فِي شَأْنِ النَّبِيِّ مُحَمَّدَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقُرَيْشٍ، وَتَآمِرُهُمْ عَلَيْهِ، وَنَجَاتَهُمْ مِنْهُمْ بِالْهِجْرَةِ
إِلَى الْمَدِينَةِ :

«وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَيْتُهُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ
الَّهُ وَالَّهُ خَيْرُ الْمَكَرِّينَ»^(٣).

(١) أَلْأَغْرِيفَ : ٩٦ - ٩٩.

(٢) الْنَّحْلَ : ٥٠ - ٥١.

(٣) الْأَنْفَالَ : ٣٠.

دَارُ النَّدْوَةِ : هِيَ دَارُ قُصِيِّ بْنِ كَلَابِ الَّذِي كَانَتْ لَهُ رِئَاسَةُ عَامَةٍ، وَزَعَامَةٌ مُطلَقةٌ عَلَى قُرَيْشٍ، فَاتَّخَذُوا
دَارَهُ مَرْكَزاً لَهُمْ، وَأَسْتَمْرَوا عَلَى ذَلِكَ بَعْدَ وَفَاتِهِ، وَقِيلَ : إِنَّهَا أَوَّلُ دَارٍ بُيَّنَتْ بِمَكَّةَ، وَسُمِّيَتْ بِالنَّدْوَةِ لِأَنَّهُمْ
كَانُوا يَنْتَدُونَ بِهَا - أَيْ يَجْتَمِعُونَ فِيهَا لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ - وَفِيهَا تَنْضِي قُرَيْشٌ أُمُورَهَا، فَمَا تُشَكِّحُ أَمْرًا وَلَا
تُدْرِعُ جَارِيَةً وَلَا يَتَزَوَّجُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَلَا يَتَشَافَّرُونَ فِي أَمْرٍ تَرَزَّلُ بِهِمْ إِلَّا فِيهَا.

(أَنْظُرْ، طَبَّاقَاتِ أَبْنِ سَعْدٍ : ٧٠/١ وَ ٧٧، السَّيِّرَةُ لِابْنِ هُشَامٍ : ١٣٠/١، فَتوْحُ الْبَلْدَانُ لِلْبَلَادِيِّ : ٧٠، تَارِيخُ الطَّبَّارِيِّ : ٢٥٨/٢).

٥ - أبتدأء من أول سورة يوئس يعرض الله تعالى صوراً من مواقف المسلمين من النبي ﷺ والقرآن ويدرك المسلمين بما حدث لآلافهم من مكذبي

وقيل: كان مجتمعهم هنا أربعين رجلاً، وقالوا يا جمعهم: أن يجتمع من كل بطن من بطون قريش رجل شريف ويكون معهم من بيته هاشم واحد فياخذون حديدة أو سيفاً ويدخلون عليه فيضرّونه كلهم ضربة واحدة فيفرق دمه في قريش كلها فلا يستطيع بنو هاشم أن يطلبوا بدمه، فاختاروا خمسة عشر رجلاً فيهم أبو لهب على أن يدخلوا على رسول الله فيقتلوه، فأنزل الله سبحانه وتعالى على رسوله «إِذْ يَنْكُرُ بِكَ الظَّالِمُونَ» (الأనفال: ٣٠). فأمر رسول الله ﷺ أن يفرش له، وقال لعلي عليه السلام: يا علي أدناني بنفسك، قال: نعم يا رسول الله، قال له: نعم على فراشي والتّحف ببردي. فنام على عليه السلام على فراش رسول الله ﷺ وألتحف ببردته.

وقيل: إن الله أوحى في تلك الليلة إلى جبريل وميكائيل: إني قضيت على أحدكم بالموت فایكما بواسي صاحبه فاختار الحياة كلاهما... وساق الحديث وخرج رسول الله ﷺ عليهم وهو يقرأ «يس» إلى قوله: «وَجَعَلْنَا مِنْ مَبْيَنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ» (يس: ٩). وأخذ تراباً يكفيه ونشره عليهم وهم نائم ومضى. فقال له جبريل: يا محمد خذ ناحية ثور - وهو جبل على طريق مني له سِنام كستان الثور - فمر رسول الله وتلقاه أبو بكر في الطريق فأخذ بيده ومر به فلما أنتهى إلى ثور دخل الغار.

(انظر، الدر المنشور: ٤/٢٠٢ وأخرج عبد الرزاق، وأبن المنيذ عن الزهرى، وأنظر تفسير الميزان للسيد محمد حسين الطباطبائى: ٩/٣٠٦، المسترشد في الأماماة لمحمد بن جرير الطبّري الإمامي (ق ٥): ٤٣٤، تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي: ٤٠، والطرائف لإبن طاووس: ٤٠٧؛ الشافى للسيد المرتضى: ٤/٢٥).

وروى ابن الأثير في الكامل: أنه سأل أولئك الرهط عليهما عن النبي ﷺ فقال: لا أدرى أمرتهم بالخروج فخرج، فضربوه وأخرجوه إلى المسجد فحبسوه ساعة ثم تركوه، ونجى الله رسوله من مكراهم وأمره بالهجرة، وقام على يهودي أمانة النبي ﷺ ويقتل ما أمره. ونحن لا نريد التعليق على كلام ابن الأثير بل نقول له: ماذا تقول لرواية حديث: أهبطنا إلى الأرض فاحفظوا من عدوه، كان جبريل عند رأسه وميكائيل عند رجليه ينادي ويقول: يخ يخ من مثلك يا ابن أبي طالب يباهاي الله بك الملائكة؟ وقد رواه الشعابي في الكشف والبيان. وماذا تقول لنفسك عندما رويت الحديث في أسد الغابة: ٤/١٨ و ٥/٢٥ فهل هو التناقض الذي وقعت فيه أم التعصب الذي أعماك؟

الرسالات، وَيُسَفِّهُ وَتَنْبِيَهُمْ، وَذَكْر طَلَبِهِم لِلمُعْجَزَاتِ، ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى :
«وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرُ فِي ءَايَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ»^(١).

٦ - بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ اللَّهُ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ الدَّلَائِلِ الْكَوْنِيَّةِ عَلَى وجُودِهِ وَقُدرَتِهِ، وَسَفَهَ أَفْكَارَ الْمُلْحِدِينَ لِلْحَيَاةِ الْآخِرَةِ، وَأَسْتَعْجَلَهُمْ لِلْعَذَابِ مَعَ عِلْمِهِمْ بِمَا حَدَثَ لَمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأَمْمِ الْمُشْرِكَةِ، وَطَلَبُهُمْ لِلمُعْجَزَاتِ، ثُمَّ يَذْكُرُ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ الدَّلَالَةِ عَلَى وجُودِهِ، وَقُدرَتِهِ، وَحِكْمَتِهِ، وَصُورًا عَنْ مَوَاقِفِ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ، وَصُورَةً عَنْ مَوْقِفِ الْمُشْرِكِينَ وَعَاقِبَتِهِمْ **«أَوْلَئِكَ لَهُمُ الْلَّغْنَةُ وَلَهُمْ سُوقُ الدَّارِ»**^(٢) ثُمَّ يَذْكُرُ طَلَبُهُمْ لِلمُعْجَزَةِ، ثُمَّ يَذْكُرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَذْكُرُ أَسْتَهْزَاءَ الْأَمْمِ السَّابِقَةِ بِأَنْبِيَائِهَا، وَكَيْفَ **«زُيَّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ»**^(٣). الْجَنَّةُ وَعَدَ بِهَا الْمُتَّقُونَ، وَالْقُرْآنُ، وَالرُّسُلُ السَّابِقِينَ، ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى :

«وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَلَّهُ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقِبَى الدَّارِ»^(٤).

* * *

هَذِهِ هِيَ الْآيَاتُ الَّتِي وَرَدَ فِيهَا الْمَكْرُ مَنْسُوبًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى. أَمَّا الْآيَاتُ الْأُخْرَى الَّتِي وَرَدَتْ فِيهَا صِفَةُ الْإِسْتَهْزَاءِ وَالْمُخَادِعَةِ مَنْسُوبَتَيْنِ إِلَى اللَّهِ فَمَوْعِدُنَا

(١) يُؤْنس : ٢١.

(٢) الْرَّعْدُ : ٢٥.

(٣) الْرَّعْدُ : ٣٣.

(٤) الْرَّعْدُ : ٤٢.

معهاً بعد الحديث عن «المكروه الإلهي». فلنحاول الآن أن نفهم كيف ينسب الله المكروه إلى نفسه، وما المراد من ذلك؟.

* * *

إن المكروه من العبد هو الحيلة والخداعة. والمكروه من الله هو المجازاة، والعقوبة على الذنب. والتغيير عن المجازاة، والعقوبة على الذنب في هذه الموارد بلفظ «المكروه» مظهر من مظاهر البلاغة العربية. وهذا النحو من البيان يسمى في البلاغة العربية «المشاكلة» و«المجازسة» وذلك بأن يذكر الشيء بلفظ غيره لوقعه في صحبته. وهو كثير الورود في الشعر الجاهلي من ذلك قول يزيد بن نواف الكلابي مخاطباً الحارث بن أبي شمر الغساني وكان قد أغتصب ابنته الشاعر فخاطبه بقصيدة منها:

يا حار، أيمكن بأن كمَا تدينْ تُدان^(١)
وأعلم بأن كمَا ملكك زائل

(١) رُوي هذا القول تارةً عن النبي ﷺ، وتارةً عن الإمام علي عليه السلام، وتارةً عن الإمام الباقر عليه السلام، وتارةً على لسان كماء جاء في الأمثال، ولكن كلها تؤدي نفس المعنى: فمثلاً رُوي عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «كان فيما أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران: يا موسى من زنا زنى به، ولو في العقب من بعده، يا ابن عمران: إن تغفَّ أهلك، يا موسى بن عمران إن أردت أن يكثر خير أهلك بيتك فإياك والزنا، يا ابن عمران كمَا تدينْ تُدان». انظر، من لا يحضره الفقيه: ٤/١٢ ح ٤٤٩، دعائيم الإسلام: ٢/٤٤٩ ح ١٥٧١، و قريب منه في الكافي: ٥٥٢/١ ح ١٠٧١، المحاسن: ٩٤ ح ١٠٧١. وذكره الشيخ الصدوق في كتاب التوحيد: ٢٦، بقوله كما قال الشاعر:

كمَا يَدِينَ الْفَتَنَ يَوْمًا يُدَانَ بِهِ
من يَرْعِي الثَّوْمَ لَا يَقْلُعُهُ رِيحَانًا

وَالَّذِينَ هُنَا هُوَ الْجَزَاءُ، وَهُمْ بِئْتُ (كَمَا تَجْزِي تُجْزِي) مَعَ أَنَّ فِعْلَ الْحَارِثِ
الْفَسَانِي مَعَ الشَّاعِرِ لَيْسَ بِجَزَاءٍ، وَإِنَّمَا هُوَ الْعُدُوانُ، وَلَكِنَّ الشَّاعِرَ عَبَرَ عَنِ
الْعُدُوانَ وَالْجَزَاءِ بِمَادَةٍ وَاحِدَةٍ. تَدِينَ تُدَانَ.

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الْمُنْخَلِ الْيَشْكُرِيِّ:

أَلَا لَا يَجْهَلْنَ أَحَدٌ عَلَيْنَا
فَنَجْهَلْ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ^(١)
فَعَبَرَ عَنِ الْجَزَاءِ عَلَى الْجَهَالَةِ بِالْجَهَالَةِ، مَعَ أَنَّ مَرَادَهُ مِنْ قَوْلِهِ «فَنَجْهَلْ...»
لَيْسَ جَهَالَةُ الْعُدُوانَ وَإِنَّمَا الْجَزَاءُ عَلَى الْعُدُوانَ.

ورُوِيَ هَكَذَا:

وَأَعْلَمُ بِأَنْكَ كَمَا تَدِينُ شُدَّانُ
وَأَعْلَمُ، وَأَيْقَنُ أَنَّ مُلْكَكَ زَانِلَ
زَانِل

ورُوِيَ هَكَذَا:

يَا حَارِ، إِنَّكَ مَيِّتٌ وَمُحَاسِبٌ
وَأَغْلَمُ بِأَنْكَ كَمَا تَدِينُ شُدَّانُ

وَقَدْ نَسَبَ صَاحِبُ جَمَهَرَةِ الْأَمْثَالِ لِلْعَسْكَرِيِّ: ١٦٩ إِلَى خُوَيْلِدِ بْنِ خُوَيْلِدِ الْكِلَائِيِّ، وَقِيلَ هَذَا الْمُثَلُ
مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَةِ كَمَا جَاءَ فِي أَفْتَضَاءِ الْعِلْمِ الْعَمَلِ لِلْخَطَّابِ الْبَغْدَادِيِّ: ٨٩، وَنُزَهَةُ النَّاظِرِ وَتَنَيِّيَّهُ
الْخَاطِرِ: ١٦ ح ٣١، وَقِيلَ مَكْتُوبٌ فِي الإِنْجِيلِ، كَمَا جَاءَ فِي كَنزِ الْعُمَالِ: ١٥/٧٧٢ ح ٤٢٠٣١
و ٤٢٠٣٢، شَرْحُ مُسْنَدِ أَبِي حَنِيفَةِ: ١٩٤.

أَنْظُرْ، صَحِيحُ الْبَغَارِيِّ: ١٤٦/٥، مُقْدَمةُ فَتْحِ الْبَارِيِّ: ١١٥/١ و ١١٩/٨، الْمُصَنَّفُ لِعَبْدِ الرَّازِقِ:
١٧٩/١١ ح ٢٠٢٦٢، الْأَسْمَاءُ وَالصَّفَاتُ لِلْبَيْهَقِيِّ: ٦٠، بُعْيَةُ الْبَاحِثِ: ٣١٣ ح ١٠٥٠، كِتَابُ السُّنَّةِ
لِابْنِ أَبِي عَاصِمِ: ٣٠٥، الْجَامِعُ الصَّغِيرُ: ٤٩٣/١ ح ٣١٩٩ و ٢٩٥/٢ ح ٤٩١١، كِشْفُ الْخَفَاءِ:
٢٨٤/١ ح ٩٠٢، جَامِعُ الْبَيْانِ لِابْنِ جَرِيرِ الطَّبَّارِيِّ: ١٠١/١، تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ: ١٤٤/١، تَفْسِيرُ
الْشَّعَالِيِّ: ١٦٥/١، تَارِيخُ دِمْشَقِ: ٦٢/١٧، لِسَانُ الْقَرْبَى: ٩٢/١ و ١٦٩/١٣، الْمَحَايِنُ لِلْبَرْقِيِّ:
١٠٧/١ ح ٩٤، وَسَانِلُ الشِّيْعَةِ: ٢٥٥/٢٠ ح ٢، عَوَالِيُّ الثَّنَالِيِّ: ٥٤٦/٢ ح ٥.

(١) يُنْسَبُ هَذَا الشِّعْرَ إِلَى عَمْرُو بْنِ كُلَّثُومَ التَّغْلِبِيِّ كَمَا جَاءَ فِي شَرْحِ الْمُعْلَقَاتِ لِلتَّبَرِيزِيِّ: ٢٢٨، وَأَمَالِيِّ السَّيِّدِ الْمُرْثَضِيِّ: ٤٢/١.

وَقَدْ وَرَدَ كَثِيرٌ مِنْ ذَلِكَ فِي شِعْرٍ مَا بَعْدَ الْإِسْلَامِ أَيْضًا.

وَوَرَدَ هَذَا النَّحْوُ مِنَ الْبَيَانِ فِي الْقُرْآنِ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعٍ.

وَمِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: «تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ»^(١). وَالْمُرَادُ: وَلَا أَعْلَمُ مَا عِنْدَكَ، وَعَبَرَ بِالنَّفْسِ لِلْمُشَاكِلَةِ، وَإِلَّا فَلَيَسَ اللَّهُ نَفْسًا.

وَمِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: «نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ»^(٢). وَالْمُرَادُ مِنْ «أَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ» أَهْمَلَهُمْ، وَعَبَرَ عَنِ الْإِهْمَالِ بِالْإِنْسَاءِ لِوَقْوَعِهِ فِي صُحْبَتِهِ مُرَاعَاةً لِلْمُشَاكِلَةِ، وَالْمُجَانَسَةِ.

وَمِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: «فَمَنْ أَعْتَدَنِي عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا أَعْلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَنِي عَلَيْكُمْ»^(٣). فَعَبَرَ فِي هَذَا الْآيَةِ بِالْإِعْتِدَاءِ عَنِ الْجَزَاءِ عَلَى الْإِعْتِدَاءِ مُرَاعَاةً لِلْمُشَاكِلَةِ.

وَمِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَجَزَؤُ أَسْيَئَةِ سَيِّئَةً مِثْلُهَا»^(٤). فَعَبَرَ عَنِ جَزَاءِ السَّيِّئَةِ بِالسَّيِّئَةِ أَيْضًا.

وَمِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقَبْتُمْ بِهِ»^(٥) فَعَبَرَ عَنِ الْجَزَاءِ عَلَى الْإِعْتِدَاءِ بِالْعُقُوبَةِ كَمَا عَبَرَ عَنِ الْإِعْتِدَاءِ نَفْسَهُ بِالْعُقُوبَةِ.

وَمِنْ ذَلِكَ الْآيَاتِ الَّتِي وَرَدَ فِيهَا نِسْبَةُ الْمَكْرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَفِي جَمِيعِ هَذِهِ

(١) العنكبوت: ١٩.

(٢) الحشر: ١٩.

(٣) البقرة: ١٩٤.

(٤) الشورى: ٤٠.

(٥) النحل: ١٢٦.

الآيات يأتِي المَكْرُ مَنْسُوباً إِلَى الله فِي مُقَابِلَةِ مَكْرِ الْكَافِرِينَ، وَكُفُرُهُمْ وَجَحُودُهُمْ، فَهُوَ تَعْبِيرٌ عَنِ الْجَزَاءِ وَالْعِقَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ بِهِمْ لِمَكْرِهِمْ، بَلْ هُوَ النَّتْيَاجَةُ الطَّبِيعَةُ لِمَكْرِهِمْ وَاحْتِيَالِهِمْ وَخَدَاعِهِمْ، وَأَسْتَعْمَلُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ لَفْظَ الْمَكْرِ لِلْمُشَاكِلَةِ وَالْمُجَانَسَةِ.

وَالآنْ نَسْتَعْرِضُ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْآيَاتِ السَّتَّ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا وَنُحلِّلُهَا لِنَكْشِفَ بُوضُوحٍ عَنِ هَذَا الْمَعْنَىِ.

* * *

الآية الأولى :

«وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكَرِينَ»^(١).

تَسْتَحِدُّ الْآيَةَ عَنِ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَدْ مَكَرُوا عَلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْحِيلَةِ لِقَتْلِهِ، وَجَازَاهُمُ اللَّهُ عَلَى مَكْرِهِمْ بِالْخَيْبَةِ وَالْخُذْلَانِ، إِذْ خَلَصَهُ مِنْهُمْ وَأَلْقَى شُبْهَةَ عَلَى شَخْصٍ آخَرَ. أَوْ أَنَّهُمْ مَكَرُوا بِالْكُفُرِ بِرِسَالَةِ عِيسَى وَالْإِنْكَارِ فَجَازَاهُمُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ بِالْعُقُوبَةِ وَالْخُذْلَانِ.

الآية الثانية :

يَئِنَّا آنَفًا طَبِيعَةُ الْجَوَادِيِّ وَرَدَتْ فِيهِ الْآيَةُ وَمِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ إِسْنَادَ الْمَكْرِ إِلَى اللهِ فِي الْآيَةِ الْأُخِيْرَةِ هُوَ بِمَعْنَى الْمُجَازَاةِ لِأَهْلِ الْقُرْبَى عَلَى مَكْرِهِمْ وَكُفُرِهِمْ وَجَحُودِهِمْ، وَلَيْسَ الْمَكْرُ فِيهَا بِالْمَعْنَى الَّذِي يُنْسَبُ إِلَى الْبَشَرِ، وَعَلَى الْقَارِيِّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى عَرْضَنَا لِلْآيَةِ فِي نَطَاقِ جَوَاهِرِ الْقُرْآنِيِّ لِيَسْبِّيَنَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ بِوْضُوحٍ تَامٍ.

(١) أَلْأَغْرَافُ : ٥٤

الآية الثالثة :

وَقَعَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي عَرْضِ الْقُرْآنِ لِقِصَّةِ ثَمُودَ، وَبَغِيْهِمْ، وَكِفْرِهِمْ. فَبَعْدَ أَنْ يَبَيِّنَ اللَّهُ فِي الْآيَاتِ (٤٥ - ٤٩) إِنْشِقَاقَهُمُ الْقَبْلِيِّ، وَدُعْوَةَ النَّبِيِّ صَالِحٍ لَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ، وَزَدْهُمْ عَلَيْهِ، ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ الْقِوَى الْمُسَيْطِرَةَ فِي ذَلِكَ الْمُجَمَّعِ تَأْمَرَتْ عَلَى صَالِحٍ وَأَهْلِهِ :

«وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُضْلِلُونَ قَاتِلُوا تَقَاسِمُوا بِاللَّهِ لَنْبَيِّنَهُ، وَأَهْلَهُ، ثُمَّ لَنْقُولُنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكًا أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ»^(١).

هَذِهِ الْمُؤَامَرَةُ سَمَّاها اللَّهُ «مَكْرًا»، فَقَالَ : «وَمَكْرُوا مَكْرًا».

وَأَخْبَرَنَا اللَّهُ أَنَّهُ جَزَّاهُمْ عَلَى مَكْرِهِمْ بِالْمُؤْمِنِينَ بِالْعَذَابِ وَالْعُقُوبَةِ، وَسَمَّى هَذَا الْجَزَاءَ مَكْرًا لِلْمُجَانَسَةِ، وَالْمُشَاكِلَةِ فَقَالَ تَعَالَى :

«وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرُنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ»^(٢).

الآية الرابعة :

فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَخْبَرَنَا اللَّهُ تَعَالَى كَيْفَ أَنَّ مُشْرِكَيْ قُرْيَشٍ إِجْتَمَعُوا يَتَأْمِرُونَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَمَنْ قَاتَلَ أَقْتُلُوهُ، وَمَنْ قَاتَلَ أَسْجُنُوهُ، وَمَنْ قَاتَلَ أَنْفُوهُ عَنْ بِلَادِكُمْ»^(٣).

(١) النَّمْل : ٤٨ - ٤٩.

(٢) الْتَّحْلِيل : ٥٠ - ٥١.

(٣) تَفْسِيلُ الْمُؤَامَرَةِ، وَمَبِيتِ الْإِمَامِ عَلَيَّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَى فَرَاشِ النَّبِيِّ، وَهِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ مَذْكُورَ فِي

لَقَدْ سَمِّيَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْمُؤَامَرَةَ «مَكْرًا» : «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَيْتُبْشِّرُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ»^(١).

وَلَكِنَّ اللَّهَ خَلَصَهُ مِنْ كَيْدِهِمْ وَمَكْرِهِمْ، وَمَكَنَهُ مِنْ الْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ دُونَ أَنْ يَسْكُنُوا مِنْ قَتْلِهِ، وَقَدْ عَبَرَ اللَّهُ عَنْ هَذَا التَّدْبِيرِ، وَهَذَا الصَّنْبَعُ الْجَمِيلُ بـ«مَكْرًا» أَيْضًاً، وَذَلِكَ لِلْمُشَاكِلَةِ، وَالْمُجَانَسَةِ كَمَا قُلْنَا، فَقَالَ : «وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ»^(٢).

الآية الخامسة :

«وَإِذَا أَذْقَنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءٍ مَسْتَهْمِمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ»^(٣).

يَبَيِّنُ فِيمَا سَبَقُ طَبِيعَةَ الْجَوَالِيِّ وَرَدَتْ فِيهِ الآيةُ.

إِنَّ الْمُرَادُ بِالنَّاسِ فِي هَذِهِ الآيَةِ غَيْرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ. وَتُبَيِّنُ الآيَةُ ظَاهِرَةً سُلُوكَيَّةَ لَدِيِّ هَؤُلَاءِ النَّاسِ : فَحِينَ تَسْبِّلُ حَالَهُمْ بَعْدَ الْعُسْرِ يُسْرًا، وَبَعْدَ الضَّيقِ سِعَةً وَبِحُبُوحَةِ «يَمْكُرُونَ» فِي آيَاتِ اللَّهِ، وَيَحْتَالُونَ عَلَى تَزْوِيدِهَا، وَيُخَادِعُونَ فِيهَا، بَدَلَ أَنْ يُقَابِلُوهَا بِالشُّكْرِ، إِذَا هَذَا الْمَوْقِفُ مِنْ هَؤُلَاءِ النَّاسِ يَقُولُ اللَّهُ :

«قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا» يَعْنِي أَسْرَعُ جَزَاءَ عَلَى الْمَكْرِ، فَالْمَكْرُ الْمَنْسُوبُ إِلَى اللَّهِ

⇨ كُتب التأريخ من ذلك: سيرة ابن هشام بتحقيق السقا، والأبياري، وشلبي. الطبعة الثانية (١٣٦٥هـ - ١٩٥٥م) : ٤٨٠/١، وما بعدها. (منه). .

(١) لأنفال: ٣٠.

(٢) لأنفال: ٣٠.

(٣) يوئس: ٢١.

هُنَا - كَمَا فِي مَوَاضِعٍ أُخْرَ - هُوَ الْجَزَاءُ عَلَى الْمَكْرِ. فَهُمْ بَدَلُوا أَنْ يُقَابِلُوا النَّعْمَةَ بِالشُّكْرِ قَابِلُوهَا بِالْمَكْرِ، وَجَزَاؤُهُمْ عَلَى مَكْرِهِمْ مَرْصُودٌ لَهُمْ «إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكِرُونَ». وَسَرِيعُ الْحُلُولِ بِهِمْ «قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا».

وَأَسْتَعْمَالُ الْمَكْرِ هُنَا مَنْسُوبًا إِلَى اللَّهِ إِنَّمَا هُوَ لِلْمُشَاكِلَةِ وَالْمُجَانَسَةِ الْلُّفْظِيَّةِ كَمَا مَثَلَنَا فِي مَوَاضِعٍ أُخْرَ.

الآية السادسة :

«وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَلَهُ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقِبَى الدَّارِ»^(١).

بَيَّنَتَا فِيمَا سَبَقَ الْجَوَاعَمَ لِلآيَةِ :

فِي هَذِهِ الآيَةِ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَ هُؤُلَاءِ الْكُفَّارِ مِنَ الْعَرَبِ قَدْ مَكَرُوا بِالْمُؤْمِنِينَ، وَأَحْتَالُوا عَلَى خَنْقِ الرِّسَالَةِ الْإِلَهِيَّةِ بِقَتْلِ أَتَبَاعُهَا الْمُؤْمِنِينَ وَتَعْذِيْبِهِمْ وَتَشْرِيدِهِمْ. فَبَيْنَ «فَلَلَهُ الْمَكْرُ جَمِيعًا» أَيْ أَنَّ بِيَدِهِ الْجَزَاءُ وَالْعُقُوبَةُ عَلَى هَذَا الْمَكْرِ الَّذِي يَمْكِرُهُ الْكَافِرُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : «يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقِبَى الدَّارِ». بَيَانُ لَطْبَيْعَةِ الْمُرَادِ مِنَ الْمَكْرِ الْمَنْسُوبِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَأَنَّهُ الْجَزَاءُ عَلَى أَضْطَهَادِ الْكَافِرِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ.

وَقَدْ عَبَرَ عَنِ الْجَزَاءِ بِالْمَكْرِ لِلْمُجَانَسَةِ، وَالْمُشَاكِلَةِ كَمَا قُلْنَا.

* * *

وَيَبْدُوا أَنَّ الرَّاغِبَ الْإِضْفَهَانِيَّ^(١) قَدْ فَهَمَ مِنْ أَسْتَعْمَالِ «الْمَكْرُ» تَارَةً فِي الْحِيلَةِ وَالْخَدِيعَةِ لِلتَّوْصِلِ إِلَى مَقَاصِدِ شَرِيرَةِ، وَأُخْرَى فِي الْجَزَاءِ الْعَادِلِ عَلَى الشَّرِّ، أَوْ فِي الرَّدْعِ عَنْ فِعْلِ الشَّرِّ، وَكَشْفِ الْأَسَالِيبِ الشَّرِيرَةِ لِلْمُجْرِمِينَ - يَبْدُوا أَنَّ الرَّاغِبَ الْإِضْفَهَانِيَّ قَدْ فَهَمَ مِنْ تَنوُّعِ أَسْتَعْمَالِ الْمَكْرِ أَنَّ لِلْمَكْرِ مَعْنَيَيْنِ، فَقَدْ قَالَ فِي كِتَابِهِ «الْمُفْرَدَاتُ فِي غَرِيبِ الْقُرْآنِ»:

(الْمَكْرُ صَرْفُ الْغَيْرِ عَمَّا يَقْصِدُهُ بِحِيلَةِ) وَذَلِكَ ضَرَبَ مَحْمُودٌ، وَذَلِكَ أَنَّ يَتَحرِّي بِهِ فِعْلَ جَمِيلٍ، وَعَلَى ذَلِكَ قَالَ: «وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيْنَ» وَمَذْمُومٌ، وَهُوَ أَنَّ يَتَحرِّي بِهِ فِعْلَ قَبِيحٍ. قَالَ: «وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ»^(٢) «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا»^(٣) «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ»^(٤)، وَقَالَ فِي الْأَمْرَيْنِ: «وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا»^(٥).

وَمِمَّا يُعَزِّزُ فَهْمَ الرَّاغِبِ الْإِضْفَهَانِيِّ لِأَسْتَعْمَالِ «الْمَكْرُ» مَنْسُوبًا إِلَى الذَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ بِمَعْنَى يَخْتَلِفُ عَنْ أَسْتَعْمَالِهِ مَنْسُوبًا إِلَى الْكَافِرِيْنَ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالرَّسَالَاتِ أَنَّ مَكْرَ الْيَهُودَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدَ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} وَصِفَتِ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ بِأَنَّهُ مَكْرٌ سَيِّءٌ، قَالَ تَعَالَى:

«وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لِئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادُهُمْ إِلَّا نُفُورًا أَسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ

(١) الْحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ الْمُفْضَلَ (ت ٥٦٥ هـ). (مِنْهُ).

(٢) فَاطِرٌ: ٤٣.

(٣) آلَّا نَفَّالٌ: ٣٠.

(٤) آلَّالَّمٰلٰ: ٥١.

(٥) آلَّتَحْلٰ: ٥٠ - ٥١.

الْمَكْرُ الْسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهُلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنْتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنْتِ اللَّهِ تَبَدِيلًا
وَلَنْ تَجِدَ لِسُنْتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا»^(١).

من هذا البيان يتضح مدى خطأ المؤلف في فهم «المكر الإلهي» وأسباب هذا الخطأ. ويتبين أنَّ المؤلف فشل في إيجاد «تعليل ديني مقبول» لما فهمه -خطأً- من قصبة إيليس. لقد أخطأ في فهم أصل القصة، وأخطأ في فهم «المكر» المنسوب إلى الذات الإلهية في القرآن. وما توهّمه المؤلف أكتشافاً كثيراً تبيّن أنه لم يكن شيئاً على الإطلاق. لقد كان خطأ وحسب.

* * *

بقي علينا أن نصحح فهم المؤلف لبعض الآيات الأخرى التي ذكرها في معرض حديثه عن «المكر الإلهي» والتي رأى أنها تتفق في مدلولها مع الآيات التي نسب فيها المكر إلى الذات الإلهية. وسنرى أنه أخطأ في فهم هذه الآيات كما أخطأ في فهم آيات «المكر الإلهي» وسنرى أنه بتر بعض الآيات وعزّلها عن جوهرها العام ليتأتى له الاستعانة بها على إثبات دعواه.

قال المؤلف في الصفحة (١٢١) :

«نجد أيضاً بعض الآيات تتسبّب إلى الذات الإلهية صفة مشابهة هي صفة الإشتهاء (...). وأوردت بعض الآيات المعنى نفسه دون ذكر المكر الإلهي وتخصيصه ...».

وقد ذكر المؤلف الآيات التي اعتبرها شواهد على دعوته عن المكر الإلهي،

وَسَنَذَكِرُ الْآيَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا، وَنَكْشِفُ عَنْ خَطَاةِ فِي فَهْمِهِ لَهَا.

الْآيَةُ الْأُولَى :

ذَكَرَهَا الْمُؤْلَفُ هَكَذَا: «اللَّهُ يَسْتَهِزُ بِهِمْ وَيَمْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ»^(١). وَهَذِهِ الْآيَةُ مِنْ جُمْلَةِ مَقْطُوعٍ وَرَدَ فِي بَيَانِ حَالِ الْمُنَافِقِينَ وَمَلَأَهُمْ، وَمَوَاقِفِهِمُ الْمُخَادِعَةُ، وَالْمُرْوَأَوْغَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَسُخْرِيَّتِهِمْ مِنْهُمْ. أَوَّلُ الْمَقْطُوعِ الْمَذْكُورِ: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ إِيمَانًا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ»^(٢). ثُمَّ يُبَيَّنُ اللَّهُ خَدَاعُهُمُ، وَفَسَادُ نَوَايَاهُمُ، وَإِفْسَادُهُمُ فِي الْأَرْضِ، وَأَسْتَكْبَارُهُمُ عَنِ الْإِيمَانِ الْحَقِيقِيِّ، وَتَسْمِيَّتِهِمُ لِلْمُؤْمِنِينَ سُفَهَاءً، ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى:

«وَإِذَا الْقَوَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا إِنَّا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعْكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهِزُ بِهِمْ وَيَمْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ أَشْتَرَوُ الْأَضَلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبَحُتْ تَجَرَّتْهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ»^(٣).

هَذَا هُوَ الْجَوَالُعَامُ لِلْآيَةِ، وَهَذِهِ هِيَ عِلَاقَاتُهَا الدَّاخِلِيَّةُ.

وَقَدْ سَمِّيَ اللَّهُ جَزَاءَهُمُ عَلَى نَفَاقِهِمُ، وَمَوَاقِفِهِمُ الْمُلْتَوِيَّةُ مِنَ الْعَقِيْدَةِ وَأَتِبَاعِهَا، وَأَسْتَهْزَاءُهُمُ بِالْمُؤْمِنِينَ - سَمِّيَ اللَّهُ ذَلِكَ الْجَزَاءُ أَسْتَهْزَاءُ مُرَاعَاةٍ لِلْمُشَائِكَةِ وَالْمُجَانِسَةِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي كَلَامِنَا عَنِ الْمَكْرِ الْإِلَهِيِّ، وَقَدْمَنَا الشَّوَاهِدُ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالشِّعْرِ الْجَاهِلِيِّ.

(١) الْبَقَرَةُ: ١٥.

(٢) الْبَقَرَةُ: ٨.

(٣) الْبَقَرَةُ: ١٤ - ١٦.

الآية الثانية :

«وَلَا يَحْسِنُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَا نَفْسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ»^(١).

هذه الآية وَرَدَتْ فِي شَأنِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَغْرِكَةِ أَحَدٍ، وَغَزْوَةِ حَمْرَاءِ الْأَسَدِ. وَهِيَ جُزءٌ مِنْ مَقْطُعٍ يُعَالِجُ هَذَا الْمَوْقِفِ مِنْ مَوَاقِفِ النَّبِيِّ وَالْمُسْلِمِينَ مُقَابِلَ الْمُشْرِكِينَ.

فَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ سَبَبَ لِلنَّكْبَةِ فِي أَحَدٍ، وَمَوْقِفِ الْمُنَافِقِينَ حِينَذَاكَ، (الآيات: ١٦٥ - ١٦٨) ثُمَّ بَيَّنَ اللَّهُ مَنْزَلَةَ الشُّهَدَاءِ الْعَظِيمَةِ، وَمَدْحُ الَّذِينَ أَسْتَجَابُوا لِدَعْوَةِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى غَزْوَةِ حَمْرَاءِ الْأَسَدِ عَلَى مَا بِهِمْ مِنْ جُرْاحٍ وَتَعْبٍ (الآيات: ١٦٩ - ١٧٤). ثُمَّ بَيَّنَ حَالَ الْمُنَافِقِينَ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ فَقَالَ تَعَالَى مُخَاطِبًا النَّبِيِّ مُحَمَّدًا ﷺ .

«وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا أَللَّهُ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ أَشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا أَللَّهُ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَا يَحْسِنُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ

(١) آل عمران: ١٧٨. لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ غَصَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا، وَيُعَاجِلُهُمْ بِالنَّقْمةِ، وَالْعَقُوبَةِ عَلَى مَا أَفْسَدُوا، وَأَثَارُوا مِنَ الْفِتْنَ، لِتَكُونَ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ أَقْوَى وَأَبْلَغُ حَيْثُ يَتَمَادُونَ فِي الْفَيْ وَيُبَدِّلُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا. أَوْ شَكَ أَنْ يَسْتَهِي أَمْدَ الْإِنْهَى، وَالْإِمْلَاءُ (وَأَشْتَرَاهُ قَوْمٌ إِلَى الْفِتْنَ). تَمَادِي فِي الْفَسَادِ، وَسَكَتَ عَنْهُمْ قَوْمٌ آخَرُونَ دُونَ أَنْ يُحرِكُوا سَاكِنَةً (وَأَشَالُوا عَنْ لَقَاحِ حَزِيرَهُمْ) أَيْ أَنَّ هُوَ لَآءُ الْقَوْمِ هَادِنُوا أُولَئِكَ الْمُفْسِدِينَ الَّذِينَ طَالَ بِهِمُ الْأَمْدُ، وَلَمْ يَشْنُوا الْحَرْبَ عَلَيْهِمْ حُبَّاً بِالدُّعَةِ، وَالسَّلَامَةِ، وَتَهَاوَنَا بِوَاجِبِ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ. أَنْظُرْ، فِي ظَلَالِ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ شَرْحَ الْعَلَامَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ جَوَادِ مُغَنِيَةِ الْخُطْبَةِ: (١٥٠)، ٢٥٦/٣، بِتَحْقِيقِنَا، «بِتَصْرَفِ».

لَا نَفْسٍ هُمْ إِنَّمَا نُنْهِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيْبِ^(١).
هَذَا هُوَ الْجَوَاعَمُ لِلْآيَةِ.

وَمِنْهُ يَتَضَعُّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُرِيدُ أَنْ يُمْلِي (يُمْهَل) لِغَايَةِ أَنْ يَزْدَادَ الْكَافِرُونَ إِثْمًا بِحَيْثُ يَكُونُ الْغَرَضُ وَالْعِلْمُ فِي إِمْهَاهِمْ هُوَ أَنْ يَزْدَادُوا إِثْمًا، وَإِنَّمَا يُمْلِي (يُمْهَل) اللَّهُ الْإِنْسَانَ لِيُتَسِّعَ لَهُ الْفُرْصَةُ التَّاسِمَةُ لِشُقُّ الْهُدَىَيَةِ وَالْإِقْرَارِ بِالْحَقِّ، وَيُعَرِّضُهُ لِأَنْوَاعِ التَّجَارِبِ لِيُعْطِيهِ الْقُدْرَةَ عَلَى الْإِخْتِيَارِ، وَالْحُرْيَةِ. وَجِينَيْذِ فَإِذَا أَخْتَارَ طَرِيقَ عَاقِبَةِ أَمْهَالَهُ وَبِالْأَعْلَى عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَنَعَّمْ مِنَ الْفُرْصَةِ الَّتِي أُتِيحَتْ لَهُ، كَمَا تَكُونُ عَاقِبَةُ أَمْهَالَهُ الْمُؤْمِنُونَ خَيْرًا وَبَرَكَةً عَلَيْهِ لِأَنَّهُ أَنْتَفَعَ مِنَ الْفُرْصَةِ الَّتِي أُتِيحَتْ لَهُ.

فَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : «فَالْتَّقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا أَخْطَئِينَ»^(٢).

فَإِنَّ إِلْتِقَاطَ آلِ فِرْعَوْنِ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَجْعَلُوا مِنْ مُوسَى عَدُوًّا لَهُمْ، وَلَكِنْ عَاقِبَةُ إِلْتِقَاطِهِمْ لَهُ هِيَ أَنَّهُ كَانَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا. وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُ أَحَدِ الشُّعُرَاءِ الْجَاهِلِيِّينَ :

وَأُمُّ سَمَّاكَ فَلَا تَجْزَعِي
فَلِلْمَوْتِ مَا تَلِدُ الْوَالِدَة^(٣)

(١) آل عِمْرَانَ : ١٧٦ - ١٧٩.

(٢) الْقَصَصُ : ٨.

(٣) أَنْظُرْ، التَّبَيَانُ لِلشِّيْخِ الطُّوْسِيِّ : ٦٠/٢ وَ ١٤٦/٤ وَ ٢٦١، تَقْسِيرُ مَجْمَعِ الْبَيَانِ : ٤٥٥/٢ وَ ٤٥٣/٤.
↔

فَلَيْسَ مُرَادَهُ أَنَّ الْغَرَضَ وَالْعِلْمَ مِنَ الولادةِ هِيَ الْمَوْتُ، وَإِنَّمَا مُرَادَهُ أَنَّ عَاقِبَةَ كُلِّ مَوْلُودٍ هِيَ الْمَوْتُ.

وَهَكَذَا الْحَالُ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ.

الْآيَةُ التَّالِثَةُ :

«وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمْرَنَا مُتَرَفِّهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقٌّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا»^(١).

إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَا تَدْلِي مِنْ قَرِيبٍ وَلَا مِنْ بَعِيدٍ عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ وَهُمُ الْمُؤْلَفُونَ. وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ جُمْلَةِ الشَّوَاهِدِ عَلَى الْمَبْدَأِ الْقُرْآنِيِّ : «مَبْدَأً أَثْرَ التَّغْيِيرِ الدَّاخِلِيِّ فِي حَرَكَةِ التَّارِيخِ». وَقَدْ شَرَحَتْهُ فِي كِتَابِ لِي بِعُثُوانَ «مُقَدَّمةً لِدِرْسَةِ تَارِيخِ الشَّوَّارِاتِ فِي الْإِسْلَامِ» آمَلَ أَنْ أَنْجِزَهُ قَرِيبًا، وَأَذْكَرَ هُنَّا مَا تَسْمَحُ بِهِ هَذِهِ الْعُجَالَةِ.

أَنَّ الْآيَةَ السَّابِقَةَ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ هِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى :

«مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنِ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضْلِلُ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُّ وَازِرَةٌ وِزْرًا أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا»^(٢).

↑ كنز الفوائد : ٤٨ ، سبط الآلي : ٩٢ ، أحكام القرآن للجصاص : ٤٧/٣ ، شرح نهج البلاغة لإبن أبي الحديده : ٣٢٨/١٨ . وقد نسب هذا المثل إلى شتيم بن خويلد الفرزاري ، وقيل لسمّاك بن عمرو الباهلي .

وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : «وَلَقَدْ ذَرَنَا بِالْجَهَنَّمِ» الأغراض : ١٧٩؛ لَيْسَ أَنَّهُ ذَرَ أَهْمَمَ لِيَعْذِيزُهُمْ فِي جَهَنَّمَ ، بَلْ ذَرَ أَهْمَمَ وَكَانَ عَاقِبَةُ ذَرِّهِمْ أَنْ صَارُوا فِيهَا ، وَبِهَذَا الْحَرْفِ يَحْصُلُ الْجَوَابُ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ الْمُتَشَابِهَةِ الَّتِي تَعْلَقُ بِهَا الْمُجْبَرَةِ .

(١) الأسراء : ١٦ .

(٢) الأسراء : ١٥ .

فَهَذِهِ الْآيَةُ تُقرَّرُ مَبْدأً الْحُرْيَةِ الدَّاخِلِيَّةِ: حُرْيَةُ الْإِرَادَةِ وَالْإِخْتِيَارِ، وَمِنْ ثُمَّ تُقرَّرُ مَبْدأً التَّبَعَةِ الْفَرْدِيَّةِ وَالْمَسْؤُلَيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ. وَدَوْرُ الرَّسُولِ هُوَ دَوْرُ الْهَادِي وَالْمُرْشِدِ لَا غَيْرَ، وَاللَّهُ لَا يُرْغِمُ الْعَبْدَ عَلَى فِعْلِ شَيْءٍ أَوْ تَرْكِهِ.

عَلَى ضَوْءِ هَذِهِ الْآيَةِ يَجُبُ أَنْ تُفَهَّمَ الْآيَةُ التَّالِيَةُ لَهَا، وَهِيَ مَوْضُوعُ الْبَحْثِ، وَذَلِكَ وَفَقَاءً لِلمَبْدأِ الْقُرْآنِيِّ: «مَبْدأً أَثْرَ التَّغْيِيرِ الدَّاخِلِيِّ فِي حَرْكَةِ التَّارِيخِ»: يُعْطِي اللَّهُ الْفُرْصَةَ وَيُهِيِّئُ الظُّرُوفَ الْمُنَاسِبَةَ لِلْمُجَمَّعِ، لِيُحَرِّزَ الْمُجَمَّعَ التَّقْدِيمَ الْمَادِيَّ وَالْمَعْنَوِيَّ، وَلِيُحَافِظَ عَلَى مُسْتَوْىِ هَذَا التَّقْدِيمِ: «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا» هَذَا الرَّسُولُ يَأْمُرُ بِالْإِصْلَاحِ، وَيَأْمُرُ بِالنَّظَامِ الْعَادِلِ، وَيُخَطِّطُ الشَّكْلَ الَّذِي يَضْمَنُ لِلْمُجَمَّعِ بَقَاءَهُ وَتَقْدِيمَهُ.

وَهَذَا الرَّسُولُ يَتَوَجَّهُ بِتَعَالِيهِ إِلَى الْمُجَمَّعِ كُلِّهِ، إِلَّا أَنَّهُ يَتَوَجَّهُ بِصُورَةِ خَاصَّةٍ إِلَى الطَّبَقَةِ الْمُسَيْطَرَةِ فِي الْمُجَمَّعِ «الْمُتَرَفِّينَ».

وَحِينَ لَا يُطِيعُهُؤُلَاءِ، وَيَسْتَمِرُونَ مُغَرِّقِينَ فِي التَّرَفِ الَّذِي يَقُودُهُمْ إِلَى الْإِنْحِلَالِ، وَيَسْتَمِرُونَ مُغَرِّقِينَ فِي الطُّغْيَانِ الَّذِي يَقُودُهُمْ إِلَى إِذْلَالِ الْإِنْسَانِ، وَلَا يَتَحرِكُ الْمُجَمَّعُ وَلَا يُحَاوِلُ التَّغْيِيرَ بَلْ يَسْتَمِرُ فِي رُضُوخِهِ، وَفِي خَضُوعِهِ. حِينَئِذٍ.. حِينَئِذٍ تَتَوَفَّرُ الشُّرُوطُ الْمَوْضُوعِيَّةُ لِإِنْحِلَالِ الْمُجَمَّعِ: مِنْ شُيُوعِ التَّرَفِ، وَسِيَادَةِ الْمُتَرَفِّينَ الْمُطْلَقَةِ، وَالْإِنْقَسَامِ الْطَّبِيعِيِّ الْحَادِ، وَحِينَئِذٍ يَحْصُلُ إِنْحِلَالٌ وَالْإِنْهِيَارُ وَالْهَلَاكُ.

وَقَدْ وَرَدَ هَذَا الْقَانُونُ فِي الْقُرْآنِ مُطْبِقًا عَلَى حَالَاتٍ تَارِيْخِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ، مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى :

«أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعِادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلِقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ

وَثُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لِيَالْمِرْصَادِ^(١).

* * *

بقي علينا أن نحلل بعض النواحي التعبيرية في الآية موضوع البحث.
والذي يسترعي النظر من هذه الجهة أمران.
الأمر الأول: قوله تعالى: «وإذا أردنا أن نهلك»^(٢).

فهم المؤلف من «أردنا» الإرادة الإلهية الفعلية للإهلاك، وهذا خطأ. الحقيقة هي أن أستعمال «أردنا» في الآية موضوع البحث من قبيل قولنا: «إذا أراد المريض أن يموت ظهرت عليه الأعراض الفلانية» و«إذا أرادت السماء أن تمطر انتشرت فيها الغيوم» والمراد من الإرادة في هذين الموردين هو إجماع الشرط الموضوعية للموت والمطر. وقد ورد تفسير هذا التعبير في القرآن في قصة موسى وصاحبته: «فوجدا فيها جداراً يُريدُ أن ينقضَ فأقامَه»^(٣) ومن الواضح أنه لا معنى لnisبة الإرادة الفعلية إلى الجدار، وإنما المراد أن الشروط الموضوعية لإنقاض الجدار قد توقفت.

والتعبير بـ«أردنا» في الآية موضوع البحث من هذا القبيل، فإن المراد أن الشروط الموضوعية لهلاك القرية قد توقفت، بسبب العصيان والطغيان.
ونسبة الإرادة هنا إلى الله «أردنا» وليس إلى القرية «أرادت» للإشارة إلى أن

(١) الفجر: ٦ - ١٤.

(٢) الأسراء: ١٦.

(٣) الكهف: ٧٧.

هَذَا الْقَانُونُ كَوْنِي أَوْ جَدَهُ اللَّهُ تَعَالَى فَالنِّسْبَةُ إِلَى اللَّهِ مِنْ حَيْثُ أَنَّهُ أَوجَدَ النَّظَامَ الْكَوْنِي مِنْ جُمْلَةِ قَوَاعِدِ اِلْجَمْعَ اِلْأَنْسَانِي وَنُمُو اِلْمُجَمَّعَاتِ وَأَنْحَلَالَهَا .
الْأَمْرُ الثَّانِي : قَوْلُهُ تَعَالَى : «أَمْرَنَا مُتَرَفِّيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا» .

تَوْهِمُ الْمُؤَلَّفُ أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّ اللَّهَ أَمْرَهُمْ بِأَنْ يَفْسُقُوا . وَهَذَا خَطَا . الْحَقِيقَةُ إِنَّ هَذَا اِسْتَعْمَالَ مِنْ بَابِ «أَمْرَتَهُ فَعَصَانِي» أَيْ أَمْرَنَاهُمْ بِوَاسْطَةِ رُسُلِنَا بِالطَّاعَةِ وَالْإِسْتِقَامَةِ «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا» . وَلَكِنَّهُمْ عَصَوا، وَأَسْتَمْرُوا عَلَى غَيْرِهِمْ، فَتَمَتَ بِمَعْصِيَتِهِمِ الشُّرُوطُ الْمَوْضُوعَيَّةُ لِلْإِنْحَلَالِ وَالْدَّمَارِ .
وَإِلَّا فَكَيْفَ يُعْقَلُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَدْ أَمْرَهُمْ بِالْفِسْقِ، وَهُوَ الْقَائِلُ :
«قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ» ^(١) .

«قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيُّ الْفَوْجِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِيقَ» ^(٢) .

* * *

مِنْ هَذَا التَّحْلِيلِ يَبْدُو كَمْ كَانَ الْمُؤَلَّفُ سَاذِجًا وَسَطْحِيًّا حِينَ عَلَقَ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ فِي الصَّفَحةِ (١٢٢) بِقَوْلِهِ :

«كَانَ (اللَّهُ) قَدْ شَاءَ تَدْمِيرَ الْقَرِيَّةِ، وَلَكِنْ لَئَلَّا يَكُونُ لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حُجَّةٌ فِي مَا جَاءَ إِلَيَّ الْمَكْرُ، فَأَمْرَ مُتَرَفِّيهَا أَنْ يَفْسُقُوا حَتَّى يَبْدُو لِلْجَمِيعِ وَكَانَ الْقَرِيَّةَ أَسْتَحْقَتْ ذَلِكَ التَّدْمِيرِ . بَيْنَمَا الْحَقِيقَةُ غَيْرُ ذَلِكَ» .

الْآيَةُ الرَّابِعَةُ :

(١) الْأَغْرَافُ : ٢٨ .

(٢) الْأَغْرَافُ : ٣٣ .

«إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِّعُهُمْ»^(١).

إنَّ هَذِهِ الْآيَةُ جُزءٌ مِّنْ مَقْطُوعٍ مَوْضُوعِهِ الْمُنَافِقُونَ يَشْتَمِلُ عَلَى الْآيَاتِ (١٣٧) - (١٤٣) - آنَّ النَّسَاءَ) وَيَبْدأُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى :

«إِنَّ الَّذِينَ ءاْمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءاْمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ اَزْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيهِمْ سَبِيلًا» بَشِّرَ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكُفَّارِ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَثْغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا».

ثُمَّ يَنْهَا اللَّهُ فِي الْآيَةِ (١٤٠) الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مُجَالَسَةِ هُؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ فِي حَالَةِ مُعَيَّنةٍ :

«وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ يُكَفِّرُ بِهَا وَيُسْتَهْزِئُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَتَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكُفَّارِ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا»^(٢).

ثُمَّ بَيَّنَ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ مَظْهَرًا مِنْ مَظَاهِرِ نَفَاقِ هُؤُلَاءِ وَخَدَاعِهِمْ :

«الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِكُفَّارِنَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكُفَّارِنَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا»^(٣).

هَذَا الْمَوْقِفُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَأَمْثَالُهُ مِنْ مَوَاقِفِهِمْ سَمَّاهُ فِي الْآيَةِ مَوْضُوعَ الْبَحْثِ

(١) آنَّ النَّسَاءَ : ١٤٢.

(٢) آنَّ النَّسَاءَ : ١٤٠.

(٣) آنَّ النَّسَاءَ : ١٤١ - ١٤٠.

الله خُدَاعاً، وبَيْنَ أَنَّ خَدَاعَهُ، أَنَّ يَغْصِمُهُم مِنَ الْمُجَازَاةِ وَالْعُقُوبَةِ، وَسَمِنَ
الجَزَاءَ عَلَى الْخُدَاعِ خُدَاعاً أَيْضًا، وَذَلِكَ لِلْمُشَاكِلَةِ وَالْمُجَانَسَةِ، كَمَا تَقَدَّمَ نَظِيرَهِ
فِي تَحْلِيلِنَا لِلآيَاتِ السَّابِقَةِ.

**﴿إِنَّ الْمُنَفِّقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا
كُسَالَى يُرَأَءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾**^(١).

لَقَدْ تَبَيَّنَ لَنَا مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ الْأَرَاءَ الَّتِي تَوَصَّلَ إِلَيْهَا الْمُؤَلَّفُ عَنْ فِكْرَةِ
«الْمُكْرِرُ الْإِلَهِي» كَانَتْ خَطَاةً نَشَأَ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي قَدَّمَنَاها.
وَإِلَى الْلَّقَاءِ مَعَ الْمُؤَلَّفِ فِي الْحَدِيثِ عَنِ الْمَارِكَسِيَّةِ.

نظرة نقدية
إلى ركائز الماركسية

الرَّكَائزُ الْأَسَاسِيَّةُ لِلْفَلَسَفَةِ الْمَارْكُسِيَّةِ

إنَّ طَ المَارْكُسِيَّةَ عَاجِزَةَ عَنْ تَقْدِيمِ تَصَوُّرٍ لِلْكَوْنِ يُطْمَئِنُ إِلَيْهِ الْعَقْلُ . وَهِيَ تَلْجَأُ فِي هَذَا الْمَيْدَانِ - كَمَا بَيَّنَاهُ سَابِقًا - إِلَى الْغَيْبِ ، وَهُوَ مَا تَتَّهِمُ بِهِ الدِّينُ . وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْغَيْبِ الَّذِي تَلْجَأُ إِلَيْهِ الْمَارْكُسِيَّةُ وَالْغَيْبِ الدِّينِيِّ أَنَّ الْغَيْبَ الْمَارْكُسِيَّ أَعْتَرَافٌ بِالْجَهَالَةِ فِيمَا يَعُودُ إِلَى أَصْلِ الْكَوْنِ يَتَناقْضُ مَعَ الْمَوَاقِفِ الْفِكْرِيَّةِ الْجَازِمَةِ فِي الْقَضَائِيَّاتِ الْمُتَفَرِّعَةِ عَنِ الْمَسَأَلَةِ الْأَسَاسِيَّةِ ، وَأَمَّا الْغَيْبُ الدِّينِيُّ فَهُوَ أَمْرٌ تَقْضِيُّ بِهِ الْحُرْكَةُ الْعَقْلِيَّةُ وَهُوَ إِدْرَاكٌ وَاعٌ لِلْمَسَأَلَةِ الْأَسَاسِيَّةِ يَجْعَلُ النَّتَائِجَ مُنسَجِمَةً مَعَ مُقَدَّمَاتِهَا . وَقَدْ أَثْبَتَاهُ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ بِصُورَةٍ لَا تَدْعُ مَجَالًا لِلشُّكُوكِ فِيمَا سَبَقَ مِنْ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ .

وَالآنُ نُرِيدُ أَنْ نُنَاقِشَ رَكَائزَ الْمَارْكُسِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ لِنَكْتُشِفَ عَنْ أَنَّهَا بَعِيدَةٌ عَنِ الْعِلْمِ ، وَأَنَّهَا - عَلَى الصَّعِيدِ الْفَلَسَفِيِّ - حَافِلَةٌ بِالْأَخْطَاءِ .

تَحْدِيدُ الْمَفَاهِيم

ذهب المؤلف - كَغَيْرِهِ مِنَ الْمَارْكِسِيِّينَ - إِلَى أَنَّ ثَمَةَ مَفْهُومَيْنِ فَلْسَفِيَّيْنِ لِلْكَوْنِ هُمَا: الْمَفْهُومُ الْمِثَالِيُّ، وَالْمَفْهُومُ الْمَادِيُّ. وَأَنَّ مَا أَسْمَاهُ «الصُّورَةُ الْكَوْنِيَّةُ» وَهُوَ مُضطَلُّحٌ أَخْتَارَهُ لِلتَّعْبِيرِ عَنْ «مَجْمُوعِ النَّظَرِيَّاتِ الشَّامِلَةِ لِطَبَيْعَةِ الْكَوْنِ الَّتِي تَشُودُ فِي عَصْرِ مِنَ الْعُصُورِ»^(١). هَذِهِ الصُّورَةُ الْكَوْنِيَّةُ إِمَّا أَنْ تَكُونَ مِثَالِيَّةً أَوْ مَادِيَّةً، وَلَا شَيْءٌ أَخْرَى غَيْرِ هَذِينِ.

فَهُوَ يَتَحَدَّثُ فِي الْفَصْلِ الْأَخِيرِ مِنْ كِتَابِهِ (مَدْخَلٌ إِلَى التَّصُورِ الْعِلْمِيِّ - الْمَادِيِّ لِلْكَوْنِ وَتَطْوِرِهِ) عَنِ الْمَادِيَّةِ الْمِيكَانِيَّيَّةِ. وَنَجَاحُهَا العَظِيمُ فِي تَفْسِيرِ الظَّوَاهِرِ الْكَوْنِيَّةِ، وَأَنْتَشارُهَا الْكَبِيرُ فِي شَتَّى فَرُوعِ الْمَعْرِفَةِ الْبَشَرِيَّةِ ثُمَّ سُقُوطُهَا نَهَايَةً تَحْتَ ضَرَبَاتِ نَقْدِ الْفَلْسَفَةِ الْمَادِيَّةِ الْدِيَالِكْتِيَّيَّةِ - وَذَلِكَ فِي مَقَابِلِ الْفَلْسَفَةِ الْمِثَالِيَّةِ الَّتِي فَشَلَتْ فِي التَّأَثِيرِ عَلَى الْمَادِيَّةِ الْمِيكَانِيَّيَّةِ «وَجَاءَتْ أَوَّلُ مَوْجَةٍ مِنِ النَّقْدِ الْمُوجَّهِ لِلصُّورَةِ الْكَوْنِيَّةِ الْمِيكَانِيَّيَّةِ هَذِهِ مِنْ جِهَةِ الْيَمِينِ.. وَكَانَ أَهْمَمُ مُمَثَّلِ لِهَذِهِ النَّزَعَةِ الْيَمِينِيَّةِ فِي نَقْدِ الْمَادِيَّةِ وَرَفِضَهَا هُوَ الْفَιلُسُوفُ الْإِنْجِلِيزِيِّ (بَارِكِلِيُّ)

الَّذِي حَاوَلَ أَنْ يَحْلِّ مَحْلَهَا صُورَةً كَوْنِيَّةً مِثَالِيَّةً رُوْحِيَّةً تَعْتَبَرُ جَمِيعَ الْكَيْفِيَّاتِ

(١) أَنْظِرْ، الصَّفَحةُ: ٢٠٣.

المحسوسـة - في التحليل الآخر - أفكاراً في العقل الإلهي، وذلـك بالمعنى الحرفي للعبارة تقرـباً. وبهذا الصدد نذكر أيضاً أن الفيلسوف الألماني (أـيـنـتر) دخل في جـدل مشهور مع (نيـوـتن) وأتباعـه هـاجـمـ فيـه أسـسـ المـادـيـةـ السـاكـنـةـ من وجـهةـ نـظرـ مـثالـيـةـ رـوـحـيـةـ مـاحـضـةـ»^(١).

وبـعـدـ أنـ أـشـارـ إـلـىـ أنـ مـجـمـوعـةـ مـنـ الشـعـرـاءـ وـالـفـنـانـينـ الـإـنـجـليـزـ الـذـينـ يـنـتـمـونـ إـلـىـ الـمـدـرـسـةـ الرـوـمـانـسـيـةـ رـفـضـواـ الـمـادـيـةـ الـمـيكـانـيـكـيـةـ لـأـسـبـابـ غـيرـ فـلـسـفـيـةـ،ـ قـالـ:

«غـيرـ أنـ النـقـدـ الـيـمـينـيـ لـلـمـادـيـةـ الـمـيكـانـيـكـيـةـ لـمـ يـلـقـ

آـذـانـاـ صـاغـيـةـ خـارـجـ أـوـسـاطـ نـفـرـ مـنـ الـأـدـبـاءـ وـرـجـالـ

الـدـيـنـ وـبـعـضـ الـفـلـاسـفـةـ مـنـ أـصـحـابـ الـمـيـوـلـ الـمـثـالـيـةـ

الـوـاضـحةـ...ـ أـمـاـ النـقـدـ الـأـهـمـ الـذـيـ وـجـهـ إـلـىـ الـمـادـيـةـ

الـمـيكـانـيـكـيـةـ فـقـدـ جـاءـ مـنـ جـهـةـ الـيـسـارـ،ـ وـتـحـتـ أـسـمـ

الـمـادـيـةـ الـدـيـالـكـتـيـكـيـةـ...ـ»^(٢).

وـسـأـعـرضـ فـيـ نـهاـيـةـ هـذـاـ الفـصلـ إـلـىـ التـنـاقـصـاتـ الـفـكـرـيـةـ الـعـجـيـبـةـ الـتيـ وـقـعـ فـيـهاـ الـمـؤـلـفـ.ـ أـمـاـ هـنـاـ فـعـلـيـنـاـ تـصـحـيـحـ الـخـطـأـ الـذـيـ وـقـعـ فـرـيـهـ الـمـؤـلـفـ حـيـنـ ذـهـبـ إـلـىـ وـجـودـ مـفـهـومـيـنـ فـلـسـفـيـنـ لـلـكـوـنـ فـقـطـ هـمـاـ:ـ الـمـادـيـةـ (ـمـيكـانـيـكـيـةـ،ـ وـدـيـالـكـتـيـكـيـةـ)ـ وـالـمـثـالـيـةـ.ـ فـيـ حـيـنـ أـنـ الـحـقـيقـةـ هـيـ أـنـ ثـلـاثـةـ مـفـاهـيمـ فـلـسـفـيـةـ نـشـرـحـهـاـ فـيـماـ يـلـيـ.

(١) أـنـظـرـ،ـ الصـفـحةـ:ـ ٢١٦ـ.

(٢) أـنـظـرـ،ـ الصـفـحةـ:ـ ٢١٧ـ.

المفهوم المثالي :

المفهوم الفلسفى المثالي عن العالم يقضى بأنه لا يوجد خارج إدراكنا وتصوراتنا أي واقع موضوعي للأشياء، فكل الأشياء التي يتكون منها العالم ما هي إلا ألوان من تفكيرنا وتصوراتنا، وما لأندركه فهو غير موجود.

المفهوم الواقعي المادى :

المفهوم الفلسفى الواقعي المادى يقضى بأن العالم موجود خارج إدراكنا وتصوراتنا مستقل! إستقلالاً تاماً عن وعيانا لأنّه واقع موضوعي قائم بنفسه خارج ذاتنا. والحقيقة النهاية في الكون هي المادة التجريبية، وهي السبب الأعمق للظواهر الكونية، ولا يوجد وراءها شيء آخر يمكن اعتباره سبباً لوجود الكون وأستمراره.

المفهوم الواقعي الإلهي :

المفهوم الفلسفى الواقعي الإلهي يُفضى - كالمفهوم المادى - بأنّه يوجد واقع موضوعي للعالم خارج إدراكنا وتصورنا ومستقل عنهم، فهو قائم بنفسه خارج ذاتنا. ولكن هذا الواقع الموضوعي ليس ذاتي الوجود - على خلاف ما يذهب إليه المفهوم المادى - بل هو معلول الوجود لمبدأ غير مادى فوق الروح، وفوق الطبيعة معاً، وهو الله تعالى.

وإذن فالرأى الشائع تورط فيه المؤلف، وهو اعتبار أن ثمة مفهومين فقط على الصعيد الفلسفى أحدهما المفهوم المثالي، والآخر المفهوم الواقعي المادى،

وَأَنَّ رَفْضَ أَحَدِهِمَا يَعْنِي حَتَّمًا إِيمَانَ بِالآخِرِ - هَذَا الرَّأْيُ وَاضْχَاطُهُ، فَشَّمَّةً - كَمَا يَبَيِّنُ - مَفْهُومًا ثَالِثًا هُوَ الْمَفْهُومُ الْوَاقِعِيُّ الْإِلَهِيُّ . إِنَّ الْمَفْهُومَ الْمِثَالِيَّ مُقَابِلٌ لِلْمَفْهُومِ الْوَاقِعِيِّ الْإِلَهِيِّ كَمَا هُوَ مُقَابِلٌ لِلْمَفْهُومِ الْوَاقِعِيِّ الْمَادِيِّ . وَهَذَا الْمَفْهُومَانِ لِلْمِثَالِيَّةِ يَلْتَقِيَانِ فِي أَنَّهُمَا مَعًا وَاقِعَيَانِ يَلْتَزِمَانِ بِوْجُودٍ مَوْضُوعِيٍّ خَارِجِيٍّ لِلْكَوْنِ مُسْتَقْلٍ عَنِ إِدْرَاكِ الْإِنْسَانِ وَتَصْوِرَاتِهِ، وَيَخْتَلِفَانِ فِي السَّبْبِ الْأَعْمَقِ لِلتَّكُونِ، فَالْمَادِيَّةُ تَقْفِي عِنْدَ الْمَادَةِ وَلَا تَتَعَدَّاهَا جَازِمَةً بِأَنَّ الْمَادَةَ هِيَ أَصْلُ الْمَوْجُودَاتِ وَجَائِزَةً فِي هَذَا الْمَسْأَلَةِ تَارَةً أُخْرَى، وَالْإِلَهِيَّةُ تَتَجَاوزُ الْمَادَةَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ إِلَى اللَّهِ .

* * *

وَيَجُبُ أَنْ نُكَرِّرُ هُنَا مَا سَبَقَ وَبَيَّنَاهُ فِي هَذِهِ الْمَقَالَاتِ وَهُوَ أَنَّ إِيمَانَ بِاللهِ تَعَالَى سَبِيلًا لِوْجُودِ الْكَوْنِ وَاسْتِمرَارِهِ لَا يَعْنِي إِلغَاءِ نَظَامِ الْعِلْيَةِ وَالسَّبِيلَةِ مِنِ الْكَوْنِ كَمَا يَشَاءُ الْمَادِيُّونَ أَنْ يَتَصَوَّرُوا، فَإِنَّ الْإِلَهِيَّ لَا يَعْتَقِدُ بِأَنَّ يَدًا تَمَدَّدَ مِنِ الْمَجْهُولِ لِتَحْدُثَ ظَواهرَ الطِّبِيعَةِ وَتَغْيِيرَاتِهَا، وَإِنَّمَا يَعْتَقِدُ بِأَنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَبِيلًا عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَبْحَثَ عَنْهُ، وَأَنَّ جَمِيعَ الْأَسْبَابِ تَسْتَهِيَ فِي الْأَخْيَرِ إِلَى سَبَبِ أَعْلَى مِنْهَا جَمِيعًا هُوَ اللهُ تَعَالَى :

إِنَّ الْمَفْهُومَ الْوَاقِعِيِّ الْإِلَهِيُّ يَعْتَرِفُ بِنَظَامِ الْعِلْيَةِ فِي الْكَوْنِ، بَلْ يَنْبَشِقُ مِنْهُ، إِذَا أَنَّ مِنْ جُمْلَةِ أَدْلِتَهُ دَلِيلُ الْعِلْيَةِ، غَایَةُ مَا فِي الْأَمْرِ أَنَّهُ لَا يَقْفِي عِنْدَ حَدِّ الْمَادَةِ الَّتِي ثَبَتَ عَجْزُهَا عَنِ التَّفْسِيرِ وَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُ لِلضَّرُورَةِ الْعَقْلَيَّةِ فَيَقُولُ بِوْجُودِ عَلَيَّةِ أَسَاسِيَّةٍ عَظِيمَى تَنْتَهِي إِلَيْهَا جَمِيعُ الْعِلْلَ وَالْأَسْبَابِ، وَهِيَ اللهُ تَعَالَى :

وَإِذَا فَهَذَا الْمَفْهُومُ الْوَاقِعِيُّ الْإِلَهِيُّ لَا يَضُعُ نَفْسَهُ فِي مُعَارِضَةِ مَعَ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ فِي الطِّبِيعَةِ وَأَكْتِشافِ الْأَسْبَابِ الْكَامِنَةِ وَرَاءِ حَوَادِثَهَا وَظَواهِرِهَا، بَلْ يَفْتَحُ جَمِيعَ

الأبواب أمام البحث العلمي في جميع المجهولات.

* * *

ويترتب على هذا أمر آخر، وهو أنه لا فرق بين الإلهي والمادي فيما يتعلق بالعلم وأكتشافاته: فكلاهما يعتبر الطبيعة والإنسان موضوعاً لبحثه العلمي، وكلاهما يؤمن بنتائج البحث العلمي في مجال التجربة في الطبيعة والإنسان، وليس في حقائق العلم شيء يمكن أن يسمى مادياً أو إلهياً. الفرق الأساسي بينهما هو أن الإلهي يرد الكون إلى سبب أعمق هو الله تعالى ومن ثم فإنه يؤمن بنوع من الوجود المجرد، خارج المجال التجريبي، ويترتب على هذا الموقف نتائجه في الإنسان والحياة والمجتمع، أما المادي فيقف عند المادة لا يتعداها، ولا يؤمن بما وراء التجربة الحسية.

ويتضح لنا مما سبق أن الكيان الفلسفى للمادى لا يرتكز - عند التحليل - على حقائق إيجابية في مقابل الإلهي، وإنما يرتكز على النفي والإنكار للحقيقة المجردة التي تعتبرها الإلهية سبباً نهائياً للوجود، ولما يترتب على هذه الحقيقة المجردة الأساسية من حقائق متفرعة عن الإيمان بها، ومستند لهذا الإنكار عند المادى هو عدم قيام التجربة الحسية على وجودها وليس قيام تجربة حسية على عدمها، فإن المادى تقول بالنسبة إلى هذه المسألة (لاأومن بالله لأنّه لا دليل حسي تجربى على وجوده) ولا تقول (لاأومن بالله لأنّ لدى دليلاً حسياً تجربياً على عدمه).

ولكن من الواضح إن هذا الأسلوب في مواجهة هذه المسألة غير علمي فإن موضوع البحث فيها حقيقة مجردة، وليس شيئاً مادياً.

وإذا كانت التجربة الحسية لا تقدم دليلاً على المفهوم الإلهي للعالم، أي لا تكشف في الظواهر المحسنة عن سبب مجرد، فهي كذلك لا تقدم دليلاً على النفي المطلق الذي تقوم عليه المادية، إذ أن من الواضح أن التجربة الحسية لا يمكن أن تعتبر برهاناً على نفي حقيقة خارج حدودها لما ذكرنا من أن موضوع البحث في المسألة حقيقة مجردة وليس شيئاً مادياً.

وعلى هذا فالقول بوجود (مادية علمية) أي تجريبية مجرد داعوى لأساس لها من الصحة، لأن المفهوم الفلسفى المادى للعالم - كالمفهوم الفلسفى الإلهى للعالم - شيء لا يمكن إثباته بالتجربة الحسية، لأن موضوع البحث غير تجريبى، إن المادية كالألهية اتجاه فلسفى في محاولة فهم العالم، والطريق إلى إثبات صوابية أحد المفهومين محصور في الفكر و المسلمين لا غير.

وقد أثبتنا في أبحاثنا السابقة عجز الماركسية عن تقديم تفسير معقول للكون، وأن المفهوم الصحيح فلسفياً هو المفهوم الواقعي الإلهي للكون.

وعلينا الآن أن نفي بما وعدنا به سابقاً من الكشف عن تهافت الماركسية وإفلاتها وعقمها كفلسفة ت يريد أن تقدم تفسيراً شاملأً للكون، والحياة، والإنسان. وذلك من خلال نظرية نقدية إلى الركائز الأربع الرئيسية في الماركسية وهي:

حركة التطور.

وتناقضات التطور.

وقفزات التطور.

والأرتباط العام.

حَرَكَةُ التَّطْوِيرِ

خِلَافًا لِمَا هُو شائع، لَيْسَ القَولُ بِأَنَّ الْكَوْنَ الْمَادِيَ فِي حَالَةِ حَرَكَةٍ مُشَتَّمَةٍ وَقَفَاً عَلَى التَّفْكِيرِ الْمَارْكُسِيِّ، فَالْوَاقِعِيَّةُ الْإِلَهِيَّةُ تُؤْمِنُ بِهَذَا أَيْضًا قَبْلَ (هِيَغَلْ وَمَازِكُس)، وَقَبْلَ أَنْ يَكُونَ ثَمَةٌ فِي تَارِيخِ الْفَلْسَفَةِ دِيَالِكْتِيكُ، وَلَا حَاجَةٌ بِالْإِنْسَانِ إِلَى أَنْ يَكُونَ مَارْكُسِيًّا لِيَكْتَشِفَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ الْبَسيِطَةَ الْبَدِيهِيَّةَ.

وَقَدْ بَلَغَ الْمَفْهُومُ الْفَلْسَفِيُّ الْمِيَاتِفِيزِيِّيُّ لِلْحَرَكَةِ ذُرْوَةَ كُمَالِهِ وَنُضُجَّهُ فِي الْفَلْسَفَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي أَعْمَالِ الْفَιلُسُوفِ الْإِسْلَامِيِّ الْعَظِيمِ صَدَرِ الدِّينِ الشِّيرَازِيِّ، مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمِ الْقَوَامِيِّ الشِّيرَازِيِّ (٩٧٩ - ١٠٥٠ هـ) فِي نَظَريَّتِهِ عَنِ الْحَرَكَةِ الْعَامَّةِ، وَالْحَرَكَةِ الْجَوَهِرِيَّةِ، وَقَدْ «بَرَهَنَ عَلَى أَنَّ الْحَرَكَةَ لَا تَمْسُظَّاً ظَواهِرَ الطَّبِيعَةِ وَسَطْحَهَا الْغَرْضِيِّ فَحَسِبَ، بَلِ الْحَرَكَةُ فِي تِلْكَ الظَّواهِرِ لَيْسَ إِلَّا جَانِبًاً مِنَ التَّطْوِيرِ يَكْشِفُ عَنْ جَانِبِ أَعْمَقِهِ، وَهُوَ التَّطْوِيرُ فِي صَمِيمِ الطَّبِيعَةِ وَحَرْكَتِهَا الْجَوَهِرِيَّةِ». ذَلِكَ أَنَّ الْحَرَكَةَ السَّطْحِيَّةَ فِي الظَّواهِرِ، لَمَّا كَانَ مَعْنَاهَا التَّجَدُّدُ وَالْإِنْقَضَاءُ فَيَجِبُ، لِهَذَا، أَنْ تَكُونَ عِلْمَهَا الْمُبَاشِرَةُ أَمْرًا مُتَجَدِّدًا غَيْرَ ثَابِتِ الذَّاتِ أَيْضًا؛ لِأَنَّ عِلْمَهَا ثَابِتَةُ ثَابَتَهُ، وَعِلْمَهَا الْمُتَغَيِّرِ الْمُتَجَدِّدِ مُتَغَيِّرَةُ مُتَجَدِّدةٍ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ السَّبِبُ الْمُبَاشِرُ لِلْحَرَكَةِ أَمْرًا ثَابَتَهُ، وَإِلَّا لِنَعْدَمَتِ الْحَرَكَةُ، وَأَصَبَّحَتْ قَرَارًا وَسُكُونًا».

الْجَدِيدُ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الْمَارْكُسِيَّةُ فِي حَرَكَةِ التَّطْوِيرِ هُوَ فِكْرَةُ التَّنَاقُضِ

الخيالية الباطلة، فقد اعتبرت الماركسية أن التناقض هو سبب الحركة في الطبيعة، وأن الحركة هي المظاهر الذي ينبع عن الصراع بين المتناقضات. والحق أن الماركسية بعملها هذا وقعت في خطأ فلسفى جسيم، ولا بد من تجريد مفهوم حركة التطور عن فكرة التناقض لتسجم الرؤية الفلسفية لحركة التطور مع الواقع الموضوعي لهذه الحركة في الطبيعة.

وإذن، فلا خلاف بين الإلهي والمادي في أصل مسألة الحركة في الطبيعة، وإنما الخلاف بينهما في نقطتين. الأولى طبيعة الحركة، والثانية مجال الحركة.

١- طبيعة الحركة :

يدخل مبدأ التناقض عنصراً أساساً في مفهوم الحركة عند الماركسية بينما يعتبر مبدأ عدم التناقض عنصراً أساساً في مفهوم الحركة عند الواقعية الإلهية. ولذا فلابد قبل نقد الماركسية في هذه المسألة من بيان مبدأ التناقض ليكون القاريء على بيته من مجال البحث.

١- التناقض :

التناقض اختلاف القضيتين بحيث يلزم، لذات الاختلاف، من صدق كل واحدة منها كذب الأخرى وبالعكس.

ويتحقق هذا بأن تكون القضية الواحدة في موضوعها ومحمولها، مع وحدة الزمان، والمكان، ووحدة الإضافة (النسبة) ووحدة الشرط، ووحدة في الجزء أو في الكل ووحدة في القوة (الإمكانية) أو في الفعلية. أن تكون القضية

الواحدة في جميع هذه الأمور، بوفة بالوجود والعدم معاً. مثلاً: هذه القطرة من الماء في هذا الأنبوب، بجميع أجزائها حارّة فعلاً بدرجة عشرة من الدقيقة الستين من الساعة الواحدة صباحاً. وهذه القطرة من الماء بجميع أجزائها في الأنبوب وفي نفس الزمان غير حارّة بالفعل بنسبة عشر درجات.

هاتان القضيةتان متناقضتان. والواقعية الإلهيّة تقول إنَّ صدقهما مستحيل وأنَّ كذب إحداهما ضروري. وتقول المازكسيّة إنَّ كذب إحداهما مستحيل وأنَّ صدقهما ضروري.

٢- الحركة في المازكسيّة:

قال إنجلز :

«إنَّ الوضع يختلف كُلَّ الاختلاف إذ ننظر إلى الكائنات وهي في حالة حركتها، في حالة تغيرها، في حالة تأثيراتها المتبادلة على بعضها البعض، حيث نجد أنفسنا بــ هذه النّظرة بأننا مغمورون في التناقضات، فالحركة نفسها هي تناقض، إنَّ أبسط تغير ميكانيكي في المكان لا يمكن أن يحدث إلا بواسطة كينونة جسم ما، في مكان ما، في لحظة ما، وفي نفس تلك اللحظة كذلك، وفي غير ذلك المكان، أي كيّنونته وعدمها معاً في مكان واحد، في نفس اللحظة الواحدة، فتتابع هذا التناقض تتابعاً مستمراً،

وَحَلَّ هَذَا التَّنَاقُضُ حَلًا مُتَوَافِقًا مَعَ هَذَا السَّابِعُ، هُوَ مَا يُسَمَّى بِالْحَرَكَةِ».

هَذَا النَّصُ الأَسَاسِيُّ يُصوِّرُ بوضُوح طبيعة الحركة في الفلسفة المازكسيَّة، أنَّها نتْيَاجَةِ الصراعِ والتَّدَافُعِ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ. فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا -بِحُكْمِ كُونِهِ نَقِيضاً- يَمْنَعُ الْآخَرَ مِنِ التَّحْقِيقِ الْمُسْتَمِرِ، وَهَذَا التَّمَانُعُ يَسْتَجِعُ الْحَرَكَةَ وَالتَّغْيِيرَ.

٣- الحركة في الواقعية الإلهيَّة:

تُتَطَلِّقُ الْوَاقِعِيَّةُ الْإِلَهِيَّةُ فِي فَهْمِهَا لِطَبِيعَةِ الْحَرَكَةِ حِقِيقَةً أَنَّ التَّنَاقُضَ مُسْتَحِيلٌ، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَجِعُ الْحَرَكَةَ بَلْ يَسْتَجِعُ السُّكُونُ وَالثَّباتُ كَمَا سَنَرَى.

إِنَّ الْحَرَكَةَ فِي الْوَاقِعِيَّةِ الْإِلَهِيَّةِ هِيَ تَعَانِقُ مُسْتَمِرَتَيْنِ بَيْنَ الْفِعْلَيَّةِ وَبَيْنَ الْقُوَّةِ (الْإِمْكَانِيَّةِ)، وَالْحَرَكَةَ تَسْتَجِعُ مِنْ تَحْوِلِ إِمْكَانِيَّةِ الشَّيْءِ إِلَى وجُودِ فِعْلِيٍّ، وَلَيَسْتَ صِرَاطاً بَيْنَ فِعْلَيْتَيْنِ مُتَنَاقِضَتَيْنِ كَمَا تَزُعمُ الْمَازِكْسِيَّةُ. فَكُلُّ شَيْءٍ مَوْجُودٌ يَمْتَلِكُ -إِلَى جَانِبِ مُسْتَوْى الْوِجُودِ الْمُعَيَّنِ الَّذِي يَمْتَلِكُهُ فِعْلًا- إِمْكَانِيَّاتَ للنَّمُوِّ وَالتَّقدِيمِ، أَوْ لِلتَّغْيِيرِ بِكَشْلٍ عَامٍ. إِذَا أَخْتَفَظَ هَذَا الشَّيْءُ بِفِعْلَيْتِهِ الْمُعَيَّنَةِ وَلَمْ يَكُنْ يَسْتَبِعْ فِعْلَيَّةً جَدِيدَةً أُخْرَى فَهُوَ سَاكِنٌ وَثَابِتٌ، أَمَّا حِينَ يَنْتَقِلُ مِنْ فِعْلَيْتِهِ الْمُقَائِمَةِ إِلَى فِعْلَيَّةٍ جَدِيدَةٍ غَيْرِ تِلْكَ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا فَهُوَ يَتَحرَّكُ وَيَكْسِبُ وجُودًا أَكْثَرَ قُوَّةً وَثَرَاءً. إِنَّ حَرَكَتَهُ هِيَ تَحْوِلُ إِمْكَانِيَّاتِهِ الْمُسْتَكَنَةِ فِيهِ إِلَى فِعْلَيَّاتٍ ظَاهِرَةٍ عَلَيْهِ، فَحَرَكَةُ الشَّيْءِ هِيَ آنْتَقَالٌ مُسْتَمِرٌ مُتَدَرِّجٌ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلَيَّةِ. مَثَلًاً بَذَرَةُ الْوَرَدِ هِيَ فِعْلًا بَذَرَةً جَافَّةً ذَاتَ حَجْمٍ، وَشَكْلٌ مُعَيَّنٌ وَلَكِنَّهَا تَمْلِكُ فِي الْوَقْتِ عَيْنَهُ إِمْكَانِيَّةً أَنْ تَتَحَوَّلَ عَبْرِ مَراحلٍ مِنِ النَّمُوِّ إِلَى شَجَرَةٍ وَرَدٍ زَاهِيَّةِ اللَّوْنِ عَابِقةً بِالْعَيْرِ. فَإِذَا

غَرَستْ وَتَهِيَّأَتْ لَهَا ظُرُوفُ الـ... أَوْتَتْ مِنْ كَوْنِهَا بِالْفِعْلِ بَذْرَةً جَافَّةً إِلَى مَرْحَلَةِ فِعْلَيَّةٍ جَدِيدَةٍ هِيَ آنْبَاثُهَا عَنْ (سَمْخٍ)^(١). لَقَدْ تَحَرَّكَتِ الْبَذْرَةُ إِلَى الْأَمَامِ بِإِكْتِسَابِهَا الْفِعْلَيَّةِ الْجَدِيدَةِ، وَهِيَ تَمْلِكُ إِمْكَانِيَّاتٍ أُخْرَى فَإِذَا تَحَوَّلَتْ إِلَى نَبْتَةٍ حَضَرَاءَ فَوْقَ الْتُّرْبَةِ تَكُونُ قَدْ تَحَرَّكَتْ أَيْضًا بِإِكْتِسَابِهَا فِعْلَيَّةً جَدِيدَةً، وَهَكَذَا تَسْتَمِرُ فِي الْحَرَكَةِ إِلَى أَنَّ تَصُلَ إِلَى غَايَتِهَا وَتَسْتَنْفَذْ جَمِيعُ إِمْكَانَاتِهَا، وَجِينَيْزٌ تَسْتَوْقَفُ عَنِ النَّمْوِ، لَا نَهُمْ مَا لَمْ يَعْدْ لَدَيْهَا مَا تُعْطِيهِ، لَمْ تَعْدْ قَادِرَةً عَلَى إِثْرَاءٍ وَجُودَهَا بِمُسْتَوَيَّاتِ جَدِيدَةٍ لَا نَعْلَمُ هَا حَقَّقَتْ جَمِيعُ إِمْكَانَاتِهَا.

وَمِثَالٌ آخَرُ، الْمَاءُ، إِنَّهُ يَكُونُ بَارِدًا تَمَامًاً فِي دَرْجَةِ الصَّفْرِ. فَهُوَ بَارِدٌ بِالْفِعْلِ وَفِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ يَمْلِكُ «إِمْكَانِيَّةً» الْحَرَارَةَ مِنْ أَبْسَطِ مُسْتَوَيَّاتِهَا إِلَى أَعْلَى مُسْتَوَيَّاتِهَا حَيْثُ يَتَحَوَّلُ الْمَاءُ إِلَى غَازٍ. فَإِذَا عَرَضْنَا الْمَاءَ لِلنَّارِ تَبَدَّأُ حَرَارَتُهُ، الَّتِي كَانَتْ قَوَّةً فَقَطْ، بِالْتَّحَوُّلِ وَالْحَرَكَةِ نَحْوَ الْفِعْلَيَّةِ، وَهَكَذَا تَكُونُ «إِمْكَانِيَّةً» الْحَرَارَةِ قَدْ تَحَوَّلَتْ إِلَى «فِعْلَيَّةً» الْحَرَارَةِ بِدَرْجَةٍ مُعَيْنَةٍ وَلَنَفْرَضْهَا (٥٠) دَرْجَةً مَثَلًاً، وَلَا تَزَالُ فِيهِ «إِمْكَانِيَّةً» أَنْ يَتَجَاوزَ هَذِهِ الدَّرْجَةَ إِلَى دَرْجَةٍ أَعْلَى مِنْهَا، فَإِذَا بَلَغَ دَرْجَةَ الْغَلَيَانِ تَكُونُ «إِمْكَانِيَّةً» الْغَلَيَانِ قَدْ تَحَوَّلَتْ إِلَى «فِعْلَيَّةً» الْغَلَيَانِ، وَلَا تَزَالُ مَعَ ذَلِكَ «إِمْكَانِيَّةً» أَنْ تَشْتَدَ حَرَارَتُهُ فَيَتَحَوَّلَ إِلَى غَازٍ....

وَإِذَنْ فَثْمَةُ حَرَارَةٍ وَاحِدَةٍ مُسْتَمِرَةٍ الْوِجُودُ «تَحَرُّكٌ» وَتَسْمُو بِإِسْتِمَارٍ وَذَلِكَ بِتَحَوْلَهَا مِنْ مَرْحَلَةِ الْقَوَّةِ وَالْإِمْكَانِ إِلَى الْفِعْلَيَّةِ وَالْإِنْجَازِ، وَكُلُّمَا تَحَقَّقَتْ بِالْفِعْلِ إِحدَى الْإِمْكَانِيَّاتِ أَفْسَحَتِ الْمَجَالَ لِتُتَحَقِّقِ إِمْكَانِيَّةً أُخْرَى أَعْلَى مِنْهَا.

(١) السُّمْخُ: الشُّقْبُ. أَنْظُرْ، النَّهَايَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ: ٣٩٨/٢.

هذا هو مفهوم الفلسفية للحركة لدى الواقعية الإلهية. فماذا لدى المازكسيّة؟ إنَّ الحركة في المفهوم الماركسي تُقوم - كما عرفت - على أساس الإيمان بمبدأ التناقض وجود التناقض بأجمعها بالفعل، ويتربَّ على ذلك صراع بينها بحُكم كونها مُتناقضات، ونتيجة الصراع هي الحركة، بخلاف مفهومنا الذي يرى في الحركة تعبيرًا عن سير الشيء من مرحلة الإمكان إلى مرحلة الفعلية.

لقد تورّط مازكس وأشياوه في خطأ جسيم نتيجة جهلهم بحقيقة التناقض فأعتبرُوا أنَّ وجود الفعلية والقوة في الشيء من باب إجتماع التقىضيين، وأنَّ تحول الشيء وتحركه من الإمكانية إلى الفعلية نتيجة الصراع بين هذين التقىضيين، (وقد عرفت إنَّ هذا ليس من التناقض في شيء) فإنَّ الماء ليس بارداً بدرجة الصفر بالفعل، وحاراً بالفعل (في اللحظة عينها) بدرجَة (٥٠) مثلاً، وإنما هو بارد بدرجَة الصفر بالفعل، وحار بدرجَة (٥٠) بالقوة، وهذه القوة تحول إلى الفعل ليس في اللحظة عينها وإنما في لحظة أخرى تحول فيها الإمكانية إلى فعلية جديدة تتجاوز الفعلية السابقة عليها إلى درجة أعلى من الوجود الحراري. وإنَّما فلو آمنا بمفهوم المازكسيّة عن الحركة وإنها صراع بين المُتناقضات الفعلية بأجمعها، لأدى بنا ذلك إلى نتيجة أخرى هي السكون والثبات المطلقيّن، وعدم الحركة. بيان ذلك:

أنه إذا وجدت درجتان من الحركة بالفعل في زمن واحد فهل يتغيّر الشيء أو لا يتغيّر؟! إنَّ أجابت المازكسيّة بأنه لا يتغيّر يلزم من ذلك الجمود والثبات، وهما ضدَّ الحركة. وإنَّ أجابت أنه يتغيّر فلنَّا أنْ نسأل: من أين جاء التغيير؟ وإلى أيّة حالة يحصل التغيير ما دامت جميع المُتناقضات موجودة بالفعل ولم يكن بينها

تمانع وتعارض؟ إن النتيجة هي الثبات لأنّه في هذا الفرض لا تُوجَد حالة مُنتظرة للشيء لأنّ جميع حالاته ناجزة وفعليّة الوجود وإن أجبت بالإعتراف بالتعارض بين المُتناقضات فلا بدّ من الإعتراف بأنّها لا يمكن إذن أن تكون بأجمعها موجودة بالفعل، ولا بدّ حينئذٍ من الرجوع إلى المفهوم الواقعي الإلهي عن الحركة وهو قائم على مبدأ عدم التناقض، وانتقال الشيء من القوّة إلى الفعلية. وهكذا يسقط مفهوم الماركسية عن طبيعة الحركة، وينكشف مدى خطأه

على هذا الضوء:

نُدرك أنّ الحركة بعد أن كانت خروجاً تدريجياً للشيء من القوّة «الإمكانية» إلى الفعلية، وليس صراغاً بين المُتناقضات المُحْوَدة كُلُّها بالفعل - كما تزعم الماركسية - فلابدّ لنا من الإذعان بأنّ الحركة لا تُوجَد بذاتها نتائجاً لعامل داخلي في الطبيعة، بل لا بدّ لها من محرك خارجي، لا بدّ من سبب خارج عن الشيء ينقله من مرحلة الإمكان إلى مرحلة الفعلية. ولا بدّ أن يكون هذا السبب الخارجي فوق الطبيعة، لأنّ كلّ ما هو من الطبيعة فهو متغير ومتحرك، ومن ثم فهو بحاجة إلى محرك، وهذا السبب الخارجي فوق الطبيعة هو الله تعالى.

بـ- مجال الحركة:

خلافاً للواقعية الإلهيّة، تعمّم الماركسية قانون التّطوير والحركة إلى عالم الأفكار ولا تقف بهذا القانون عند حدود الواقع الموضعي للطبيعة. فالتفكير - كالمادة - مجال لقوانين الحركة في الطبيعة.

وعلى خلاف ذلك موقف الواقعية الإلهيّة من هذه المسألة، فإنّ مجال قانون

الحرّكة فيها مقصور على المادة فقط ولا يتتجاوزها إلى الفكر البشري.

وهذا الموقف الماركسي بالنسبة إلى مجال الحرّكة يُلغى صفة الثبات عن أي شيء في عالم الطبيعة وعالم الفكر على السواء، وهو ما لا يمكن لأي عقل سليم التسلّيم به، فإننا إذا التزمنا بأنَّ التغيير والحرّكة سمة للفكر كما هو سمة للطبيعة لم يعد في مقدورنا الوثوق بأي نتيجة بل لا يعود ثمة علم لأنَّ التغيير يُلغى كلَّ الحقائق التي تكون قد توصلنا إليها. فلا بد من الالتزام بأنَّ ثمة في عالم الطبيعة وعالم الفكر حقائق ثابتة ينطلق منها الفكر نحو المجهول فيكتشفه ومن هذه الحقائق قانون الحرّكة فهو قانون ثابت. ويقضي علينا رأي الماركسية في مجال الحرّكة أن نقول إنه متغير، وإذا كان كذلك فشلة إذاً واقع موضوعي لا يسري عليه قانون الحرّكة والماركسية على الحالين لا بد لها من الالتزام بوجود حقائق ثابتة لا يجري عليها قانون الحرّكة.

وقد قامت الماركسية بمحاولات للبرهان، على مذهبها في هذه المسألة وسنرى أنها فشلت في تقديم برهان صحيح.

المحاولة الأولى:

أنَّ الفكر إنعكاس للواقع الموضوعي، ولذا فلابد أن يكون مطابقاً له وإلا لم يكن إنعكاساً له، وحيث أنَّ الحرّكة ظاهرة طبيعية في عالم الفكر.

ولكن هذا التصوير خاطيء، فإنَّ كون الفكر - الذي يجعل من الواقع موضوعي موضوعاً له - إنعكاساً لهذا الواقع لا يعني أنَّ الفكر يشتمل على جميع الخصائص الخارجية للواقع الموضوعي.

فَإِنَّ الْفِكْرَ يُدْرِكُ الْوَاقِعَ الْمَوْضُوعِيَّ الْمُتَحْرِكَ، مُجْرِدًا عَنْ خَصَائِصِهِ الْمَوْضُوعِيَّةِ فِي الْخَارِجِ إِذْ يَشْتَمِلُ إِنْتِقَالَهَا إِلَى دَاخِلِ الْفِكْرِ. أَنَّ الْفِكْرَ يُدْرِكُ الشَّيْءَ بِإِعْتِبَارِهِ مَفْهُومًا عَقْلِيًّا لَا بِإِعْتِبَارِهِ كُتْلَةٌ خَارِجِيَّةٌ، وَلَذَا فَإِنَّ الْفِكْرَ الْفِكْرَ لَا يَسْتَوِعُ بِفِي دَاخِلِهِ حَرْكَةٌ لِشَيْءٍ، إِلَّا إِنَّ هَذَا لَا يَعْنِي أَنَّهُ يُدْرِكُ الشَّيْءَ فِي حَالَةٍ مُعَيْنَةٍ ثُمَّ يَجْمَدُ عِنْدَهَا فَلَا يَتَعَدَّاهَا، بَلْ يُدْرِكُ إِنَّ هَذَا الْمَوْضُوعَ غَيْرَ ثَابِتٍ عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ بَلْ هُوَ مُتَغَيِّرٌ، وَيَتَابِعُ فِي تَغْيِيرِهِ فَيُكَوِّنُ عَنْ كُلِّ حَالَةٍ مِنْ حَالَاتِهِ مَفْهُومًا مُطَابِقًا لَهَا.

مَثَلًاً: مِيكَرُوبُ الْجُدُريِّ لِهِ خَصَائِصٌ مُعَيْنَةٌ فِي وَاقِعِهِ الْخَارِجِيِّ، فَهُوَ يَسْتَكُونُ بِطَرِيقَةٍ مُعَيْنَةٍ، وَيَشْتَمِلُ عَلَى أَجْزَاءٍ مُعَيْنَةٍ وَيُؤْدِي وَظِيفَتِهِ فِي نَسْرِ الْمَرْضِ بِطَرِيقَةٍ مُعَيْنَةٍ هَذَا فِي وَجُودِهِ الْخَارِجِيِّ: أَمَّا فِي وَجُودِهِ الْذَّهْنِيِّ فَالْأَمْرُ يَخْتَلِفُ عَنْ ذَلِكَ. إِنَّ الْعَالَمِ يُمْكِنُهُ أَنْ يُدْرِكَ جَمِيعَ هَذِهِ الْخَواصِ فِي الْمُخْتَبِرِ، وَلَكِنْ هَذِهِ الْخَواصُ لَا تَسْتَقِلُ إِلَى الْذَّهْنِ الْبَشَرِيِّ، وَ(فِكْرَة) الْمِيكَرُوبِ مَهْمَامًا كَانَتْ مُفْصَلَةً وَدَقِيقَةً، لَا يُمْكِنُ أَبْدًا أَنْ تَكُونَ مُشَتَّمَلَةً عَلَى خَصَائِصِ (وَاقِع) مِيكَرُوبِ فِي الْخَارِجِ.

فَالْمِيكَرُوبُ يَخْضُعُ لِقَانُونِ الْحَرْكَةِ فِي الْخَارِجِ: يَسْتَكُونُ، وَيَنْمُوُونَ، وَيَتَفَاعِلُونَ مَعَ جَسْمِ الْإِنْسَانِ، وَيُصِيبُهُ بِالْمَرْضِ... هَذِهِ الْخَصَائِصُ الْمَوْجُودَةُ فِي الْخَارِجِ أوَّلَى الَّتِي تَسْتَولِدُ عَنْ حَرْكَةِ الْمِيكَرُوبِ فِي سَبِيلِ النَّمُوِّ لَا تَتَعَكَّسُ فِي الْفِكْرِ.

نَحْنُ بِالْفِكْرِ نُتَابِعُ مَرَاحِلَ نُمُوِّ الْمِيكَرُوبِ. فَنَأْخُذُ فِكْرَةً عَنْ تَكْوينِهِ، وَفِكْرَةً عَنْ عَنَاصِرِهِ، وَفِكْرَةً عَنْ تَفَاعُلِهِ، وَفِكْرَةً عَنْ طَبِيعَةِ الْمَرْضِ الَّذِي يُسَبِّبُهُ، وَمِنْ مَجْمُوعِ هَذِهِ الْأَفْكَارِ نُكَوِّنُ «مَفْهُومَنَا» عَنِ الْمِيكَرُوبِ:

أَنَّ الْفِكْرَ يُسَجِّلُ مَرَاحِلَ حَرْكَةِ الْمَادَةِ فِي الطِّبِيعَةِ، وَلَا تَسْتَولِدُ هَذِهِ الْمَرَاحِلِ فِي

دَاخِلِهِ كَمَا تَسْتَوِلُدُ فِي الطَّبِيعَةِ. فَلَنْتَصُورْ إِنْسَانًا يَرْكَضُ وَإِنْ كَامِيرَا تَلْفِزِيُونِيَّةً تُسَجِّلُ حَرْكَتَهُ، أَنَّهَا تُسَجِّلُ حَرْكَتَهُ وَلَا تَتَحرَّكُ مَعَهُ، حِينَما يُعَرَّضُ عَلَيْنَا الشَّرِيطُ الْمُصَوَّرُ نَدِكُ أَنَّ الشَّرِيطَ يُسَجِّلُ حَرْكَةَ الرَّكْضِ فِي مَرَاحِلِهَا وَلَا يَرْكَضُ مَعَ الرَّاكِضِ فِي الشَّرِيطِ. كَذَلِكَ الْفِكْرُ يُسَجِّلُ حَرْكَةَ الْمَادَةِ فِي الطَّبِيعَةِ، وَلَا تَجْرِي حَرْكَةُ الْمَادَةِ فِي الْفِكْرِ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّ الحَرْكَةَ تَسْتَوِلُدُ عَلَى وجُودِ خَصَائِصٍ مَوْضُوعِيَّةٍ لِلْمَادَةِ لَا تَسْتَوِلُدُ إِلَّا فِي الْخَارِجِ، وَهَذِهِ الْخَصَائِصُ لَا تُوجَدُ فِي دَاخِلِ الْفِكْرِ لَشَّمَ الْحَرْكَةَ فِي دَاخِلِ الْفِكْرِ.

الخلاصة: الْفِكْرُ يُتَابِعُ الطَّبِيعَةِ فِي حَرْكَتَهَا وَلَا تَتَحرَّكُ الطَّبِيعَةِ فِي دَاخِلِهِ، وَمَعْنَى أَنَّ الْفِكْرُ يُتَابِعُ الطَّبِيعَةِ فِي حَرْكَتَهَا هُوَ أَنَّ الْفِكْرُ عِنْدَ الْإِلَهِيِّ - لَا يَتَوَقَّفُ عِنْدَ مَرْحَلَةِ مِنْ مَرَاحِلِ الْمَوْجُودِ الْخَارِجِيِّ لَا يَتَعَدَّاهَا، بَلْ يُتَابِعُ نُمُوْ هَذَا الْمَوْجُودِ الْخَارِجِيِّ، وَحَرْكَتَهُ، وَتَطْوِرَهُ، وَالتَّغْيِيرَاتُ الَّتِي تَطْرَأُ عَلَيْهِ. وَالْمَسَأَةُ مِنَ الوضُوحِ وَالْبَدَاهَةِ بِحِيثُ لَا تَحْتَاجُ إِلَى مَزِيدٍ مِنَ الْبَيَانِ.

المحاولة الثانية:

أَنَّ الْفِكْرُ جُزْءٌ مِنَ الطَّبِيعَةِ وَالْوَاقِعِ الْمَادِيِّ الْمَوْضُوعِيِّ فَهُوَ كَمَا يَقُولُونَ إِنْسَاجٌ عَالٌ لِلْمَادَةِ، وَإِذَا كَانَ جُزْءٌ مِنَ الطَّبِيعَةِ فَلَا كَبَدَ أَنْ تَجْرِي عَلَيْهِ قَوَاعِينَهَا وَمِنْهَا قَانُونَ الْحَرْكَةِ.

وَنُجِيبُ أَوَّلًا: أَنَّ الْفِكْرُ لَيْسَ مَادِيًّا، وَإِنَّمَا هُوَ نَشَاطٌ لِلْجَانِبِ الرُّوْحِيِّ مِنَ الْإِنْسَانِ. وَذَلِكَ لِأَنَّ كَوْنَ الشَّيْءِ مَادِيًّا يَعْنِي أَحَدَ أَمْرَيْنِ: إِمَّا أَنَّهُ بِالذَّاتِ مَادَةٌ، أَوْ أَنَّهُ ظَاهِرَةٌ قَائِمةٌ بِالْمَادَةِ. وَالْإِدْرَاكُ (الْفِكْرُ) لَيْسَ بِذَاتِهِ مَادَةٌ وَلَا هُوَ ظَاهِرَةٌ قَائِمةٌ

بعضُ مادِيٍّ كالدَّماغ، لِأَنَّهُ يَخْتَلِفُ فِي الْقَوَافِينَ الَّتِي تُسَيِّطُرُ عَلَيْهِ عَنِ الْمَادَةِ نَفْسَهَا كَمَا يَخْتَلِفُ عَنِ الصُّورَةِ الْمَادِيَّةِ الْمُنْعَكَسَةِ عَلَى الْعُضُوِ الْمَادِيِّ أَوِ الْقَائِمَةِ فِيهِ. وَهَذَا الْفَهْمُ لِلإِدْرَاكِ يَقُومُ عَلَى أَمْرَيْنِ يُمْيِّزَانِ الْفِكْرُ عَنِ الْمَادَةِ وَعَنِ الظَّوَاهِرِ الْقَائِمَةِ فِيهَا :

الْأَوَّلُ : أَنَّ إِدْرَاكَنَا لِلْوَاقِعِ الْمَوْضُوعِيِّ مُخْتَلِفٌ فِي خَصَائِصِهِ الْهَنْدِسِيَّةِ عَنِ الْوَاقِعِ الْمَوْضُوعِيِّ نَفْسِهِ؛ فَنَحْنُ نُدْرِكُ الْوَاقِعَ الْمَوْضُوعِيَّ بِكُلِّ أَتْسَاعِهِ، وَشُمُولِهِ وَتَنْوِعِهِ، وَأَبْعَادِهِ، دُونَ أَنْ يَتَسَعَ الْمُخَّ لِكُلِّ هَذِهِ الْأَبْعَادِ، وَالْأَشْكَالِ، وَالشَّنُوعَاتِ. وَبَدِيهِي أَنَّهُ مِنِ الْمُسْتَحِيلِ مَادِيًّا عَكْسُ صُورَةِ حَدِيقَةِ مَسَاحَتِهَا كِيلُومِترٌ مُرَبِّعٌ عَلَى لَوْحَةِ مَسَاحَتِهَا مِرْتُرٌ مُرَبِّعٌ مَعَ احْتِفَاظِ الْحَدِيقَةِ بِكُلِّ مَسَاحَتِهَا الْخَارِجِيَّةِ وَأَقْتِصَارِ اللَّوْحَةِ عَلَى مَسَاحَتِهَا الْخَارِجِيَّةِ، مَعَ أَنْتَا بِالْفِعْلِ نُدْرِكُ الْحَدِيقَةَ بِكُلِّ مَسَاحَتِهَا وَتَنْوِعِ مَوْجُودَاتِهَا وَيَسْتَحِيلُ مَادِيًّا أَنْ يَكُونُ ذَلِكَ إِنْعَكَاسًا عَلَى جُزْءٍ ضَئِيلٍ مِنِ الْمُخَّ. وَإِذْنَ فَالْفِكْرُ لَيْسَ مَادَةً، وَلَيْسَ ظَاهِرَةً قَائِمَةً بِالْمَادَةِ. وَمَهْمَامَا كَانَ التَّفَسِيرُ الْعِلْمِيُّ لِلإِدْرَاكِ الْخَصَائِصُ الْهَنْدِسِيَّةُ فِي الصُّورَةِ الْعَقْلِيَّةِ فَإِنَّهُ لَا يُجِيبُ عَلَى السُّؤَالِ الْفَلْسُفِيِّ عَنِ مَكَانِ وَجُودِ هَذِهِ الصُّورَةِ الْكَاملَةِ لِلْوَاقِعِ الْمَوْضُوعِيِّ لِلْحَدِيقَةِ. وَيَسْتَحِيلُ الْجَوابُ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ بِأَنَّهَا صُورَةُ مَادِيَّةٍ كَمَا يَسْتَحِيلُ الْجَوابُ بِأَنَّهَا قَائِمَةُ بِالْمَادَةِ، بِالْمُخَّ، وَيَتَعَيَّنُ الْجَوابُ عَلَيْهِ بِأَنَّهَا صُورَةٌ لَا مَادِيَّةٌ وَلَا قَائِمَةٌ بِالْمَادَةِ أَنَّهَا صُورَةٌ مُجَرَّدةٌ عَنِ الْمَادَةِ قَائِمَةٌ بِالْجَانِبِ الرُّوْحِيِّ، الْإِنسَانيِّ مِنِ الْإِنسَانِ.

الثَّانِي : أَنَّ الْفِكْرُ يَتَسَمُ بِظَاهِرَةِ الثَّبَاتِ، بَيْنَمَا الصُّورَ الْحَسِيَّةُ مُتَغِيَّةٌ. فَالصُّورَةُ الَّتِي نُدْرِكُهَا لِلْحَدِيقَةِ وَنَحْنُ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهَا تَبْقَى عَلَى حَالِهَا فِي إِدْرَاكَنَا مُحْتَفَظَةٌ.

بِجَمِيعِ خَصَائِصِهَا فِي حَالٍ نَظَرْنَا إِلَى الْحَدِيقَةِ مِنْ بَعْدِ حَيْثُ تَبَدُّو لِلْبَصَرِ أَصْغَرُ مِمَّا هِيَ فِي الْوَاقِعِ، فَبِالرَّاءِ غَمِّ مِنْ أَنَّ الْمَرِئِيَّ الْبَصَرِيَّ قَدْ تَغَيَّرَ إِلَّا أَنَّ الْإِدْرَاكُ الْفِكْرِيُّ بَقِيَ ثَابِتًاً عَلَى حَالِهِ. وَإِذْنَ فَالْفِكْرُ لَيْسَ مَادَّةً، وَلَيْسَ ظَاهِرَةً قَائِمَةً بِالْمَادَّةِ وَإِلَّا لَمَّا تَمَتَّعَ بِخَاصَّةَ الثَّبَاتِ مَعَ طُرُوهُ التَّغَيُّرِ عَلَى الْمَادَّةِ وَعَلَى إِنْعَكَاسَاتِهَا. وَمَهْمَاهُ كَانَ التَّفَسِيرُ الْعِلْمِيُّ لِظَاهِرَةِ الثَّبَاتِ فَإِنَّهُ لَا يُجِيبُ عَلَى السُّؤَالِ الْفَلْسُوفِيِّ، إِذَا نَحْنُ الصُّورَةَ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ هِيَ الصُّورَةُ الْمُنْعَكَسَةُ عَنِ الْوَاقِعِ الْمَوْضُوعِيِّ عَلَى مَادَّةِ الْجِهازِ الْعَصْبِيِّ وَإِلَّا لِطَرَاتِ عَلَيْهَا نَفْسُ التَّغَيُّراتِ . إِنَّ هَذَا يَكْشِفُ عَنِ أَنَّ الْإِدْرَاكَ لَيْسَ مَادَّةً وَلَا ظَاهِرَةً قَائِمَةً بِالْمَادَّةِ وَإِنَّمَا هُوَ نَشَاطُ الْجَانِبِ الرُّوحِيِّ الْإِنسَانيِّ مِنِ الْإِنْسَانِ.

وَنُجِيبُ ثَانِيًّاً: أَنَّ الْفِكْرُ الْبَشَرِيِّ وَاحِدٌ، فَيَجِبُ أَنْ يَخْضُعَ لِنَفْسِ الْقَوَانِينِ وَلَذَا فَلَيَسْ شَمَّةً فَوْقَ بَيْنِ أَفْكَارِ الْمُؤْمِنِينَ بِالدِّيَالِكْتِيكِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ، وَلَذَا فَيَجِبُ أَنْ يُؤْمِنَ الْمَارِكِسِيُّونَ بِأَنَّ أَفْكَارَ الْبَشَرِ جَمِيعًا مُتَطَوَّرَةً – لِأَنَّهَا جَمِيعًا نَتَاجُ الْلَّطَبِيَّةِ – فَلِمَاذَا يَتَهَمُّونَ أَفْكَارَ غَيْرِهِمْ بِالْجُمُودِ وَالتَّحْجِرِ وَيَسْبِغُونَ فَضِيلَةَ التَّطَوُّرِ عَلَى أَفْكَارِهِمْ وَحْدَهُمْ . وَيَنْبَغِي أَنْ يَتَطَوَّرَ الْفِكْرُ الْبَشَرِيُّ لِدَى جَمِيعِ النَّاسِ فِي جَمِيعِ الْأَزْمَانِ وَالْأُمَكَنَاتِ بِدَرَجَةِ مُتَسَاوِيَةٍ أَوْ مُتَقَارِبةٍ، فَلِمَاذَا تَفَاوَتْ أَفْكَارُ النَّاسِ عَلَى مَدِيَّ التَّارِيخِ؟

المُحاوَلَةُ الثَّالِثَةُ :

أَعْتَبَارُ التَّكَامُلِ الْعِلْمِيِّ فِي شَتَّى الْمَيَادِينِ دَلِيلًا عَلَى الْحَرَكَةِ الدِّيَالِكْتِيكِيَّةِ فِي الْفِكْرِ . وَالْحَقُّ أَنَّ التَّكَامُلِ الْعِلْمِيِّ وَتَقْدِيمِ الْعُلُومِ أَمْرٌ لَا يُمْكِنُ إِنْكَارُهُ، وَلَكِنَّهُ لَا يَصْحُّ

دليلاً على الداعى المازكسيه . فتقديم العلوم وتكاملها جاء نتيجة لزيادة في كمية الحقائق المكتشفة ينبع عنها تقلص في كمية الأخطاء المترادفة ، نتيجة لعمل العلماء الدائين جيلاً بعد جيل ، وليس نتيجة لنمو في داخل كل حقيقة علمية . إنَّ الحقيقة تبدأ بافتراض . إذا بقي هذا الإفتراض ملائين السنين فإنه لا يتحول إلى حقيقة ، وإنما يبقى افتراضًا . الذي يحدث أنَّ العلماء يجرون تجاربهم على أساس هذا الإفتراض الذي يطرح جانباً حين لا تؤيده التجارب ، فإذاً ما أيدته ينتقل إلى درجة من الترجيح تحتاج إلى مزيد من التجارب إلى أن يأخذ صفة الحقيقة العلمية . إنَّ الذي جعل الإفتراض حقيقة ليس نمو الإفتراض وإنما ما أضافته التجارب من خبرات مكتشفة . وإذا غدا الإفتراض حقيقة في ميدان العلوم فقد يواجه أبناء تطبيقه ما يجعله أكثر وثوقاً ، أو يدخل عليه تعديلات معينة ، أو يلغيه من دائرة العلوم نهائياً ، إنَّ كلَّ هذا يعني أنَّ زيادة في كمية الحقائق وتقلصاً في كمية الأخطاء هو ما حصل ، وتاريخ العلوم هو تاريخ المحاولات التي تزيد في كمية الحقائق وتقلص من كمية الأخطاء .

تناقضات التطور

بعد أنْ آمنت المازكسيَّة - كالوَاقعَيَّةِ الإلهيَّةِ - بمبدأ الحركة في الطبيعة وتطور الطبيعة من خلال حركتها العامة - بعد أنْ آمنت بهذا واجهت السؤال الكبير : من أين جاءت الحركة في الطبيعة ؟ .

أجابت على ذلك الواقعَيَّةِ الإلهيَّةِ بأنَّ هذه الحركة معلولة لسبب فوق المادة والطبيعة وهو الله تعالى .

أما المادِيَّةِ الديالكتيكية فقد رفضت الإيمان بحقيقة المبدأ الأول ومن هنا كان علىها أن تجد جواباً على هذا السؤال الكبير . وقد توهمت أنها وجدته في تبني مبدأ التناقض ، برفضها لمبدأ عدم التناقض والهوية . فالمادة تحتوي في داخلها على الأضداد والنِّقائض ، وهي لا بدَّ تتصارع لأنَّها نِقائض وأضداد ، وهذا الصراع يولد الحركة التي تؤدي إلى التغيير والتطور ، فالتطور نتيجة لصراع المُتناقضات في داخل المادة ، فهو ناشيءٌ من سبب ماديٍ ذاتي وليس من مبدأ خارجي فوق المادة والطبيعة كما هو مذهب الواقعَيَّةِ الإلهيَّةِ .

وقد أدى إنكار مبدأ عدم التناقض وتبني مبدأ التناقض إلى إنكار مبدأ آخر وهو مبدأ الهوية أي أنَّ الشيء عبارة عن عين ذاته وليس عبارة عن شيء آخر ، فذهبت المازكسيَّة - نتيجة لتبني مبدأ التناقض - إلى أنه يجب أن يكون الشيء غير نفسه ؛ لأنَّه ما دام الشيء محتوياً لنقيضه ، ونفيه وما دام هذا النقيض نافياً لإثباته ومُنتفيًا في ذات الوقت في حركة نفي مستمرة وانتفاء مستمر فلابد أن

تُنْقلَبُ الْقَضِيَّةُ (آ - هي - آ) إِلَى (لَيْسَتْ آ - هي - آ) دَائِمًاً.
وَالْحَقُّ أَنَّ التَّنَاقُضَ كَمَا بَيَّنَاهُ فِي حَدِيثَنَا عَنْ حَرَكَةِ التَّطَوُّرِ مُشْتَحِيلٌ إِطْلَاقًا
بِحَيْثُ لَا نَسْتَوْرُ أَنَّ عَقْلًا بَشَرِيًّا سَوِيًّا يُؤْمِنُ بِمَا تَدْعِيَ الْمَارِكسِيَّةُ الْإِيمَانَ بِهِ مِنْ
كَوْنِ التَّنَاقُضِ - لَا مُمْكِنًا فَقَطَ - وَإِنَّمَا ضَرُورِيُّ الْوِجُودِ. فَمِنْ الْمُشْتَحِيلِ قَبُولُ
فِكْرَةُ أَنَّ شَيْئًا بَعِينَهُ مَوْجُودٌ بِالْفِعْلِ وَأَنَّهُ بَعِينَهُ مَعْدُومٌ بِالْفِعْلِ فِي زَمَانٍ وَاحِدٍ وَمَكَانٍ
وَاحِدٍ وَشُرُوطٍ مُتَّحِدةٍ وَظَرُوفٍ مُتَّحِدةٍ فِي حَالِي الْوِجُودِ وَالْعَدْمِ.

وَإِنْكَارُ الْمَارِكسِيَّةِ لِمَبْدِإِ عَدَمِ التَّنَاقُضِ نَاشِيءٌ مِنْ أَنَّ مَارِكسُ وَأشْيَاعُهُ لَمْ
يَفْهُمُوا هَذَا الْمَبْدَأَ، أَوْ فَهَمُوهُ وَلَكِنْهُمْ أَنْكَرُوهُ تَوْصِلًا إِلَى غَایَاتِ سِيَاسِيَّةٍ فِي
نَضَالِهِمْ لِلْإِسْتِيَلاءِ عَلَى السُّلْطَةِ. كَمَا بَيَّنَاهُ ذَلِكَ فِيمَا تَقَدَّمَ وَلَذَا فَأَنَّ الْمَارِكسِيَّةَ لَمْ
تُقَدَّمْ بُرْهَانًا عَلَى مَبْدِإِ التَّنَاقُضِ، وَإِنَّمَا قَدَّمَتْ أَمْثَلَةً مِنَ الطَّبِيعَةِ وَالْمُجَتمِعِ زَعَمتْ
أَنَّهَا مَظَاهِرُ التَّنَاقُضِ فِي صَمِيمِ الْمَادِيَّةِ وَلَدِيِّ مُرَاجِعَةِ مَا قَدَّمَهُ كُتَّابُ الْمَارِكسِيَّةِ
مُنْذَ مَارِكسُ وَإِنْجِلِزُ مِنْ أَمْثَلَةِ وَتَحْلِيهِ يَتَبَيَّنُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ التَّنَاقُضِ الْمُدْعَى فِي شَيْءٍ.

* * *

وَخِتَامًا نُلَاحِظُ أَنَّ الْمَارِكسِيَّةَ نَفْسَهَا تُقَدِّمْ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ التَّنَاقُضَ مُشْتَحِيلٌ
وَأَنَّهَا فِي مَوْقِفِهَا هَذَا تَدْعُمُ مَوْقِفَ الْوَاقِعِيَّةِ الْإِلَهِيَّةِ فِي تَمْسِكِهَا بِمَبْدِإِ عَدَمِ
التَّنَاقُضِ. وَهَذَا الدَّلِيلُ نَاشِيءٌ مِنْ تَمْسِكِ الْمَارِكسِيَّةِ بِمَبْدِإِ التَّنَاقُضِ الَّذِي أَدَى بِهَا
إِلَى رَفْضِ مَبْدِإِ عَدَمِ التَّنَاقُضِ فَالْمَارِكسِيَّةُ مِنْ إِيمَانِهَا بِمَبْدِإِ التَّنَاقُضِ وَرَفْضِهَا
لِمَبْدِإِ عَدَمِ التَّنَاقُضِ تَسْسَاقُ لَا شَعُورِيًّا إِلَى مَبْدِإِ عَدَمِ التَّنَاقُضِ، وَإِلَّا فَعَلَيْهَا أَنْ
تُؤْمِنَ بِأَنَّ الْكَوْنَ يَحْتَوِي الْمَبْدَأَيْنِ مَعًا. التَّنَاقُضُ وَعَدَمُهُ.

«وَمَا دُعَاءُ الْكُفَّارِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ»^(١).

قفزات التَّطْوُر

هَذَا الْقَانُون يَتَكَوَّن مِن النَّقَاط التَّالِيَة:

- ١ - إِنَّ حَرَكَة التَّطْوُر هِي اِنْتَقَال مِن التَّرَاكُم الْكَمِي إِلَى التَّغْيِير النَّوْعِي.
 - ٢ - إِنَّ هَذَا الْاِنْتَقَال لَيْس تَدْرِيجِيًّا وَإِنَّمَا هُوَ دَفْعَى يَحْدُث فُجَاءَةً وَبَقْفَازَات.
 - ٣ - إِنَّ التَّغْيِيرَات النَّوْعِيَّة الْفُجَائِيَّة لَيْسَتْ دَائِرِيَّة، وَإِنَّمَا هِي «حَرَكَة تَقدِيمَيَّة صَاعِدَة، وَإِنْتَقَال مِن الْحَالَة الْكَيْفِيَّة الْقَدِيمَة إِلَى حَالَة كَيْفِيَّة جَدِيدَة».
- تَرَى الْمَازِكِسِيَّة أَنَّ هَذَا الْقَانُون حَتَّمِي فِي الطَّبِيعَة وَالْمُجَتمَع.
- وَالْمَازِكِسِيَّة - كَمَا هُو شَأنُهَا فِي قَانُون تَنَاقُضَات التَّطْوُر - لَا تُقْدِم دَلِيلًا فَلْسَفِيًّا عَلَى دَعَاهَا، وَإِنَّمَا تُقْدِم جُمْلَة مِن الْأَمْثَالَ تَدَعُى أَنَّهَا نَمَادِج لِمَا يَحْدُث فِي الطَّبِيعَة وَالْمُجَتمَع عَلَى نَطَاق مُسْتَوْعِب شَامِل.
- وَتَرَى الْوَاقِعِيَّة الْإِلَهِيَّة أَنَّ هَذَا الْقَانُون بَاطِل، وَأَنَّ الْمَازِكِسِيَّة وَضَعْتُهُ لِخِدْمَة أَهْدَافَهَا السِّيَاسِيَّة، كَمَا شَرَحْنَا ذَلِك فِيمَا مَضَى - وَأَنَّ الْمَبَادِيَّة الَّتِي يَتَأَلَّف مِنْهَا هَذَا الْقَانُون غَيْر صَحِيحَة، وَيَتَضَعْ ذَلِك فِيمَا يَأْتِي:

فِي طَرِيقَة الْبُرهَان :

تَعْمَد الْمَازِكِسِيَّة هُنَا - كَمَا هُو الشَّأن فِي قَانُون تَنَاقُضَات التَّطْوُر - إِلَى الْبُرهَان

على موقفها بسرد جملة من الأمثلة كما ذكرنا. ولو سلمنا بصحّة هذه الأمثلة في دلالتها فإنّها لا تدل على أنّ مضمونها قانون عام في الطبيعة والمجتمع، وإنما غاية ما تدل عليه هو صحة مضمونها فقط - فمثال الماء حين يتحوّل - بالحرارة - دفعه إلى غاز حين تبلغ درجة الحرارة (١٠٠) هذا المثال - لو سلمناه، وهو غير مسلم - إنما يدل على صدق قانون قفزات التطور بالنسبة إلى الماء فقط، ولا يمكن الانتقال منه إلى جميع الموجودات الطبيعية. وهكذا الحال بالنسبة إلى جميع الأمثلة الأخرى.

وعلى هذا الضوء، فقانون قفزات التطور مجرد دعوى فلسفية وليس حقيقة فلسفية، لأنّه لم يتم على برهان صحيح.

في مباديء القانون:

آ- تحول التغيير الكمي إلى تغيير كيفي:

والمثال المتداول هو الماء والحرارة فإن الماء إذا أزتفعت حرارته (كميات الحرارة) إلى أن تترافق وتبلغ درجة (١٠٠) ينقلب من حالة السيلان إلى حالة الغاز، فت تكون التغييرات (الكمية - الحرارة في المثال) قد أدت إلى تغييرات نوعية (الحالة الغازية في المثال).

ولكن تصوير المثال غير صحيح فإنّه مبني على اعتبار الحرارة شيئاً كمياً في الماء وهي في الحقيقة ليست كذلك، بل هي كيفية، فالتغيير الكيفي - الحرارة - أدى إلى تغيير كيفي هو الحالة البخارية أو الغازية.

ونلاحظ أنّ هذا المثال بالأسلوب الذي يفرضه الماركسيون يحتوي على

التَّضْلِيلُ فَإِذَا أَفْتَرَضْنَا أَنَّ الْحَرَاءَ فِي الْأَسْلُوبِ الْعِلْمِيِّ - ظَاهِرَةً كَمِيَّةً تُقَاسُ بِالدَّرَجَاتِ . وَالْبُخَارُ أَوُ الْغَازُ ظَاهِرَةً كَمِيَّةً تُقَاسُ بِمُوازِينِ الضَّغْطِ أَوْ بِعِلَاقَاتِ الذَّرَّاتِ فَهُنَا إِذَنَ كَمِيَّاتَنَا - فِرْيَادَةً كَمِيَّةَ الْحَرَاءَ أَدَتْ إِلَى تَغْيِيرِ كَمِيَّةِ الْمَاءِ - أَمَّا إِذَا قُلْنَا إِنَّ الْحَالَةَ الْبُخَارِيَّةَ أَوُ الْغَازِيَّةَ حَالَةً كَيْفَيَّةً؛ لِأَنَّ «كَيْفَيَّةً» الْمَاءِ فِي حَسَنَةِ تَغْيِيرٍ، فَإِنَّ الْحَرَاءَ أَيْضًا حَالَةً كَيْفَيَّةً لِأَنَّ حَالَةً إِحْسَانَنَا بِهَا تَخْتَلِفُ عَنْ كَيْفَيَّةِ إِحْسَانَنَا بِالْبُرُودَةِ .

فَهُنَا إِذَنَ كَيْفِيَّاتَنَا، أَدَى تَغْيِيرَ كَيْفَيَّةِ الْحَرَاءَ إِلَى تَغْيِيرَ كَيْفَيَّةِ الْمَاءِ - وَالْمَازِكَسِيَّةِ تُجَافِي الدَّقَّةِ الْعِلْمِيَّةِ لِأَجْلِ أَنْ تَجْعَلْ مِنِ الْمِثَالِ مُطَابِقًا لِدَعْوَاهَا فَتَسْتَنْدُ إِلَى الْحَرَاءِ بِأَسْلُوبِ الْقِيَاسِ الْعِلْمِيِّ، وَتَسْتَنْدُ إِلَى الْحَالَةِ الْبُخَارِيَّةِ أَوُ الْغَازِيَّةِ عَلَى أَسَاسِ حَسَنَةِ .

بـ الِّإِنْتَقَالِ بِالْقَفْزَةِ وَالْدُّفْعَةِ :

إِنَّ الْوَاقِعِيَّةَ الْإِلَهِيَّةَ لَا تُجَادِلُ فِي وُجُودِ التَّطْوِيرِ الدَّفْعِيِّ فِي الطِّبِّيَّةِ وَلَكِنَّهَا لَا تَعْتَبِرُ ذَلِكَ قَانُونًا كَوْنِيًّا شَامِلًا لِأَنَّهُ كَمَا تَشْتَمِلُ الطِّبِّيَّةُ عَلَى مَظَاهِرِ لِلتَّطْوِيرِ الدَّفْعِيِّ تَشْتَمِلُ كَذَلِكَ عَلَى مَظَاهِرِ لِلتَّطْوِيرِ التَّدْرِيَّجِيِّ .

فَكَمَا نُلَاحِظُ أَنَّ الْمَاءَ يَتَطَوَّرُ مِنِ الْحَالَةِ السَّائِلَةِ إِلَى الْحَالَةِ الْبُخَارِيَّةِ أَوُ الْغَازِيَّةِ دُفْعَةً، نُلَاحِظُ أَيْضًا أَنَّ تَطَوُّرَ الْجُرْثُومَةِ الْحَيَّةِ فِي الْبَيْضَةِ إِلَى فَرْخٍ، وَالْفَرْخِ إِلَى دَجَاجَةٍ إِنَّمَا هُوَ تَطَوُّرٌ تَدْرِيَّجِيٌّ وَلَيْسَ تَطَوُّرًا دَفْعِيًّا . وَكَذَلِكَ الْحَالَ فِي تَطَوُّرِ الْبَذَرَةِ إِلَى شَجَرَةٍ فَإِنَّهُ تَطَوُّرٌ تَدْرِيَّجِيٌّ وَلَيْسَ تَطَوُّرًا دَفْعِيًّا .

ج - إن التطور ليس دائرياً، وإنما هو تقدمي صاعد أبداً لا ينكر الواقعية الإلهية أن التطور في الطبيعة تكاملي وتقدمي، ولكنها تنكر أنه دائماً كذلك، وأنه لا يمكن دائرياً في حالة من الحالات بل ثلاحظ الواقعية الإلهية أن التطور في كثير من الحالات يمكن دائرياً.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك مثال الماء الذي يتحوّل إلى بخار ليعود إلى ماء، فالحركة التطورية هنا دائريّة ولنست تقدميّة.

هذه الملاحظات على طريقة البرهان وعلى مباديء القانون تكشف عن زيف قانون قفزات التطور.

وتبقى ملاحظات إضافية على مثال الماء.

١ - أن الحركة في الماء ليست دينالكتيكية، لأنها - كما نعلم - ليست ناشئة عن تفاعل ذاتي في داخل الماء، بل هي بواسطة الحرارة الخارجية، وإذا كانت ظاهرة التبخر في الماء نموذجاً لما يحدث في الطبيعة والمجتمع فلابد لنا من القول بأن كل الحركات التطورية الدفعية، والتدرجية تحدث بواسطة عوامل خارجية، وحيث لا يكون التطور حتمياً لأن ناشيء من حركة ذاتية في داخل المادة إذ نلاحظ أنه لا توجد حركة ذاتية في داخل المادة، وإنما هي حركة تنشأ من عامل خارجي فتتوقف الحركة التطورية على وجود العوامل الخارجية المؤاتية في الطبيعة، والمجتمع على حد سواء.

٢ - أن القفزة التطورية في الماء لا تستوعبه دفعه واحدة، وإنما يتبع الماء على دفعات ل تستوعب الكمية كلها أو لا تستوعبها كلها - حسب توفر العوامل الخارجية للتبخر - فإذا، فلا وجه للقول بأن هذا القانون في الحياة الاجتماعية

يُقْضي بقلب النَّظَام الإِجْتِمَاعِي ^{بِهِ} وَاحِدَةً وَلَمَّاذَا لَا يُقَالُ إِنَّ الْقَانُونَ يَقْضِي
بِالتَّطْوِيرِ الْمَرْحَلِيِّ الْإِصْلَاحِيِّ فِي الْمُجَمَّعِ كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي الطَّبِيعَةِ، فَيَتَنَاهُ
التَّطْوِيرُ قَفْزَاتٍ جُزُئِيَّةً تَسْنَأُ الْمُؤْسَسَاتِ الَّتِي تَوَفَّرَتْ لَهَا الظُّرُوفُ الْإِجْتِمَاعِيَّةُ
الْقَاضِيَّةُ بِحُدُوثِ إِنْقْلَابٍ فِيهَا؟

الإِرْتِبَاطُ الْعَامُ

قال سَالِيْن :

«إنَّ الدِّيَالِكْتِيكَ - خِلَافاً لِلمِيَاتِافِيزِيَّةَ - لا يُعْتَبَرُ الطِّبِيعَةَ تَرَاكِمًا عَرَضِيًّا لِلأَشْيَاءِ، أو حَوَادِثَ بَعْضُهَا مُنْفَصِلٌ عَنْ بَعْضٍ، أَوْ أَحَدُهَا مُنْعَزِلٌ مُسْتَقْلٌ عَنِ الْآخَرِ، بَلْ يُعْتَبَرُ الطِّبِيعَةَ كُلُّاً وَاحِدًا مُتَمَاسِكًا، تَرَبَطُ فِيهِ الْأَشْيَاءُ وَالْحَوَادِثُ فِيمَا بَيْنَهُما ارْتِبَاطًا عُضُوِيًّا، وَيَتَعَلَّقُ أَحَدُهَا بِالْآخَرِ، وَيَكُونُ بَعْضُهَا شَرْطاً لِبَعْضٍ بِصُورَةٍ مُتَقَابِلَةٍ». هَذِهِ هِيَ دَعْوَى المَازِكِسِيَّةِ وَهِيَ تُرِيدُ أَنْ تَنْسِبْ إِلَى نَفْسِهَا فَضِيلَةَ اكْتِشَافِ هَذَا الْقَانُونِ دُونَ سَوَاهَا مِنَ الْفَلْسَفَاتِ الْمِيَاتِافِيزِيَّةِ.

وَلَكِنَّ الْحَقِيقَةَ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ تَمَاماً، وَقَدْ تَوَرَّطَ أَئِمَّةُ المَازِكِسِيَّةِ - مَازِكِسُ وَإِنْجِلْزُ وَسَوَاهُمَا - فِي هَذِهِ الدَّعْوَى إِمَّا لِجَهْلِهِمْ بِمَوْقِفِ الْمِيَاتِافِيزِيَّةِ - وَالْوَاقِعِيَّةِ الإِلَهِيَّةِ بِوَجْهِ خَاصٍ - وَإِمَّا بِدَافِعٍ مِنَ النِّيَّةِ السَّيِّئَةِ.

فَإِنَّ الْوَاقِعِيَّةَ الإِلَهِيَّةَ تُؤْمِنُ بِقَانُونِ الإِرْتِبَاطِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ لِلدِّيَالِكْتِيكَ فِي دُنْيَا الْفَلْسَفَةِ وَجُودُهُ، بَلْ أَنَّ قَانُونِ الإِرْتِبَاطِ الْعَامِ فِي الْوَاقِعِيَّةِ الإِلَهِيَّةِ رُكْنٌ أَسَاسٌ لَا يُمْكِنُ تَكُونَ نَظَرَةً مُتَكَامِلَةً عَنِ الْكَوْنِ، وَالْحَيَاةِ إِلَّا مِنْ خَلَالِهِ.

وَلَكِنَّ الْوَاقِعِيَّةَ الإِلَهِيَّةَ لَا تَبْنِي مَوْقِفَهَا مِنْ قَانُونِ الإِرْتِبَاطِ الْعَامِ عَلَى أَسَاسِ الدِّيَالِكْتِيكِ الَّذِي تُؤْمِنُ بِهِ المَازِكِسِيَّةُ - وَالَّذِي عَرَفَتْ زَيْفَهُ وَبُطْلَانَهُ فِي بَحْثِ

سابق . وإنما تبني مواقفها من هذا القانون على أساس مبدأ العلية الذي لا يمكن فهم الوجود إلا من خلاله ، وقد تقدم بحثه في فصل سابق من هذه المقالات . فالواقعية الإلهية ترفض مبدأ وجود الكون بالصدفة كما ترفض مبدأ وجود الكون نتيجة لضرورة ذاتية محتواة في داخل عناصره ، وإذا بطل هذا إن الأحتمال أن تَعْيَّنَ أن يكون العالم موجوداً نتيجة لنظام العلية المُتَسَلِّل إلى نهايته وهي العلة العليا والنهائية وهي الله سبحانه وتعالى .

فكُل جُزء من أجزاء الكون في الطبيعة والإنسان يدخل في سلسلة من النتائج لغيره كما يدخل في سلسلة من الآسباب لغيره ، فإذا ، فمن وجهة نظر الواقعية الإلهية ، لا يمكن فهم شيء مالم يربط بعليه وأسبابه ، وشروطه ، وبالإجمال جميع الظروف المؤثرة في وجوده وصيرواته .

وعلينا أن نُلْعِن - قبل إنتهاء هذا البحث - على الكلمة ماركس الافتة التي يقول فيها عن الأشياء والحوادث : (... ويتعلق أحدها بالآخر ، ويكون بعضها شرطاً لبعض بصورة مُتقابلة) .

إن الواقعية الإلهية ترفض فهم الإرتباط العام على هذا الأساس ، فإن قانون الإرتباط على ضوء هذه العبارة - يكون دائرياً ، أي أن العنصرين المترابطين أحدهما سبب في وجود الآخر وسبب عنده في الوقت نفسه ، وهذا مستحيل ؛ لأنّه يفترض وجود الشيء وعدمه ، في إن واحد وهو باطل ؛ لأنّه مستحيل . بل إن نظام العلية يعمل أمّا بصورة أفقية أو بصورة عمودية ، ومجموع العلل والأسباب في الكون يتوجه أتجاهها عمودياً ينتهي في الآخر إلى العلة الأولى والعلياً وهي الله تعالى فما يكون سبباً لوجود شيء أو حالة لا يكون مسبباً عن

ذلك الشيء أو تلك الحالة وإن كان الدور الباطل المستحيل^(١).

(١) أعتمدنا في معظم الأفكار الواردة في هذا الفصل على كتاب فلسفتنا، السيد الصدر، ويعين بمن ي يريد التوسيع في الأبحاث المتعلقة بالرهان الأنس في المازكية أن يرجع إلى الكتاب المذكور (منه).

«رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا
وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ وَعَلَى الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ
وَأَعْفُ عَنَّا وَأَغْفِرْ لَنَا وَأَرْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا
فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ»^(١)

(١) البقرة: ٢٨٦.

الفَهْرَسُ الْفَنِيّةُ الْعَامَّةُ

- ١ - فَهْرَسُ الْآيَاتِ**
- ٢ - فَهْرَسُ الْأَحَادِيثِ**
- ٣ - فَهْرَسُ الْمَصَادِرِ**

فَهْرِسُ الْآيَاتِ

الآية	رقمها	الصفحة
البقرة		٢٩
﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَلْنَا﴾	٢٨٦	٢٤٤
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ إِيمَانًا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾	٨	١٩٩
﴿الَّهُ يَسْتَهِزُ بِهِمْ وَيَمْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَلُونَ﴾	١٥	١٩٩
﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا أَعْلَيْهِ بِمِثْلِ﴾	١٩٤	١٩٢
﴿وَعَلَمَ اللَّهُمَّ أَلْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى﴾	٣٣-٣٠	١٦٨
﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾	٢٩	١٦٨ و ١٠٨
﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِلْأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾	٣٤	١٥٢
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾	٣٠	١٠٨
﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا﴾	١١٧	١٠١
﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾	١٨٠	٢٠
﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيَعْمَلُونَ الصَّلَاةَ﴾	٥-٣	١٢٦
﴿أَسْجُدُوا لِلْأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾	٣٤	١٥٤

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا إِمَّا مَنَا وَإِذَا خَلَوْا﴾	١٦-١٤	١٩٩

آل عمران

﴿وَلَا يَحْرُنَكَ الَّذِينَ يُسَرِّعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾	١٧٩-١٧٦	٢٠٠
﴿وَلَا يَحْسَبَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرًا﴾	١٧٨	٢٠٠
﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمَ اللَّهُ﴾	١٤٢	١٧٤
﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ إِادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾	٥٩	١٠١
﴿قَالَتْ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسِسْنِي بَشَرٌ﴾	٤٧	١٠١
﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ الْأَيَّلِ﴾	١٩١-١٩٠	٦٧
﴿عَلَمْ أَغَيْبٌ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾	٤٤	١٢٦
﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطِلاً﴾	١٩١	١٤٩
﴿وَأَنَّ اللَّهَ لِيَسَ بِظَلَامٍ لِلْغَيْبِ﴾	١٨٢	١٤٤

النّساء

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ﴾	١٤١-١٤٠	٢٠٦
﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِّعُهُمْ﴾	١٤٢	٢٠٦ و ٢٠٧
﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ﴾	١٤٠	٢٠٦

المائدة

﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾	١٩	١٩٢
--	----	-----

الآية	رقمها	الصفحة
«يَأْهُلَ الْكِتَبِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا» ۱۵-۱۶	۱۵	۲۴
«وَيَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ»	۶۴	۱۴۴

الأنعام

۹۸	۳۸	«مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَبِ مِنْ شَيْءٍ»
۱۰۱	۷۳	«وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ»

الأعراف

۲۰۵	۲۸	«قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ»
۲۰۵	۳۳	«قُلْ إِنَّمَا حَرَمَ رَبِّيَ الْفَوْحَشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا»
۱۹۳ و ۱۸۶	۵۴	«وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكَرِينَ»
۱۸۷	۹۹-۹۶	«وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرْبَىٰ ءَامْنُوا وَأَتَقْوَى الْفَتَحَنَا عَلَيْهِمْ»
۱۵۷	۱۷-۱۳	«قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ»
۱۵۶	۱۶	«قَالَ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَا قُعْدَنَ لَهُمْ صِرَاطُكَ الْمُسْتَقِيمَ»
۱۵۳	۱۲	«قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمْرَتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ»
۱۵۲	۱۱	«وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ»
۱۵۴	۱۵	«قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ»
۱۵۳	۱۲	«أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُو مِنْ طِينٍ»
۲۰۱	۱۷۹	«وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ»

الآية	الصفحة	رقمها	
الأنفال			
﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا هُنَّ		٣٠	١٩٧ و ١٨٧
﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَنْكِرِينَ﴾		٣٠	١٩٥
﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَيْتُمُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾		٣٠	١٩٧ و ١٨٧
﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَسْبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُغَزِّونَ﴾		٥٩	١٣
التوبة			
﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾		٧٢	٢٥
يُؤْنس			
﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءِ مَسَّتْهُمْ﴾		٢١	١٨٩ و ١٩٥
يوسف			
﴿وَرَفَعَ أَبَوْيَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً﴾		١٠٠	١٦١
اللَّعْد			
﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾		١٤	٢٢٤
﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَلَّهُ الْمَكْرُ جَمِيعاً﴾		٤٢	١٨٩
﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْلُّغْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾		٢٥	١٨٩
﴿زُينَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾		٣٣	١٨٩

الآية	رقمها	الصفحة
﴿أَللّٰهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾	٤ - ٢	٦٧

إِبْرَاهِيمٌ

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾	٣٤	١٧٠
---	----	-----

الْمِفْرَد

﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَّا مَسْنُونٍ﴾	٢٩ - ٢٨	١٥٢ و ١٥٩
﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾	٤٠ - ٣٤	١٥٦
﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيْنَنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾	٣٩	١٥٥
﴿قَالَ يَتَاءِلَّيْسُ مَا لَكَ أَلَا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾	٢٢ - ٢٣	١٥٢
﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾	٢٨ - ٣٧	١٥٤

النَّهْل

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوَقِبْتُمْ بِهِ﴾	١٢٦	١٩٢
﴿مَنْ عَمِلَ حَسَلِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾	٩٧	٢٥
﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَئِيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾	٤٠	١٠١
﴿وَاللّٰهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ﴾	٦٥ - ٦٩	٦٧
﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعٌ﴾	١١ - ٥	٦٧

الآية	رقمها	الصفحة
الإسراء		
«وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمْرَنَا مُتَرَفِّهَا فَسَقُوا فِيهَا» ١٦٤	٢٠٢	
«مَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا» ١٥	٢٠٢	
«قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَمْتَ عَلَيَّ لَيْنَ أَخْرَثْنَ» ٦٢ ١٥٨ و ١٦٣	١٥٨ و ١٦٣	
«مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ» ١٨	١٥٤	
الكاف		
«فَوَجَدَاهُ فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ» ٧٧	٢٠٤	
«وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَّدُوا» ٥٠	١٥١	
مرثية		
«مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا» ٢٥	١٠١	
طه		
«وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَيْهِ أَدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ» ١١٥	١٧٤	
«وَعَصَى إِادَمُ رَبَّهُ وَفَغَوَى» ١٢١	١٧٠	
المطفئ		
«لَيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ» ٥٣	١٥٤	
«أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ» ٦٥	٦٧	

الآية	رقمها	الصفحة
المُؤْمِنُونَ		
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا أَلْإِنْسَانَ مِنْ سُلْطَانٍ مِّنْ طِينٍ﴾	١٤ - ١٢	١٢٧
النُّورُ		
﴿لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَمْغَرِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾	٥٧	١٣
الْفُرْقَانِ		
﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ وَتَقْدِيرًا﴾	٢	١١٦
النَّمَلُ		
﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾	٥١	١٩٤ و ١٨٧
﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾	٤٨	١٩٤
الْقَصَصُ		
﴿فَالْتَّقَطَهُ زَعَالٌ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًا وَحَزَنًا﴾	٨	٢٠١
﴿تِلْكَ أَلَدَارُ الْآخِرَةِ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا﴾	٨٣	٥٧
الْعَنكَبُوتُ		
﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُّلَنَا﴾	٦٩	١٥٩

الصفحة	رقمها	الآية
آلرُّوْه		
٦٧	٨	﴿أَوَلَمْ يَتَكَبَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْسَّمَوَاتِ﴾
لِقَمَان		
٦٧	٢٠	﴿أَلَمْ تَرَوْ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾
فَاطِر		
١٩٧	٤٣ - ٤٢	﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لِئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾
١٩٧	٤٣	﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ أَلَّا يَأْهُلِيهِ﴾
١٧٤	٦	﴿إِنَّ الشَّيْطَنَ لَكُمْ عَدُوٌ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًا﴾
١٤٩	١٠	﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾
يس		
١٤٧ و ١٠١	٨٢	﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ وَإِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ﴾
١٨٧	٩	﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾
الظَّافَات		
١٧٨	١١١ - ١٠٣	﴿فَلَمَّا أَسْلَمَهَا وَتَلَهُ، لِلْجَيْنِ وَثَدَيْنَهُ أَنْ يَتَابَرْهِيمُ﴾
١٧٨	١٠٢	﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ الْسَّعْيَ قَالَ يَبْتَئِلَ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ﴾
١٧٧	١٠٧	﴿وَفَدَيْنَهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾

الآية	رقمها	الصفحة
ص		
«فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ»	١٥٣	٧٦-٧٣
«قَالَ فَيُغَزِّلُكَ لَا غُوَيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ»	١٥٨	٨٣-٨٢
«إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقَتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ»	١٥٢	٧٢-٧١
غافر		
«هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمْبِتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا»	١٠١	٦٨
فضلت		
«إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ أَسْتَقْبَلُوا»	١٥٨	٢١-٢٠
الشهري		
«وَجَزُؤُ أَسْيَئَةٍ سَيِّئَةً مِثْلَهَا»	١٩٢	٤٠
الأفقاف		
«يَقُولُونَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرُ لَكُمْ»	٢٥	٣٢-٣١
الغثيم		
«لَيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَمِنِكَ وَمَا تَأْخَرَ»	١٧٠	٢

الآية	النَّفَم	رَقْمَهَا	الصَّفَحَة
«إِنَّ الظُّنُنَ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا»	النَّفَم	٢٨	٦٩
«إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدْرٍ»	القَمَر	٤٩	١٧٠ و ١٤٣
«خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَارِ»	الْأَفْمَن	١٥-١٤	١٥١
«نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَنَهُمْ أَنفُسَهُمْ»	الْفَشَر	١٩	١٩٢
«ذَلِكَ مِنْ أَمْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ ٢٧-٢٦»	الْمِنْ	٢٦	١٢٦
«إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَفِظِينَ كِرَاماً كَتِيبِنَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ» ١٠	الْإِنْفِطَار	١٢٥	
«أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعَمَادِ»	الْفَجْر	١٤-٦	٢٠٣

فَهْرِسُ الْأَحَادِيث

الصَّفْحَة	طَرْفُ الْحَدِيث
١٠٨	لَعَلَكَ تَرَى أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْ بَشَرًا غَيْرَكُمْ؟
١٠٨	أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ مِئَتَيْ أَلْفَ آدَمَ
١٠٨	لَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ مُنْذُ خَلْقِهَا سَبْعَةَ عَالَمَيْنَ
١١١	الشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ دَائِبَانِ فِي مَرْضَاتِهِ
١١١	بِيُّلْبِيَانِ كُلَّ جَدِيدٍ، وَبِيُّقَرَّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ
١١١	مَنْ كَانَتْ مَطْيَّثُهُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ؛ فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ
١٤١	لَا جَبْرٌ وَلَا تَفْوِيسٌ بَلْ أَمْرٌ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ
١٥٤	أَسْتِتَمَّا مَا لِلْبَلِيَّةِ
١٥٥	مَا أُبْتَلِي أَحَدٌ بِمِثْلِ الْإِمْلَاءِ لَهُ
١٥٤	وَأَسْتَادَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْمَلَائِكَةَ وَدِيعَتَهُ لَدَيْهِمْ
١٦٧	خَيْرٌ مَا حِثْتُ بِهِ أَنَا، وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي كَلِمَةً لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
١٧٠	كُلَّ مَوْلُودٍ يُؤْلَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ
١٩٠	يَا مُوسَى مَنْ زَنَّا زَنِي بِهِ، وَلَوْ فِي الْعَقْبِ مِنْ بَعْدِهِ
٢٠٠	وَأَسْتَرَاحَ قَوْمٌ إِلَى الْفِتْنِ

فَهْرُسُ الْمَصَادِرِ الْمَطْبُوعَةِ وَالْمَخْطُوَّةَ

١. القرآن الكريم، كتاب الله تبارك وتعالى الحي القيوم.

حَرْفُ الْأَلْفِ

٢. الأخبار الطوال، لأحمد بن داود الدينوري (أبو حنيفة ت ٢٨٢ هـ)
تحقيق: عبد المنعم عامر. طبعة دار المسيرة - بيروت، طبعة دار إحياء الكتب
العربية سنة (١٩٦٠ م).

٣. الإختصاص، المنسوب لمحمد بن محمد بن النعمان العكبري المعروف
ب الشيخ المفید، نشر جماعة المدرسین. قم: إيران.

٤. الإستیعاب فی معرفة الأصحاب، يوسف بن عبد الله بن محمد القرطبي
أبو عمر المشهور ب ابن عبد البر النمری، (ت ٤٦٣ هـ). تحقيق: علي محمد معرض
دار الكتب العلمية. بيروت - لبنان. وتحقيق علي البجاوي. طبعة القاهرة
وبهامش الإصادبة.

٥. أنس اللييني. أخذ بالواسطة.

٦. الإتحافات السنیة فی الأحادیث القدسیة. أخذ بالواسطة.

٧. أُسْدُ الْغَابَةِ فِي مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ، لِأَبِي الْحَسَنِ عِزْزِ الدِّينِ عَلَيَّ بْنِ أَبِي الْكَرَمِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْكَرِيمِ الشَّيْبَانِيِّ الْمَعْرُوفِ بِابْنِ الْأَثِيرِ الْجَزَرِيِّ (ت ٦٣٠ هـ)، تَحْقِيقُهُ: مُحَمَّدٌ إِبْرَاهِيمٌ، طَبْعَةٌ - الْقَاهِرَةُ - ١٣٩٠ هـ، وَطُبِعَ بِالْأُفْسَتِ فِي الْمَكْتَبَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لِلْحَاجِ رِيَاضٍ، وَطُبِعَ بِالْمَطَبْعَةِ الْوَهْبِيَّةِ بِمَصْرٍ.
٨. أَضْوَاءُ عَلَى السُّنْنَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، أَوْ دِفَاعُ عَنِ الْحَدِيثِ، مَحْمُودُ أَبُو رَيْهَ، مِنْشُورَاتُ مُؤْسَسَةِ الْأَعْلَمِيِّ لِلْمَطَبُوعَاتِ بَيْرُوتُ، الطَّبْعَةُ الْخَامِسَةُ. وَطَبْعَةُ دَارِ الْمَعَارِفِ بِمَصْرٍ.
٩. الْإِصَابَةُ فِي تَمْيِيزِ الصَّحَابَةِ، مُحَمَّدُ بْنُ حَبِيبِ الْبَغْدَادِيِّ. طَبْعَةُ مَوْلَائِ عَبْدِ الْحَفِيظِ. الْقَاهِرَةُ (١٣٢٨ هـ).
١٠. الْإِصَابَةُ فِي تَمْيِيزِ الصَّحَابَةِ، (بِهَا مِشَ الْإِسْتِيَاعُ لِابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ). أَخْمَدُ بْنُ حَجَرِ الْعَسْقَلَانِيِّ (٧٧٣-٨٥٢ هـ). دَارُ الْعُلُومِ الْحَدِيثَةِ. وَطَبَعَاتٌ أُخْرَى لِأَحْقَفَةِ.
١١. الْأَنْسَانُ... ذَلِكَ الْمَجْهُولُ، لِلْطَّبِيبِ الْفَرَنْسِيِّ الشَّهِيرِ «الْكِسِيسِ كَارِيل».
١٢. الْأَعْلَامُ، قَامِوسُ تَرَاجِمِ لِأَشْهَرِ الرِّجَالِ... خَيْرُ الدِّينِ بْنِ مَحْمُودِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلَيَّ بْنِ فَارِسٍ، أَيُّولُ سَبْتَمْبَرِ ١٩٩٢ م دَارُ الْعِلْمِ بَيْرُوت - لُبْنَانُ.
١٣. أَمَالِيُّ الْمُرْتَضَى، عَلَيَّ بْنُ الْحُسَيْنِ الْعَلَوِيِّ. طَبْعَةُ مَصْرٍ عَام ١٣٢٥ هـ / ١٩٠٧ م بِتَحْقِيقٍ / مُحَمَّدُ أَبُو الْفَضْلِ إِبْرَاهِيمٌ. دَارُ الْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ - بَيْرُوتُ. لُبْنَانُ.
١٤. أَمَالِيُّ الشَّيْخِ الطَّوْسِيِّ، لِأَبِي جَعْفَرِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ الطَّوْسِيِّ مِنْشُورَاتُ الْمَكْتبَةِ الْأَهْلِيَّةِ، اوْفَسَيَّتُ مَكْتبَةِ الدَّاوَرِيِّ، قُمُّ - إِيْرَانُ، وَالْمَطَبْعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ، طَهْرَانُ ١٤٠٤ هـ وَطَبَعَتُ مُؤْسَسَةُ الْبِعْثَةِ دَارُ الثَّقَافَةِ قُمُّ ١٤١٤ هـ.
١٥. الْإِمَامَةُ وَالسُّيَاسَةُ، لِأَبِي مُحَمَّدِ عَبْدِ اللَّهِ أَبْنِ مُسْلِمٍ الْمَعْرُوفِ بِابْنِ قُتْبَيَّةِ

- الدّينوري (ت ٢٧٦ هـ)، مكتبة ومطبعة مصطفى بابي الحلبي، مصر ١٣٨٨ هـ.
١٦. السيرة الحلبية (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون)، علي بن برهان الشافعي الحلبي، دار الفكر العربي بيروت ١٤٠٠ هـ.

هَرْفَ الْبَاء

١٧. البداية والنهاية، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تحقيق: علي شيري، دار الكتب العلمية، الطبعة الخامسة، (١٤٠٩) هـ، مطبعة السعادة مصر عام ١٣٥١ هـ.
١٨. البداية والنهاية، محمد بن عبد الرحمن الكناني (ت ١٣١٢ هـ). طبعة القاهرة (١٣٥٨ - ١٣٥١ هـ).
١٩. البحار، للعلامة المجلسي. طبعة سنة (١٤١٢ هـ). مؤسسة الوفاء بيروت: لبنان، وأيضاً طبعة إيران، طبعة سنة (١٣٩٤ هـ) إيران.
٢٠. بين الجاهلية والإسلام، محمد مهدي شمس الدين، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري (١٣٩٠ هـ).
٢١. البيان الشيعي. أخذ بالواسطة.

هَرْفَ التَّاء

٢٢. تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر العباسي المعروف باليعقوبي، طبعة النجف الأشرف ١٣٥٤ هـ.
٢٣. تاريخ بغداد، لأحمد بن علي الخطيب البغدادي، طبعة دار السعادة مصر.

٤٤. التَّارِيخُ الْكَبِيرُ لِمُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلِ الْبُخَارِيِّ، طَبْعَةُ حَيْدَرِ آبَادِ الدَّكْنَ.
٤٥. تَارِيخُ أَبْنِ خُلُدُونَ، الْمُسْمَى التَّارِيخُ أَوُ الْعِبْرُ وَدِيوَانُ الْمُبْتَدَأِ أَوُ الْخَبْرُ.
٤٦. عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدِ الْمَشْهُورِ بْنِ خُلُدُونَ (ت ٨٠٨ هـ)، طَبْعَةُ دَارِ الْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ بَيْرُوت ١٩٧١ هـ.
٤٧. تَارِيخُ دِمْشِقَ، حَمْزَةُ بْنُ أَسْدِ الْقَلَانِسِيِّ (ت ٥٥٥ هـ). طَبْعَةُ بَيْرُوتِ عَام (١٩٠٨ م).
٤٨. تَارِيخُ الْإِسْلَامِ، مُحَمَّدُ بْنُ أَخْمَدَ بْنُ عُثْمَانَ الدَّهْبِيِّ، (ت ٧٤٨ هـ) مَكْتَبَةُ الْقُدْسِيِّ الْقَاهِرَةِ (١٣٦٨ هـ) تَحْقِيقُ بَشَارِ عَوَادَ مَعْرُوفٍ طَبْعَةُ الْقَاهِرَةِ (١٩٧٧ م).
٤٩. تَارِيخُ الطَّبَرِيِّ تَارِيخُ الرُّسُلِ وَالْأُمُمِ وَالْمُلُوكِ، لِأَبِي جَعْفَرِ مُحَمَّدِ بْنِ جَرِيرِ الطَّبَرِيِّ (... - ٣١٠ هـ)، تَحْقِيقُ مُحَمَّدِ أَبْوِ الْفَضْلِ إِبْرَاهِيمِ دَارِ الْمَعَارِفِ الْقَاهِرَةِ (١٩٦٠ م) طَبْعَةُ أُورْبَا، طَبْعَةُ الْإِسْتِقَامَةِ مَصْرُ.
٥٠. تَارِيخُ أَبْنِ عَسَاكِرَ (تَارِيخُ دِمْشِقَ)، الْأَجْزَاءُ الَّتِي حَقَّقَهَا الْمُحْمُودِيُّ، تَرْجِمَةُ الْإِمَامِ عَلَيِّ وَالْإِمَامِ الْحَسَنِ وَالْإِمَامِ الْحُسَيْنِ.
٥١. تَارِيخُ الْمَدِينَةِ الْمُنُورَةِ (أَخْبَارُ الْمَدِينَةِ)، لِعُمَرِ بْنِ شَيْبَةٍ. تَحْقِيقُ: فَهِيمُ مُحَمَّدِ شَلْتُونَ. دَارُ التَّرَاثِ وَالْدَّارُ الْإِسْلَامِيَّةُ ١٩٩٠ م بَيْرُوت: لُبْنَانُ.
٥٢. تَارِيخُ الْيَعْقُوبِيِّ، أَخْمَدُ بْنُ أَبِي يَعْقُوبِ بْنِ جَعْفَرِ الْعَبَّاسِيِّ الْمَعْرُوفِ بِالْيَعْقُوبِيِّ، طَبْعَةُ النَّجَفِ الْأَشْرَفِ ١٣٥٤ هـ.
٥٣. تَارِيخُ الْيَعْقُوبِيِّ، لِابْنِ وَاضْحٍ. طَبْعَةُ دَارِ صَادِرِ بَيْرُوتِ. وَأيْضًا النَّجَفُ.

٣٤. تَفْسِيرُ الْكَشَافِ ، لِأَبِي القَاسِمِ جَارِ اللَّهِ مَحْمُودِ بْنِ عُمَرَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ
٣٥. تَرْجِمَةُ الْإِمَامِ عَلَيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، مِنْ تَارِيخِ دِمْشِقِ الْكَبِيرِ ، لِعَلَيِّ بْنِ هِبَةِ اللَّهِ الْمَعْرُوفِ بْنِ عَسَاكِرٍ ، طَبْعَةُ دِمْشِقٍ .
٣٦. تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ، (تَفْسِيرُ أَبْنِ كَثِيرٍ) ، لِإِسْمَاعِيلِ بْنِ عُمَرَ بْنِ كَثِيرٍ الْبَصْرِيِّ الدَّمْشِقِيِّ ، (ت ٧٧٤ هـ). طَبْعَةُ بَيْرُوتِ دَارِ الْمَعْرِفَةِ ١٤٠٧ هـ ، طَبْعَةُ دَارِ إِحْيَا التِّرَاثِ الْعَرَبِيِّ ، طَبْعَةُ دَارِ صَادِرٍ .
٣٧. تَنْزِيهُ الْأَنْبِيَاءِ لِلشَّرِيفِ الْمُرْتَضِيِّ . أُخْذَ بِالْوَاسْطَةِ .
٣٨. تَفْلِيسِ إِبْلِيسِ ، الْمَقْدُسِيِّ . أُخْذَ بِالْوَاسْطَةِ .
٣٩. تَفْسِيرُ الْكَشَافِ ، لِأَبِي القَاسِمِ جَارِ اللَّهِ مَحْمُودِ بْنِ عُمَرَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدِ الْزَّمْخَشِريِّ (ت ٥٣٨ هـ) ، طَبْعَةُ دَارِ الْمَعْرِفَةِ بَيْرُوتِ ، قُمِّ ، دَارِ الْبَلَاغَةِ .
٤٠. تَفْسِيرُ الشَّعْلَبِيِّ (الْكَشْفُ وَالبَيَانُ فِي التَّفْسِيرِ) ، لِأَحْمَدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمِ النَّيْسَابُورِيِّ ، (ت ٤٣٧ هـ) ، مَطْبُوعُ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ عَلَى الْحَجَرِ ، وَ(مَخْطُوطٌ) فِي مَكَتبَةِ الْمَرْعَشِيِّ النَّجْفِيِّ الْعَامَّةِ .

هَرْفُ الْثَّاءُ

٤١. الثُّقَاتُ ، لِأَبِي حَاتِمِ مُحَمَّدِ بْنِ حَبَّانِ بْنِ أَحْمَدِ التَّمِيميِّ الْبَسْتِيِّ ، (٥٣٤ هـ) الطَّبْعَةُ الْأُولَى ، مَطْبَعَةُ مَجْلِسِ دَائِرَةِ الْمَعَارِفِ العُثْمَانِيَّةِ بِحَيِّدِر آبَادِ الدَّكْنِ ، الْهِنْدِ ، عَامُ ١٣٦٩ هـ .

هَرْفَ الْمِيم

٤٢. جامع البيان عن تأويل القرآن، أبي جعفر محمد بن جرير الطبرى (المتوفى ٣١٠ هـ).
٤٣. الجامع الصحيح (سنن الترمذى)، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى (ت ٢٩٧ هـ) تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث، بيروت.
٤٤. الجامع الصحيح (صحيح مسلم) بشرح النووي، لمسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النیشاپوري (ت ٢٦١ هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ.
٤٥. الجامع الصغير، في أحاديث البشير النذير جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ)، الطبعة الأولى - القاهرة ١٣٦٥ هـ.
٤٦. الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ)، طبعة الفجالة القديمة مصر..، والطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، تصحيح أحمد عبد العليم البردوني.
٤٧. جريدة النهار البيروتية في حلقات أسبوعية فيما بين ٢٢ شباط سنة ١٩٧٠ و١٧ أيار سنة ١٩٧٠ م.
٤٨. جريدة الأخبار المصرية العدد / ٦٠٥٢ - ٦٠٥٣ - ٦٠٥١ . أخذ بالواسطة.
٤٩. جريدة الجمهورية المصرية تاريخ ٢ / آذار سنة ١٩٦٢ م. أخذ بالواسطة.
٥٠. جريدة النهار بتاريخ ١٤ / ١٢ / ١٩٧٢ م. أخذ بالواسطة.
٥١. جمهرة أنساب العرب، علي بن أحمد بن جزم (ت: ٦٥٥ هـ). تحقيق: عبد السلام هارون. طبعة القاهرة (١٩٦٢ م).

هرف الفاء

- ٥٢ . حُجَّيَةُ السُّنَّةُ لِلشَّيْخِ عَبْدِ الْغَنِيِّ عَبْدِ الْخَالِقِ بِعُنُوانِ (الْمُقْدَّمةُ الثَّانِيَةُ) فِي عِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ .
- ٥٣ . الْحَدَائِقُ الْوَرَدِيَّةُ فِي مَنَاقِبِ الْأَئِمَّةِ الزَّيْدِيَّةِ، لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ الشَّهِيدِ حُمَيْدِ أَبْنِ أَحْمَدَ الْمَحَالِيِّ التَّمِيميِّ الْوَادِعِيِّ، مَطْبُوعٌ، وَمَخْطُوطٌ فِي مَكْتَبَةِ آلِ كَاشِفِ الْغِطَاءِ بِرَقْمِ «٧١٣»، وَمُصَوَّرٌ عَنْ مَخْطُوطَةِ نُسْخَتْ سَنَةَ (١٣٥٧ هـ). دَارُ أَسَامَةَ . دِمْشِقُ ١٤٠٥ هـ .
- ٥٤ . حَلَيَةُ الْأَوْلِيَاءِ وَطَبَقَاتُ الْأَصْفَيَاءِ، أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ . أَبُو نَعِيمِ الْإِصْبَهَانِيِّ (الْمُتَوفَّى ٤٣٠ هـ) .

هرف الفاء

- ٥٥ . الْخِصَالُ، لِأَبِي جَعْفَرِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلَيِّ بْنِ الْحُسَينِ بْنِ بَابُوِيَّهِ الْقُمِيِّ الْمَعْرُوفِ بِالشَّيْخِ الصَّدُوقِ، مُؤْسَسَةُ الْأَعْلَمِيِّ بَيْرُوت، الطَّبْعَةُ الْخَامِسَةُ (١٤٠٠ هـ) تَصْوِيرِ دَارِ صَادِرِ بَيْرُوتِ، بَدْوُنِ تَارِيخٍ وَطَبْعَةِ الْأَعْلَمِيِّ بَيْرُوتِ (١٤١٠ هـ) .
- ٥٦ . خَوَاطِرُ مِنَ الدِّينِ وَالْحَيَاةِ، الْأَسْتَاذُ الدُّكْتُورُ عَبْدُ الْمُنْعِمِ النَّسَمِيِّ مُدِيرُ الْبُحُوثِ إِسْلَامِيَّةِ فِي الْأَزْهَرِ الشَّرِيفِ الطَّبْعَةُ الْأُولَى (١٩٧٣ مـ - دَارُ الْكِتَابِ الْلُّبْنَانِيِّ - بَيْرُوت - لُبْنَانٌ : ٢١٠ - ٢١٢) .

هرف الدال

- ٥٧ . الدُّرُّ الْمَنْثُورُ فِي طَبَقَاتِ رَبَّاتِ الْخَدُورِ، الْعَالَمِيِّ - زَيَّنَبِ (ت ١٣٣٢ هـ) .

طبعة القاهرة (١٣١٢ هـ).

٥٨. الدر المنشور في التفسير بالماثور، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ). دار الفكر بيروت: لبنان.

٥٩. دول الإسلام، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : (ت ٧٤٨ هـ). تحقيق: فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم. طبعة القاهرة (١٩٧٤ م).

هرف الهاء

٦٠. الهدایة الكبیری، لحسین بن حمدان للخیسی «٣٥٨ هـ»، طبع سنة ١٤٠٦ هـ، مؤسسة البلاغ.

هرف السنين

٦١. سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمیع أدللة الأحكام، لمحمد بن إسماعيل الكحلاني ثم الصناعي الیمنی، مطبعة مصطفی البابی الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الرابعة ١٣٧٩ هـ.

٦٢. سُنن أبي ماجه، لأبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني (ت ٢٧٥ هـ)، تحقيق: فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٥ هـ. ونشر دار الفكر، طبعة - بيروت ١٣٧١ هـ.

٦٣. سُنن الترمذی، لأبي عیسیٰ محمد بن عیسیٰ بن سورۃ الترمذی (ت ٢٩٧ هـ) تحقيق: أَحْمَد مُحَمَّد شَاكِر، دار إحياء التراث، بيروت.

٦٤. سُنن النسائي، الحافظ المُتوفى سنة (٣٠٣ هـ). طبعة دار الكتب العلمية.

٦٥. سُنن أبي داود، لأَشعث السجستاني الأَزدي (ت ٢٧٥ هـ)، إعداد وتعليق: عِزْت عبد الدّاعس، طبعة دار الحديث الطّبعة الأولى - حِمْص ١٣٨٨ هـ وطبعة مُصطفى البَابِي - مصر ١٣٩١ هـ.
٦٦. سِير أَعْلَام النُّبُلَاء، مُحَمَّد بن أَخْمَد بن عُثْمَان الْذَّهَبِي (ت ١٣٧٤ مـ). تحقيق: مَجْمُوعة مِن الباحثين تحت إشراف: شُعِيب الْأَرْنَاؤُوط. مؤسسة الرسالة بَيْرُوت - لُبْنَان.
٦٧. السِّيَرَة النَّبُوَّيَّة، لأَبي مُحَمَّد عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ هِشَامِ بْنِ أَيُوبِ الْحَمِيرِي، (ت ٢١٣ أو ٢١٨ هـ)، تحقيق: مُصطفى السقا، وإبراهيم الأنباري، وعبد الحفيظ شلبي، مكتبة المصطفى، قُم، الطبعة الأولى ١٣٥٥ هـ.
٦٨. الشَّافِي - فِي الجواب عَلَى الرِّسَالَةِ الْخَارِقَةِ لِلْفَقِيهِ عَبْدِ الرَّحِيمِ بْنِ أَبِي القَبَائِلِ، تَأْلِيفُ الْإِمَامِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَمْزَةِ الْحَسَنِي (٥٦١ - ٦١٤). الطبعة الأولى ١٩٨٩ مـ. منشورات مكتبة اليمن الكبرى، اليمن - صنعاء.

هَرْفُ الشَّيْن

٦٩. شَرْحُ الْبَحْرِ الرَّائِقِ، لِزَيْنِ الدِّينِ بْنِ إِبْرَاهِيمِ بْنِ مُحَمَّدِ الْمَعْرُوفِ بْنِ نُجَيْمِيَّ، المَصْرِيُّ الْحَنْفِيِّ.
٧٠. شَرْحُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ، لِلشَّيْخِ مُحَمَّدِ عَبْدِهِ، طبعة دار الكتاب العربي ١٤٠٦ هـ، طبعة الفجالة الجديدة - مصر ١٤٠٣ هـ.
٧١. شَرْحُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ؛ لِلخُوئِيِّ، طبعة دار الفكر بَيْرُوت ١٤٠٦ هـ.

٧٢. شَرْح نَهْجُ الْبَلَاغَةِ، لِابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ الْمُعْتَزَلِيِّ (ت ٦٥٦ هـ)، تَحْقِيق: مُحَمَّدُ أَبُو الْفَضْلِ، طَبْعَةٌ - بَيْرُوتٌ ١٤٠٩ هـ.
٧٣. شَرْح نَهْجُ الْبَلَاغَةِ، أَبْنَ أَبِي الْحَدِيدِ، عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ هَبَّةِ اللَّهِ (ت: ٦٥٥ هـ). طَبْعَةٌ بَيْرُوتٌ (١٣٧٤ هـ). وَبِتَحْقِيقٍ: مُحَمَّدُ أَبُو الْفَضْلِ إِبْرَاهِيمٌ. طَبْعَةٌ دَارُ إِحْيَا الْكُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ - مَصْرُ.
٧٤. الشِّيَعَةُ فِي الْمِيزَانِ مُحَمَّدُ جَوَادُ مُغْنِيَّةٌ، بِتَحْقِيقِنَا.

هَرْفُ الصَّادِ

٧٥. صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ، لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُغَيْرَةِ الْجَعْفِيِّ الْبُخَارِيِّ، (ت ٢٥٦ هـ)، تَحْقِيقٌ: مُضْطَفُنِي دِيبُ الْبَغا، دَارُ أَبْنَ كَثِيرٍ، بَيْرُوتٌ، الطَّبْعَةُ الرَّابِعَةُ ١٤١٠ هـ، وَمَطَبْعَةُ الْمُصْطَفَائِيِّ ١٣٠٧ هـ.
٧٦. شَرْحُ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، عَبْدُ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنِ إِسْمَاعِيلَ، لَمَحْمُودِ بْنِ أَخْمَدِ الْعَيْنِيِّ (ت ٨٥٥ هـ)، مَطَبْعَةُ الْفَجَّالَةِ الْجَدِيدَةِ - مَصْرُ ١٣٧٦ هـ.
٧٧. صَحِيحُ التَّرمذِيِّ، لِعِيسَى بْنِ سَوْرَةِ التَّرمذِيِّ، (ت ٢٩٧ هـ)، طَبْعَةٌ بَيْرُوتٌ ١٤٠٥ هـ. مَطَبْعَةُ الْمَكْتَبَةِ السَّلْفِيَّةِ بِالْمَدِينَةِ الْمُنُورَةِ.
٧٨. صَحِيحُ مُسْلِمٍ، لِأَبِي الْحُسَيْنِ مُسْلِمِ بْنِ الْحَجَّاجِ الْقُشِّيرِيِّ النِّيَسَابُورِيِّ، (ت ٢٦١ هـ)، تَحْقِيقٌ: مُحَمَّدُ فُؤَادُ عَبْدِ الْبَاقِيِّ، طَبْعَةٌ - بَيْرُوتٌ ١٣٧٤ هـ. دَارُ الْحَدِيثِ - الْقَاهِرَةُ، الطَّبْعَةُ الْأُولَى ١٤١٢ هـ، وَدَارُ إِحْيَا التِّرَاثِ الْعَرَبِيِّ، بَيْرُوتٌ.
٧٩. صَحِيفَةُ (الْمَنَاسِتِرِ جَارِدِيَّانِ) فِي عَدَدِهَا الصَّادِرِ فِي ١٩٥٥ / ١٠ / ١٩.
٨٠. صَحِيفَةُ (لُومُونَدِ الْفَرْنَسِيَّةِ) فِي عَدَدِهَا الصَّادِرِ فِي ١٩٥٥ / ١٠ / ٢٢.

أخذ بالواسطة.

هَرْفَ الطَّاء

٨١. الطبقات الْكُبْرَى، لِمُحَمَّدِ بْنِ سَعْدِ الْوَاقِدِيِّ الْزَّهْرَى (ت ٢٣٠ هـ)، دار
صَادِرٌ، بَيْرُوت ١٤٠٥ هـ، طبعة أوربا، طبعة ليدن.
٨٢. الطَّوَاسِين «طَاسِينُ الْأَزَلَ - الْأَوَّلَ - وَالإِلْتَبَاس»، للحلاج.

هَرْفَ الْعَيْنِ

٨٣. عِضْمَةُ الْأَنْبِيَاءِ لِلشَّيْدِ الْمُرْتَضِيِّ. أُخذ بالواسطة.
٨٤. عِضْمَةُ الْأَنْبِيَاءِ لِلرَّازِيِّ. أُخذ بالواسطة.
٨٥. عُيُونُ أَخْبَارِ الرَّضَا، لِأَبِي جَعْفَرِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلَىِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ بَابَوِيهِ
القُميِّ الْمَعْرُوفِ بِالشَّيْخِ الصَّدُوقِ (ت ٣٨١ هـ)، مَنْشُورَاتِ الْمَكَبَّةِ الْحَمِيرِيَّةِ،
النَّجْفِ الْأَشْرَفِ.
٨٦. عُيُونُ الْأَخْبَارِ وَفُنُونُ الْآثَارِ، لِابْنِ قُتْبَيَةِ الدِّينُورِيِّ (ت ٢٧٦ هـ)، طَبَعَ دَارِ
الْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ، وَطَبَعَ قَدِيمًا.
٨٧. عُيُونُ الْأَخْبَارِ، لِابْنِ قُتْبَيَةِ. طَبَعَةُ الْمُؤَسَّسَةِ الْمَصْرِيَّةِ الْعَامَّةِ. سَنَةُ ١٣٩٢ هـ.

هَرْفَ الْغَيْنِ

٨٨. الْغَارَاتُ، لِأَبِي إِسْحَاقِ إِبْرَاهِيمِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعِيدِ الْمَعْرُوفِ بْنِ هِلالِ

الثقفي، منشورات أنجمن آثار ملي - طهران.

هَرْفَ الفَاءُ

٨٩. فتح الباري شرح صحيح البخاري، محمد بن حبيب البغدادي (ت ٢٤٥ هـ). طبعة بولاق (١٣٠١ هـ). طبعة السلفية (١٣٩٠ هـ).
٩٠. فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني، (ت ٨٥٢ هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، والمطبعة السلفية مصر ١٣٨٠ هـ، وتحقيق: عبد العزيز بن عبدالله بن باز - القاهرة ١٣٩٨ هـ.
٩١. فتوح البلدان، أحمد بن يحيى البلاذري (ت ٢٧٩ هـ). تحقيق: رضوان محمد رضوان. السعادة، القاهرة (١٩٩١ م)، وكذا طبعة (١٣١٩ هـ).
٩٢. فلسفتنا، السيد الشهيد محمد باقر الصدر، المجموعة الكاملة لمؤلفاته التي جمعت في (١٥) مجلداً ومن أشهرها وأكثرها انتشاراً «اقتضانا» و«فلسفتنا» و«البنك اللازمي».
٩٣. الفلسفة الإسلامية في أعمال الفيلسوف الإسلامي العظيم صدر الدين الشيرازي، محمد بن إبراهيم القوامي الشيرازي (٩٧٩ هـ - ١٠٥٠ هـ).
٩٤. الفقه المنسوب للإمام الرضا (عليه السلام)، مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث، قم، نشر المؤتمر العالمي للإمام الرضا (عليه السلام) - مشهد المقدس طبعة (١٤٠٦).
٩٥. الفقيه (من لا يحضره الفقيه)، لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت ٣٨١ هـ)، طبعة مؤسسة النشر

- الإسلامي قم. مؤسسة الأعلم بيروت، الطبعة الخامسة ١٤٠٠ هـ.
٩٦. في ظلال نهج البلاغة شرح العلامة الشيخ محمد جواد مغنية، بتحقيقنا.
٩٧. فلسفة التوحيد والولاية، الشيخ محمد جواد مغنية.

هَرْفَ الْقَاف

٩٨. الفهرست، محمد بن إسحاق بن النديم، تحقيق: ناهد عباس عثمان، نشر دار قطرى بن الفجاءة، الطبعة الأولى الدوحة - قطر ١٩٨٥ م.
٩٩. القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز آبادى، مطبعة مُضطفى البابى الحلبي القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٥٢ م.

هَرْفَ الْكَاف

١٠٠. الكافي (الأصول)، المطبعة الإسلامية. عام (١٣٨٨ هـ. ق). طهران، ثم طبع سنة (١٣٧٧ هـ. ق) الحيدري. طهران - إيران.
١٠١. الكامل في التاريخ، لأبي الحسن علي بن أبي الكرام محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بأبن الأثير (ت ٦٣٠ هـ). عني بمراجعة أصوله: نخبة من العلماء. دار الكتاب العربي. بيروت - لبنان.
١٠٢. كنز العمال في سُنن الأقوال والأفعال، لعلاء الدين علي المتنقي ابن حسام الدين الهندي (ت ٩٧٥ هـ)، تصحيح صفوة السقا، مكتبة التراث الإسلامي - بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ، وطبع دار الوعي حلب ١٣٩٦ هـ.

١٠٣. كشف الغمة في معرفة الأئمة، لعلي بن عيسى الإربلي (ت ٦٨٧ هـ)، تصحيح هاشم الرسولي المحلاتي، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ، طبعة تبريز بدون تاريخ.
١٠٤. كيف يحيى الإنسان؟ تعليق الفيلسوف الصيني «لين يو تانج».

هَرْفُ اللَّاهِ

١٠٥. لسان الميزان، لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، طبعة دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ.

هَرْفُ الْمِيمِ

١٠٦. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، لعلي بن أبي بكر الهيثمي (ت ٨٠٧ هـ)، تحقيق: عبدالله محمد درويش، طبعة دار الفكر، الطبعة الأولى - بيروت ١٤١٢ هـ، مصورة عن طبعة القدسية ١٣٨٩ هـ، طبعة القاهرة الثانية بدون تاريخ.
١٠٧. مجلة «عالم الفكر الكويتي»: ج ٢ / العدد ٢.

١٠٨. مجلة (الإيكونومست) الأسبوعية البريطانية في عددها الصادر في (١٠ مارس سنة ١٩٧٣ م).

١٠٩. مجلة الأحد اللبناني سنة (١٩٧٠ م). أخذ بالواسطة.
١١٠. مجلة العرفان عدّ تشرين الثاني (١٩٦٠ م). أخذ بالواسطة.

١١١. **المَحَاسِن**، لأبي جعفر أحمد بن محمد بن خالد البرقي (ت ٢٨٠ هـ)، تحقيق: السيد مهدي الرجائي، المجمع العالمي لأهل البيت - قم، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ
١١٢. محمد رسول الحرية لعبد الرحمن الشرقاوي . أخذ بالواسطة .
١١٣. مروج الذهب ومعادن الجوهر، لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت ٣٤٦ هـ)، تحقيق: محمد محبي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، الطبعة الرابعة - القاهرة ١٣٨٤ هـ.
١١٤. مسند أحمد، لمحمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١ هـ)، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش ، طبعة دار الفكر، الطبعة الثانية - بيروت ١٤١٤ هـ، طبعة جامعة أم القرى السعودية ، طبعة دار العلم ١٤٠٣ هـ.
١١٥. مسند ابن ماجه، لمحمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥ هـ)، تحقيق: فؤاد عبد الباقي، نشر دار الفكر ، طبعة - بيروت ١٣٧١ هـ، دار إحياء التراث ، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٥ هـ.
١١٦. المصنف، عبد الرزاق بن همام الصناعي (٢١١ هـ). تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي. منشورات المجلس العلمي ، طبعة بيروت سنة (١٣٩٠ هـ) وما بعدها.
١١٧. المعارف، لأبي محمد عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هـ)، حققه وقدم له ثروت عكاشه: منشورات الشريف الرضي الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ.
١١٨. معجم البلدان، لأبي عبدالله شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي (ت ٦٢٦ هـ)، طبعة دار إحياء التراث العربي بيروت الطبعة

الأولى ١٣٩٩ هـ.

١١٩. **المُعجم الصَّغِير**، لأبي القاسم سليمان ابن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي الطبراني (ت ٣٦٠ هـ)، تحقيق: محمد عثمان، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ.

١٢٠. **المُعجم الأوسط**، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٣٦٠ هـ). مكتبة المعارف - الرياض. الطبعة الأولى (١٤٠٧ هـ). قام بإخراجه: إبراهيم مظفر وآخرون. تحت إشراف: مجمع اللغة العربية - مصر.

١٢١. **المُعجم الكبير**، لأبي القاسم سليمان بن أحمد اللخمي الطبراني (ت ٣٦٠ هـ)، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، دار إحياء التراث العربي، بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ

١٢٢. **المُعجم الأوسط**، لأبي القاسم سليمان ابن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي الطبراني (ت ٣٦٠ هـ)، تحقيق: طارق بن عوض الله، وعبد الحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥ هـ.

١٢٣. **مَجْمُوعُ البَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ**، لأبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ)، طبعة دار المعرفة - بيروت ١٤١٩ هـ، طبعة دار إحياء التراث العربي.

١٢٤. **مَقَاتِلُ الطَّالِبِيِّينَ**، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد القرشي الأصبهاني الأموي (٢٨٤ - ٣٥٦ هـ). شرح وتحقيق: السيد أحمد صقر. مؤسسة الأعلمى. بيروت - لبنان.

١٢٥. **المُوطأ**، مَالِكُ بْنُ أَنْسٍ . . . الْكَاظِمِيُّ الْحَمِيرِيُّ . تَحْقِيقٌ: مُحَمَّدٌ فُؤَادٌ عَبْدُ الْبَاقِي . الْمَكْتَبَةُ التَّقَافِيَّةُ . بَيْرُوت - لُبْنَانٌ بِالإِضَافَةِ إِلَى طَبَعَاتٍ أُخْرَى . وَكَذَا طَبَعَةُ الْقَاهِرَةِ .

١٢٦. مُشْتَقُ الأُصُولِ، تَقْرِيرَاتٌ بَحْثُ السَّيِّدِ الرَّوْحَانِيِّ تَقْرِيرَاتُ السَّيِّدِ الْحَكِيمِ .

١٢٧. الْمِيزَانُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، لِمُحَمَّدِ حُسْنِي الطَّبَاطَبَائِيِّ، دَارُ الْكُتُبِ الْإِسْلَامِيَّةِ، طَهْرَانُ، الطَّبَعَةُ الثَّالِثَةُ ١٣٩٧ هـ.

هَرْفُ النُّونِ

١٢٨. الْتَّهَايَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ، لِأَبِي السَّعَادَاتِ مُبَارَكِ بْنِ مُبَارَكِ الْجَزَرِيِّ الْمَعْرُوفِ بِأَبِنِ الْأَئِثِيرِ الشَّيْبَانِيِّ الشَّافِعِيِّ (ت ٦٠٦ هـ)، تَحْقِيقٌ: ظَاهِرٌ أَحْمَدُ الزَّاوِيِّ، مُؤَسَّسَةُ إِسْمَاعِيلِيَّانَ، قُمُّ، الطَّبَعَةُ الرَّابِعَةُ ١٣٦٧ هـ.

١٢٩. نُزْهَةُ الْمَجَالِسِ وَمُنْتَخَبُ النَّفَائِسِ، لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ الصَّفُورِيِّ الشَّافِعِيِّ، الْقَاهِرَةُ .

١٣٠. نَقْدُ الْفِكْرِ الدِّينِيِّ، الدَّكْتُورُ صَادِقُ جَلَالُ الْعَظَمِ . أُخْذَ بِالْوَاسْطَةِ .

هَرْفُ الْوَاءِ

١٣١. الْوَافِيِّ، لِمُحَمَّدِ مُحْسِنِ بْنِ مُرْتَضَى الْفَيْضِ الْكَاشَانِيِّ، نَشْرٌ مَكْتَبَةِ الْإِمَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِصفَهَانٌ ١٤٠٦ هـ.

١٣٢. الْوَافِيِّ بِالْوَفِيَّاتِ، لِصَفَّيِّ الدِّينِ خَلِيلِ بْنِ أَيْبَكِ الصَّفْدِيِّ، دَارُ النَّشْرِ